مِنْ كنوز القرآن
٦

مع قصص السّابقين في القرآن

(٢)

دُرُوسٌ في الإيمانِ ، والدّعوةِ ، والجهادِ

الدّكتور
صلاح عبد الفتّاح الخالدي

دار القلم
دمشق

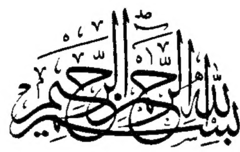
الطبعة الأولى
١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع
دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧
بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١

مع قصص السّابقين في القرآن

(٢)

دُرُوسٌ في الإيمانِ ، والدّعوةِ ، والجهادِ


بسم الله الرحمن الرحيم

القسم الثاني

قصص سورة الكهف

﴿ نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِالْحَقِّ ﴾

(سورة الكهف: آية ١٣)

المحتوى

الموضوع	الصفحة

(٤)

مقـــدّمة

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستهديه، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهد الله فلا مُضل له، ومن يُضلل فلا هـادي له، وأشهـد أن لا إلـه إلا الله، وحده لا شـريك لـه، وأشهـد أن محمـداً عبـده ورسـولـه، صلوات الله وسلامه عليه، وعلى آله وصحبه.

أما بعد:

فهذا هو القسم الثاني من نظراتنـا في قصص السابقين في القـرآن. وقد سبق أنْ أصـدرْنا القسم الأول، الـذي خصصنـاه لأهم قصص بني إسـرائيـل، والذي تحدثنا فيه عن: أم مـوسى عليه السـلام، ومؤمن آل فرعـون، وقارون، وتيه بني إسرائيل، وذبـح البقرة، وأصحاب السبت، وطالوت.

ووعـدْنا في ذلـك الكتاب، متـابعةَ العمـل في هذا المجـال، واستمرارَ النظر مـع أمثلة أخرى من قصص السابقين في القرآن.

وقد خصصْنا هذا القسم لقصص سورة الكهف.

إن سورة الكهف سورةٌ قصصية، وإن القصصَ هو الغـالب عليها، حيث يستغـرق معظم آيـاتها، فهـو وارد في إحدى وسبعين آيـة من مجموع آيـاتهـا، المائةِ وعشر آيات.

والقصص في هذه السورة أربعة: قصةُ أصحاب الكهف، وقصةُ صاحب الجنتين مع صاحبه المؤمن، وقصةُ موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وقصةُ ذي القرنين.

وخصصْنا لكل قصة من تلك القصص فصلاً خاصاً.

وقد مهدْنا لتلك القصص بتمهيد عرَّفْنا فيه بسورة الكهف، بذكر الجو الذي نزلت فيه، والامتحانِ الذي عقده المشركون ـ بتوجيهٍ من اليهود ـ لرسول الله ﷺ.

كما ذكرْنا في التمهيد نظرةَ السيد أبي الحسن النَّدْوي لسورة الكهف، ووقوفَه على موضوعها الأساسي، الذي رآه في تركيزها على الصراع بين الإيمان والمادية.

وقد أوردْنا في ذلك التمهيد، معظمَ التعريف الذي أورده الأستاذ الإمام سيد قطب في «الظلال» للسورة، والذي لاحظ فيه موضوعَها العام، ومحورَها الذي يجمع كل موضوعاتها الجزئية، وآياتها ومقاطعها.

وموضوع السورة العام كما لاحَظَه سيد قطب، هو أنها تهدف إلى تصحيح العقيدة، وتصحيحِ منهج الفكر والنظر، وتصحيحِ القيم بميزان العقيدة.

هناك منهج للنظر في قصص السابقين وهذا المنهج مستَمَد من القرآن الكريم، وحديث رسول الله ﷺ، وفهم الصحابة والمحققين من العلماء له. وقد تحدثنا بالتفصيل عن هذا المنهج، في القسم الأول الذي أصدرناه، وكان خاصاً بقصص بني إسرائيل. ونُحيل عليه في ذلك الكتاب، ونعتبره بداية لهذا الكتاب أيضاً وتمهيداً له.

كانت النظرة في آيات سورة الكهف شاملة، وكانت الدروسُ والعبر

والعظات المستخرجةُ منها منوَّعة: إيمانية ودعوية وجهادية وتربوية ومنهجية وعلمية وأخلاقية واقتصادية واجتماعية وصناعية وجغرافية وتاريخية، وغير ذلك.

ومع ذلك لم نستقْصِ كل الدروس واللفتات والعبر والعظات، ولا يمكن لأحد أن يدَّعي ذلك، ولذلك هناك الكثيرُ منها مما لم نلتفت إليه.

ونورد هنا ما حرصْنا عليه أثناء نظرنا في هذه القصص، وما هدفْنا إلى تحقيقه:

١ ــ البقاءُ في جو النص القرآني، في عرْضه لتلك القصص، وعدمُ الخروج عنه إلا إلى الأحاديث الصحيحة، التي بينتْ ما فيه من إبهام، ووضحتْ ما فيه من غموض أو إشكال، والاكتفاءُ بما ورد فيهما.

٢ ــ عدمُ قبول أي خبر أو تفصيل أو بيان من الإسرائيليات، وغيرها من الأخبار والروايات الخرافية والأسطورية. ورفضُ أي قول أو بيان لأيِّ إنسان مهما كان، ما لم يعَتمد في قوله وبيانه على القرآن الصريح أو الحديث الصحيح، لاعتقادنا بوجوب الاكتفاء بالبيان القرآني والنبوي، ووجوبِ السكوت على ما سكتا عنه من الأحداث والتفصيلات.

٣ ــ الالتفاتُ إلى الأَبعاد الواقعية لتلك القصص، والإشارةُ إلى انطباق بعض لقطاتها ومشاهدها ونماذجها على الواقع المعاصر، وانطباقُ هذا البعد الواقعي العملي الحي، على ما يؤخَذ من تلك القصص من دروس ودلالات.

٤ ــ التركيزُ على الدروس الإيمانيِة والدعويةِ والجهادية والسُّنَنِيَّة، المستخرجَة من تلك القصص، باعتبارها أهمَّ ما يحتاجه الدعاة والمصلحون في هذا الزمان.

وهناك قصص أخرى في القرآن، سوف نخصص لها دراسةً مستقلة، هي القسم الثالث، وسوف يتلو هذا القسم إن شاء الله.

من تلك القصص: قصةُ هاروت وماروت، وقصةُ الـذي مر على قـرية، وقصةُ ابنَيْ آدم، وقصةُ الـذي انسلـخ من آيات الله، وقصـةُ النملة والهدهـد، وقصةُ لقمان، وقصةُ سبأ، وقصةُ أصحاب القرية.

أخي القارىء الكريم:

ها هي دروسٌ وعبرٌ مستخرَجة من قصص سورة الكهف أمامك، ولعلك تجـد حافـزاً وشوقـاً أكبر لقـراءة هذه القصص من سـورة الكهف، ولعـل هـذا يدفعك إلى دوام قراءة هذه السورة.

إن لسورة الكهف شخصيةً متميـزة، وإن لها مـوضوعـاً متميِّزاً، وإن لهـا فضْلاً وفضيلة.

من السُّنَّة أن يقرأ كل مسلم سورةَ الكهف يومَ الجمعة، كما أرشدَنـا إلى ذلك رسول الله ﷺ، في أحاديث كثيرة:

١ ــ روى مسلم في صحيحـه عن أبـي الـدَّرداء أن النبـي ﷺ قـال: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ مِنْ أَوَّلِ سورَةِ الكَهْف، عُصِمَ مِنَ الدَّجَّال»[١].

٢ ــ روى أبـو داود في سننـه عن أبـي الـدَّرداء رضي الله عنـه، عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ حَفِظَ عَشْـرَ آياتٍ مِنْ أَوَّلِ سـورَةِ الكَهْف، عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجَّال».

وفي رواية أخرى: «مَنْ حَفِظَ عَشْرَ آياتٍ مِنْ خواتيمِ سورَةِ الكَهْف».

وفي رواية ثالثة: «مِنْ آخِرِ الكَهْف»[٢].

---

(١) مسلم (٦): كتاب صلاة المسـافرين (٤٤): بـاب فضل سـورة الكهـف، حديث رقم: ٨٠٩.

(٢) أبو داود: (٣٦): كتاب الملاحم (١٤): باب خروج الدجال، حديث رقم: ٤٣٢٣.

٣ ـ روى التِّرمِذي في سننه عن أبي الدَّرداء رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «مَنْ قَرأَ ثَلاثَ آياتٍ مِنْ أَوَّلِ الكَهْفِ، عُصِمَ مِنْ فِتْنَةِ الدَّجّال»(١).

٤ ـ روى البخاري ومسلم والترمذي عن البراء بن عازب رضي الله عنه: «كانَ رَجُلٌ يَقْرأُ سورَةَ الكَهْف. وَعِنْدَهُ فَرَسٌ مَرْبوطٌ بِشَطْنَيْنِ فَتَغَشَّتْهُ سَحَابَة، فَجَعَلَتْ تَدورُ وَتَدْنو، وَجَعَلَ فَرَسُهُ يَدْنو مِنْها. فَلَمَّا أَصْبَحَ أَتى النَّبِيَّ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَه. فَقالَ رسولُ الله ﷺ: تِلْكَ السَّكينَةُ تَنَزَّلَتْ لِلْقُرْآن»(٢).

٥ ـ روى الحاكم في مستدْركه عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: «مَنْ قَرَأ سورَةَ الكَهْف، كَما أُنْزِلَتْ، ثُمَّ خَرَجَ إلى الدَّجّال، لَمْ يُسَلَّطْ عَلَيْه، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَيْهِ سَبيل»(٣).

٦ ـ وأخرج ابن مردويه والضِّياءُ المَقْدِسيّ في المُختارة عن علي رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «مَنْ قَرَأَ الكَهْفَ يَوْمَ الجُمُعَة، فَهُوَ مَعْصومٌ إلى ثمانِيَةِ أَيّام، مِنْ كُلِّ فِتْنَةٍ تَكون. وَإِنْ خَرَجَ الدَّجّالُ عُصِمَ مِنْه»(٤).

---

(١) الترمذي: (٤٢): كتاب ثواب القرآن (٦): باب ما جاء في سورة الكهف، حديث رقم: ٣٠٤٧.

(٢) البخاري: (٦٦): كتاب فضائل القرآن (١١): باب فضل سورة الكهف، حديث رقم: ٥٠١١
ومسلم: (٦): كتاب صلاة المسافرين (٣٦): باب نزول السكينة لقراءة القرآن، حديث رقم: ٧٩٥.
والترمذي: (٤٢): كتاب ثواب القرآن (٦): باب ما جاء في سورة الكهف، حديث رقم: ٣٠٤٦.

(٣) المستدرك للحاكم، كتاب الفتن والملاحم، باب من قرأ سورة الكهف لم يسلط عليه الدجال ٤: ٥١١، وقال عنه الذهبي في التلخيص: صحيح ٤: ٥١١ حاشية.

(٤) الدر المنثور للسيوطي ٥: ٣٥٥.

وتدل هذه الأحاديث الصحيحة بمجموعها على أن لسورة الكهف فضيلةً ومزِيَّةً خاصة، وأنّ مَنْ حفظها وداوم على قراءتها كل يوم جمعة، عصمه الله من الفتن المادية الطاغية، وخرج منها سليماً قوياً، ثابتاً على دينه وإيمانه.

وعصْرُنا هذا هو عصر الفتن المادية الجارفة، الذي انتفشت فيه المادية الجاهلية وتبرَّجت، ونَشرت على المسلمين دجلَها وزيفَها وفتنَها وإغراءاتِها، وشهواتِها ومجونَها وانحرافها. وغزتْ المسلمين غزواً شاملاً طاغياً. وسقط مسلمون أسرى هذا الغزو، ووقعوا فريسة لها، واستسلموا لشهواتها ومجونها، وصدَّقوا دجلَها وزيفَها وتضليلَها.

وعصم الله مسلمين صادقين أمام هذا الغزوِ والصراع، عصمهم الله بالقرآن، عندما أقبلوا عليه يحفظونه، ويتلونه حقَّ تلاوته، ويفهمونه حق فهمه، ويجاهدون الماديةَ الجاهلية به، ويتحدَّوْنَها من خلال حقائقه ومفاهيمه ومقرراته.

ولسورة الكهف ـ سورة الصراع بين الإيمان والمادية ـ مهمةٌ بالغة في المواجَهة والمجاهدة والثبات.

يقول السيد أبو الحسن النَّدْوي عن سر اختصاص هذه السورة بالعصمة من فتنة الدجال، وما شابهها من فتن الدَّجاجلة الكذابين: «إن هذه السورة هي السورةُ القرآنيةُ الفريدة، التي تحتوي على أكبر مادة وأغزرِها، فيما يتصل بفتن العهد الأخير التي يتزعمها الدجال، ويتولّى كِبْرَها، ويحمل رايتهَا. وتحتوي على أكبر مقدار من التِّرياق الذي يدفع سموم الدَّجال، ويُبرىء منها. وإنَّ مَنْ يتشربُ معانيَ هذه السورة، ويمتلىءُ بها ـ وهو نتيجة الحفظِ، والإكثارِ من القراءة في عامة الأحوال ـ يعتصمُ من هذه الفتنةِ المُقيمةِ المُقْعِدة للعالَم، ويفلتُ من الوقوع في شِباكها.

وإن في هذه السورة من التوجيهات والإرشادات، والأمثال والحكايات،

ما يُبين الدجال، ويُشخِّصه في كـل زمان ومكـان، وما يـوضـح الأساس الـذي تقوم عليه فتنتُه ودعوتُه، وتهيءُ العقول والنفوس لمحاربة هذه الفتنة ومقاومتها، والتمردِ عليها. وإن فيها روحاً تُعارض التدجيـل وزعماءَه، ومنهـجَ تفكيـرهم، وخطةَ حياتهم، في وضوح وقوة»[1].

إنه لا عصمةَ لنا إلا بالقرآن، ولا نجاةَ لنـا إلا بالقـرآن، ولا ثباتَ لنـا إلا بالقرآن، ولا رفعةَ ولا عزةَ ولا سعادةَ لنا إلا بالقرآن، ولا نصرَ ولا نجاحَ ولا فوزَ لنا إلا بالقرآن، ولا ننال الجنةَ ـ بفضل الله ـ إلا بالتزام هذا القرآن.

اللهم اجعَـلْ القـرآنَ الكـريم ربيـعَ قلوبنـا، ونـورَ صـدورنـا، وذهـابَ همومنا، وجلاءَ أَحْزانِنا، وَارْزُقْنا تِلاوَتَهُ آناءَ اللَّيْلِ وَأَطْـرَافَ النَّهار، وَعَلِّمْنـا مِنْهُ ما جهلْنا، وذكِّرْنا منه ما نسينا، واجعله حجةً وشافعاً لنا يومَ القيامة.

«اللَّهُمَّ إنِّي عَبْدُك، وَابْنُ عَبْدِك، وَابْنُ أَمَتِك، ناصِيَتي بِيَـدِك، ماضٍ فِيَّ حُكْمُك، عَدْلٌ فِيَّ قضاؤك. أَسْأَلُـكَ بِكُلِّ اسْمٍ هُـوَ لَكَ، سَمَّيْتَ بِـهِ نَفْسَك، أَوْ أَنْزَلْتَهُ في كِتابِك، أَوْ عَلَّمْتَـهُ أَحداً مِنْ خَلْقِـكَ، أَو اسْتَأْثَـرْتَ بِهِ في عِلْمِ الغَيْبِ عِنْدَك. أَنْ تَجْعَلَ القُـرْآنَ الكَرِيمَ رَبيـعَ قَلْبـي، وَنـورَ صَدْري، وَجَـلاءَ حُزْني، وَذَهابَ هَمِّي وغَمِّي».

فـائـدة: روى أحمـد عن رسـول الله ﷺ قـال: «مـا أصـابَ عَبْـداً هَمٌّ وَلَا حَـزَن، فَدَعـا بِـهذا الـدُّعاء، إلاّ أَذْهَبَ اللَّهُ هَمَّـهُ وَحُزْنَـه، وَأَبْدَلَـهُ مكـانَـهُ فَرَحاً».

وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.

صويلح: الأحد ١١/٦/١٤٠٨ — صلاح عبد الفتاح الخالدي
١٩٨٨/١/٣١

(١) تأملات في سورة الكهف: ٩ ـ ١٠.

تَمْهِيد

«التعريفُ بسورة الكهف»

الجوّ الذي نزلت فيه السورة:

سورةُ الكهف مكية، بإجماع علماء التفسير، الذين نظروا في أسباب نزول القرآن.

ونزلتْ السورة في وقت اشتداد المعركة الفكرية بين الرسول ﷺ وبين قريش والمشركين، نزلتْ في وقت تطوُّرِ ذلك الصراع بين الإيمانَ والمادية.

هذا عن جو النزول بصورة عامة.

ولكن لجو نزولها مناسبةً خاصة، ذكرها علماء التفسير بالمأثور والسيرة: فقد أخرج ابنُ إسحاق وابنُ جرير وابنُ المنذر وأبو نعيم والبيهقي عن ابن عباس رضي الله عنهما قال:

بعثتْ قريش النَّضْرَ بن الحارث وعُقْبَةَ بن أبي مُعَيْط إلى أحبار يهود بالمدينة، فقالوا لهم: سلوهم عن محمد، وَصِفوا لهم صفته، وأخبِروهم بقوله، فإنهم أهلُ الكتاب الأوَّل، وعندهم علمُ ما ليس عندنا من علم الأنبياء.

فَخرجا، حتى أتَيا المدينة، فسألا أحبارَ يهود عن رسول الله ﷺ،ووَصَفا لهم أمره، وبعضَ قوله.

وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا.

فقالوا لهما: سلوه عن ثلاث، فإنْ أخبركم بهن، فهو نبي مرسَل، وإن لم يفعل، فالرجل مُتقوِّل. فَرَوْا فيه رأيكم.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان من أمرهم، فإنه قد كان لهم حديثٌ عجيب.

وسلوه عن رجل طوّاف، بلغ مشارقَ الأرض ومغاربَها، ما كان نبؤُه.

وسلوه عن الروح، ما هو.

فأقبلَ النضْر وعُقْبة حتى قدِما على قريش. فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفَصْل ما بينَكم وبين محمد. قد أمَرَنا أحبارُ يهود أن نسأله عن أمور ــ فَأَخْبَراهُم بها.

فقال لهم رسول الله ﷺ: أُخبِرُكُم غداً بما سألتُم عنه. ولم يَسْتَثْنِ ــ يعني لم يقل إن شاء الله ــ فانصرفوا عنه.

ومكث رسول الله ﷺ خمسَ عشْرَةَ ليلة، لا يُحْدِث الله إليه في ذلك وحْياً، ولا يأتيه جبريل.

حتى أَرْجَفَ أهل مكة، وأحزَنَ رسولَ الله ﷺ مكثُ الوحي عنه، وشقَّ عليه ما يتكلَّمُ به أهل مكة.

ثم جاءه جبريل من الله عز وجل بسورة الكهف، فيها معاتبتُه إياه على حزنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه، من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، وقول الله: ﴿ويسألونك عن الروح﴾[1].

لقد اتفق المشركون مع اليهود على امتحان رسول الله ﷺ، وقدَّموا له في ذلك الامتحان ثلاثة أسئلة ليجيب عليها.

---

(١) الدُّر المنثور للسيوطي ٥: ٣٥٧.

فـأجـابت سـورةُ الكهف على سؤالين منهـا، أجـابت عـن أصحـاب الكهف، وعـن ذي القرنين.

أمـا السؤال الثالث عن الـروح، فقد بينتْ سـورةُ الإسراء، أنهـا من أمر الله، وأنـه لا يعلم أحـد حقيقتَهـا ولا كُنْهَهـا، ولـذلـك لا جـواب عليهـا: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوح * قُلْ: الرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّـي * وَما أُوتيتُمْ مِنْ العِلْمِ إلاَّ قَليلاً﴾[1].

إذن سورةُ الكهف سورةُ الامتحـان، الذي قـدَّمه رسـول الله ﷺ، والذي نصر الله فيه رسـوله، وأنـزل جبريـلَ عليه السـلام ليُسْعِفَه بـالجواب، ويقـدمَه لهم، ويتلوه عليهم، وبذلك نجح الرسول عليه الصلاة والسلام، بفضل رعاية الله ونصره وتأييده له.

ولِما يبدو عليها من جوِّ الامتحان، صرّحت الآيات بأن الجواب من الله، وأن الله هو الذي يتلوه على رسول الله ﷺ، ليتلوه بدوره على الناس.

عن أصحاب الكهف، قال الله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بِالحَق﴾.

وعن ذي القرنين، قال الله: ﴿وَيَسْأَلونَكَ عَنْ ذي القَرْنَيْن * قُـلْ: سَأَتْلو عَلَيْكُمْ مِنْهُ ذِكْراً﴾.

وعن الروح، قال الله: ﴿وَيَسْـأَلونَـكَ عَنِ الرّوح * قُـلْ: الرُّوحُ مِنْ أَمْـرِ رَبِّـي﴾.

هي سورة الصراع بين الإيمان والمادية:

نـظر السيد أبـو الحسن النَّـدْوي في سـورة الكهف، وَوَقَفَ على الخيط الدقيق الذي يربط آياتها كلِّها، والأمرِ العام الذي يجمـع قصصها ومقاطعها.

---

(١) سورة الإسراء: آية ٨٥.

ونترك الحديث له، ليقدم لنا ذلك الخيط الدقيق:

«وجدتُ السورة كلَّها خاضعةً لموضوع واحد، أستطيع أن أسميَّه «بين الإيمان والمادية» أو «بين القوة المصرِّفة لهذا الكون (هو الله) وبين الطبيعة أو الأسباب».

ووجدتُ جميعَ الإشارات أو الحكايات، أو المواعظ والأمثال، دائرةً حول هذا المعنى، تشير إليه من طريق جليّ، أو تنظر إليه، من طرْف خفيّ»[1].

ويقول: «إن سورة الكهف قصة الصراع بين النظرتيْن والعقيدتيْن والنفسيتيْن. صراعٌ بين الإيمان بالمادة وما يتْبعها، وبين الإيمان بالغيب، والإيمان بالله، وشرحٌ لما يتْبع كلَّ نظرة من العقيدة، والعمل والأخلاق، والنتائج والآثار...»[2].

وقد أدار السيد النَّدْوي كتابه «تأملات في سورة الكهف» على هذه الحقيقة، حيث عَرَض قصص السورة الأربع: أصحابُ الكهف، وصاحبُ الجنتين، وموسى مع العبد الصالح، وذو القرنين، بهذا المنظار، وأرانا الخيطَ الدقيق الذي يجمع بينها، والموضوعَ العام الذي يوحِّد بينها، وبيَّن لنا تمثُّلَ الصراع بين الإيمان والمادية فيها، وبيَّن لنا الصراع بين النظرة المادية المؤمنةِ بالأسباب المادية الطبيعية، والنظرة الإيمانية المؤمنةِ بالحقائق الربانية الغيبية، وانتصارَ هذه النظرة في كل مواقف ولقطات السورة.

---

(١) تأملات في سورة الكهف ـ الصراع بين الإيمان والمادية ـ للندوي: ١٠.

(٢) المرجع السابق: ٢٣.

روح السورة ومفتاحها:

وبعد ما وقف السيد النَّدْوي على الخيط الدقيق للسورة، والموضوع العام لها، بحثَ في آيات السورة، لعلَّه يجد آية تجمعها كلها، كأنها روح عامة تسري في كل آية فيها. ووجدَها.

إنها في قصة صاحب الجنتين، وفي الحوار بينه وبين صاحبه المؤمن، إنها في قول صاحبه المؤمن له: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ * قُلْتَ: مَا شَاءَ اللَّهُ * لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾[1].

روح السورة ومفتاحها هو قول الله: ﴿ما شاءَ اللَّهُ لا قُوَّةَ إِلَّا باللهِ﴾.

إن هذا المفتاح يعني أنّ مشيئةَ الله هي النافذة، وأنّ ما شاءه الله فلا بد كائِن، وأنَّ ما لم يشَأْهُ الله فلا يمكن أن يكون. ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

وأنْ لا قوة إلا قوة الله سبحانه، وأنّ كلَّ قوة ابتعدت عن الله، أو حاربتْه وحادّتْه، فهي زائلة بائدة. وأنّ كلّ قوة لم تُستَمد من الله، فهي ضعف وفساد. وأنّ القوةَ النافعة الخيِّرة هي المستَمَدة من قوة الله، المرتبطة به، المتوجِّهة إليه.

«ما شاء الله لا قوة إلا بالله» نجد هذه الروحَ ساريةً في كل آيات السورة ومقاطعها، نجد معناها ملحوظاً في كل آية فيها. نجد هذا في آيات قصة أصحاب الكهف، وفي قصة صاحب الجنتين، وفي قصة موسى عليه السلام مع العبد الصالح، وفي قصة ذي القرنين.

---

(١) سورة الكهف: آية ٣٩.

(٢) الصراع بين الإيمان والمادية: ٧٤.

مع الأستاذ سيد قطب في تعريفه بالسورة:

للأستاذ الإمام سيد قطب وقفةٌ لطيفة في بداية تفسيره لسورة الكهف، عرَّف فيها بالسورة، وذكرَ موضوعَها الأساسي الذي يجمع موضوعاتِها الفرعية، ويبدو في كل آياتها ومقاطعها.

ونورد فيما يلي تلخيصاً لذلك التعريف، باعتباره من التمهيد لكلامنا على قصص السورة.

قال: «القَصص هو العنصر الغالب على هذه السورة. ففي أولها تجيء قصةُ أصحاب الكهف، وبعدها قصةُ صاحب الجنتين، ثم إشارةٌ إلى قصة آدم وإبليس، وفي وسطها تجيء قصةُ موسى مع العبد الصالح، وفي نهايتها قصةُ ذي القرنين.

ويستغرق هذا القَصص معظمَ آيات السورة، فهو وارد في إحدى وسبعين آية من عشر ومائةَ آية. ومعظمُ ما يتبقى من آيات السورة، هو تعليق أو تعقيب على القصص فيها.

وإلى جوار القصص بعضُ مشاهد القيامة، وبعض مشاهد الحياة التي تصوِّر فكرةً أو معنى، على طريقة القرآن في التعبير بالتصوير.

أما المحور الموضوعي للسورة الذي ترتبط به موضوعاتُها، ويدور حوله سياقُها، فهو:

١ ــ تصحيحُ العقيدة.

٢ ــ وتصحيح منهج النظر والفكر.

٣ ــ وتصحيح القيم بهذه العقيدة»[1].

---

(١) الظلال ٤: ٢٢٥٦ ــ ٢٢٥٧.

١ ــ تصحيح العقيدة :

فأما تصحيح العقيدة، فيقرره بدؤها وختامها.

في البدء قوله تعالى: ﴿الحَمْدُ لِلَّهِ الذي أَنْزَلَ عَلى عَبْدِهِ الكِتاب * وَلَمْ يَجْعَلْ لَهُ عِوَجاً قَيِّماً * لِيُنْذِرَ بَأْساً شَديداً مِنْ لَدُنْه * وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنينَ الذّينَ يَعْمَلونَ الصَّالِحاتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْراً حَسَناً * ماكِثينَ فيهِ أَبَداً * وَيُنْذِرَ الذّينَ قالوا اتخَذَ اللَّهُ وَلَدا * ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْم * وَلا لِآبائِهِم * كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْواهِهِم * إنْ يَقولونَ إلاّ كَذِباً﴾[1].

وفي الختام قوله تعالى: ﴿قُلْ: إِنَّما أَنا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ * يُوحىٰ إِلَيّ * أَنَّما إِلٰهُكُمْ إِلٰهٌ واحِد * فَمَنْ كانَ يَرْجو لِقاءَ رَبِّه * فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صالِحاً، وَلا يُشْرِكْ بِعِبادَهِ رَبِّهِ أَحداً﴾[2].

ويلمس سياق السورة هذا الموضوعَ مراتٍ كثيرة، في صورٍ شتّى:

في قصة أصحاب الكهف يقول الفتية الذين آمنوا بربهم: ﴿رَبُّنا رَبُّ السَّمٰواتِ وَالأَرْض * لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دونِهِ إِلٰهاً * لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً﴾[3].

وفي التعقيب عليها قوله تعالى: ﴿ما لَهُمْ مِنْ دونِهِ مِنْ وَلِيّ * وَلا يُشْرِكُ في حُكْمِه أَحَداً﴾[4].

وفي قصة صاحب الجنتين، يقول الرجل المؤمن لصاحبه وهو يحاوره: ﴿أَكَفَرْتَ بالذّي خَلَقَكَ مِنْ تُراب * ثُمَّ مِنْ نُطْفَة * ثُمَّ سَوَّاكَ رَجُلاً * لَكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبّي * وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحداً﴾[5].

---

(١) سورة الكهف: آيات ١ ــ ٥.

(٢) سورة الكهف: آية ١١٠.

(٣) سورة الكهف: آية ١٠.

(٤) سورة الكهف: آية ٢٦.

(٥) سورة الكهف: آيات ٣٧ ــ ٣٨.

وفي التعقيب عليها، قوله تعالى: ﴿وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرونَهُ مِنْ دونِ الله * وَما كانَ مُنْتَصِراً * هُنالِكَ الوَلايَةُ لِلَّهِ الحَقّ * هُوَ خَيْرٌ ثَوابا * وَخَيْرٌ عُقْباً﴾(١).

وفي مشهد من مشاهد القيامة، يقول الله: ﴿وَيَوْمَ يَقول: نادُوا شُرَكائِيَ الَّذينَ زَعَمْتُمْ * فَدَعَوْهُم * فَلَمْ يَسْتَجيبوا لَهُم * وَجَعَلْنا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً﴾(٢).

وفي التعقيب على مشهد آخر، قوله تعالى: ﴿أَفَحَسِبَ الَّذينَ كَفَروا * أَنْ يَتَّخِذوا عِبادي مِنْ دوني أَوْلِياء؟ إِنّا أَعْتَدْنا جَهَنَّمَ لِلْكافِرينَ نُزُلا﴾(٣).

٢ ـ تصحيح منهج الفكر والنّظر:

أمّا تصحيح منهج الفكر والنظر، فيتجلى في استنكار دعاوي المشركين، الذين يقولون ما ليس لهم به علم، والذين لا يأتون على ما يقولون ببرهان. وفي توجيه الإنسان إلى أن يحكم بما يعلم ولا يتعداه، وما لا علم له به فليدَعْ أمرَه إلى الله.

ففي مطلع السورة: ﴿وَيُنْذِرَ الَّذينَ قالوا: اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً * ما لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلا لِآبائِهِم﴾(٤).

والفتيةُ أصحاب الكهف يقولون: ﴿هٰؤُلاءِ قَوْمُنا اتَّخَذوا مِنْ دونِهِ آلِهَة * لَوْلا يَأْتُونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّن﴾(٥).

---

(١) سورة الكهف: آيات ٤٣ ـ ٤٤.
(٢) سورة الكهف: آية ٥٢.
(٣) سورة الكهف: آية ١٠٢.
(٤) سورة الكهف: آيات ٤ ـ ٥.
(٥) سورة الكهف: آية ١٥.

وعندما يتساءلون عن فترة لبثهم في الكهف، يَكِلونَ علمَها لله: ﴿قالوا: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتم﴾[1].

وفي ثنايا القصة إنكارٌ على مَنْ يتحدثون عن عددهم رجماً بالغيب: ﴿سَيَقولونَ: ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُم * وَيقولونَ: خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ ــ رَجْماً بِالغَيْبِ ــ وَيَقولون: سَبْعَةٌ وَثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ * قُلْ: رَبّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم * ما يَعْلَمُهُمْ إلاّ قَليل * فَلا تُمارِ فيهِمْ إلاّ مِراءً ظاهِراً * وَلا تَسْتَفْتِ فيهِمْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾[2].

وفي قصة موسى مع العبد الصالح، عندما يكشف له عن سرِّ تصرفاته التي أنكرها عليه موسى يقول: ﴿رَحْمَةً مِنْ رَبِّك * وَما فَعَلْتُهُ عَنْ أَمري﴾[3]. فيكل الأمر فيها لله.

٣ ــ تصحيح القيم بميزان العقيدة:

فأمّا تصحيح القيم بميزان العقيدة، فيَرِدُ في مواضعَ متفرقة، حيث يَرُدُّ القيمَ الحقيقية إلى الإيمان والعمل الصالح، ويُصغِّر ما عداها من القيم الأرضية الدنيوية التي تَبْهر الأنظار.

فكل ما على الأرض من زينة، إنما جُعل للابتلاء والاختبار، ونهايتُه إلى فناءٍ وزوال: ﴿إنّا جَعَلْنا ما عَلى الأَرْضِ زينَةً لَها * لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً * وَإنّا لَجاعِلونَ ما عَلَيْها صَعيداً جُرُزاً﴾[4].

وحِمى الله أرحب، ولو أَوى الإنسان إلى كهفٍ خشن ضيق. والفتية

---

(١) سورة الكهف: آية ١٩.

(٢) سورة الكهف: آية ٢٢.

(٣) سورة الكهف: آية ٨٢.

(٤) سورة الكهف: آيات ٧ ــ ٨.

المؤمنون أصحاب الكهف، يقولون بعد اعتزالهم لقومهم: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ ـ إِلاَّ الله ـ فَأْوُوا إِلى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِه * وَيُهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾(١).

والخطاب يوجَّه إلى الرسول ﷺ، ليَصْبر نفسه مع أهل الإيمان، غيرَ مُبالٍ بزينة الحياة الدنيا وأهلِها الغافلين عن الله: ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعونَ رَبَّهُمْ بِالغَدَاةِ وَالعَشِيِّ يُريدونَ وَجْهَه * وَلا تَعْدُ عَيْناكَ عَنْهُمْ * تُريدُ زِينَةَ الحَياةِ الدُّنْيا * وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنا * وَاتَّبَعَ هَواه * وكَانَ أَمْرُهُ فُرُطا * وَقُلْ: الحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ * فَمَنْ شاءَ فَلْيُؤْمِن * وَمَنْ شاءَ فَلْيَكْفُر﴾(٢).

وقصةُ الجنتين، تصوِّر كيف يعتز المؤمن بإيمانه في وجه المال والجاه والزينة، وكيف يَجْبَهُ صاحبَها المنتفشَ المنتفخ، بالحق، ويؤنِّبه على نسيان الله: ﴿قالَ لَهُ صاحِبُه * وَهُوَ يُحاوِرُه: أَكَفَرْتَ بِالَّذي خَلَقَكَ مِنْ تُراب * ثُمَّ مِنْ نُطْفَة * ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً؟ لٰكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبّي وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَوْلاَ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ: ما شَاءَ الله * لا قُوَّةَ إلاّ بالله * إِنْ تَرَنِ أَنا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَدا * فَعَسى رَبّي أَنْ يُؤْتِينَ خَيْراً مِنْ جَنَّتِك * وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماء * فَتُصْبِحَ صَعيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحُ ماؤُها غَوْراً * فَلَنْ تَسْتَطيعُ لَهُ طَلَباً﴾(٣).

وعقِب القصة يضْرب مثلاً للحياة الدنيا، وسرعةِ زوالها بعد ازدهارها: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحَياةِ الدُّنْيا * كَماءٍ أَنْزَلْناهُ مِنَ السَّماء * فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبات

---

(١) سورة الكهف: آية ١٦.
(٢) سورة الكهف: آيات ٢٨ ـ ٢٩.
(٣) سورة الكهف: آيات ٣٧ ـ ٤١.

الأَرْض * فَأَصْبَحَ هَشيماً تَذْروهُ الرِّياح، وَكانَ اللَّهُ على كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾[1].

ويعقبُ عليه ببيان للقيم الزائلة والقيم الباقية: ﴿المالُ وَالبَنونَ زينَةُ الحَياةِ الدُّنْيا .وَالباقِياتُ الصّالِحاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَواباً وَخَيْرٌ أَمَلاً﴾[2].

وذو القرنين لا يُذكر لأنه مَلِك، ولكن يُذكر لأعماله الصالحة، وحين يَعرض عليه القوم الذين وجدهم بين السَّدّين، أن يبني لهم سداً يحميهم من يأجوج ومأجوج، في مقابل أن يعطوه مالاً، فإنه يرُد عليهم ما عرضوه من المال، لأن تمكين الله له خير من أموالهم: ﴿قال: ما مَكَّنيّ فيهِ رَبّي خَيْر﴾[3].

وحين يتم السد يرُد الأمر لله، لا لقوّته البشرية: ﴿قال: هذا رَحْمَةٌ مِنْ رَبّي * فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبّي جَعَلَهُ دَكّاء * وَكانَ وَعْدُ رَبّي حَقّاً﴾[4].

وفي نهاية السورة يقرّر أن أخسر الخلق أعمالاً، هم الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه، وهؤلاء لا وزن لهم، ولا قيمة، وإنْ حَسِبوا أنهم يحسنون صنعاً: ﴿قُلْ: هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرينَ أَعْمالاً * الذّينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ في الحَياةِ الدُّنْيا * وَهُمْ يَحْسَبونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنونَ صُنْعاً * أُولئِكَ الذّينَ كَفَروا بِآياتِ رَبِّهِمْ وَلِقائِه * فَحَبِطَتْ أَعْمالُهُمْ، فَلا نُقيمَ لَهُمْ يَوْمَ القِيامَةِ وَزْناً﴾[5].

وهكذا نجد محور السورة هو:

تصحيحُ العقيدة.

---

(1) سورة الكهف: آية ٤٥.

(2) سورة الكهف: آية ٤٦.

(3) سورة الكهف: آية ٩٥.

(4) سورة الكهف: آية ٩٨.

(5) سورة الكهف: آيات ١٠٣ ــ ١٠٥.

وتصحيحُ منهج الفكر والنظر.

وتصحيحُ القيم بميزان العقيدة»[1].

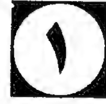
هذه سورة الكهف، وهذا موضوعُها، وهذه شخصيتُها، وهذا خيطها الدقيق، وهذا هو مفتاحها، وهذه هي روحها.

وسوف نلحظ توفُّرَ هذا في قصصها الأربعة: أصحاب الكهف، وصاحبُ الجنتين، وموسى مع الخضر عليهما السلام، وذو القرنين.

فإلى تلك القصص نقف أمامها وقفات، ونعيش في ظلالها لحظات، ونأخذ بعض ما تقدمه لنا من عبرٍ وعظات.

* * *

(١) الظلال ٤: ٢٢٥٧ ـ ٢٢٥٩.



قِصَّةُ أَصْحَابِ الكَهْفِ

قِصَّةُ أَصْحَابِ الكَهْفِ

القصة في العرض القرآني:

قال الله تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَٰبَ ٱلْكَهْفِ وَٱلرَّقِيمِ كَانُوا۟ مِنْ ءَايَٰتِنَا عَجَبًا ﴿٩﴾

إِذْ أَوَى ٱلْفِتْيَةُ إِلَى ٱلْكَهْفِ فَقَالُوا۟ رَبَّنَآ ءَاتِنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً وَهَيِّئْ لَنَا مِنْ أَمْرِنَا رَشَدًا ﴿١٠﴾

فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِى ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا ﴿١١﴾ ثُمَّ بَعَثْنَٰهُمْ لِنَعْلَمَ أَىُّ ٱلْحِزْبَيْنِ أَحْصَىٰ لِمَا لَبِثُوٓا۟ أَمَدًا ﴿١٢﴾

نَّحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُم بِٱلْحَقِّ ۚ إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ ءَامَنُوا۟ بِرَبِّهِمْ وَزِدْنَٰهُمْ هُدًى ﴿١٣﴾ وَرَبَطْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ

إِذْ قَامُوا۟ فَقَالُوا۟ رَبُّنَا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ لَن نَّدْعُوَا۟ مِن دُونِهِۦٓ إِلَٰهًا ۖ لَّقَدْ قُلْنَآ إِذًا شَطَطًا ﴿١٤﴾ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمُنَا ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ ءَالِهَةً ۖ لَّوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَٰنٍۭ بَيِّنٍ ۖ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا ﴿١٥﴾ وَإِذِ ٱعْتَزَلْتُمُوهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ فَأْوُۥٓا۟ إِلَى ٱلْكَهْفِ يَنشُرْ لَكُمْ رَبُّكُم مِّن رَّحْمَتِهِۦ وَيُهَيِّئْ لَكُم مِّنْ أَمْرِكُم مِّرْفَقًا ﴿١٦﴾ ﴾

وَتَرَى ٱلشَّمْسَ إِذَا طَلَعَت تَّزَٰوَرُ عَن كَهْفِهِمْ ذَاتَ ٱلْيَمِينِ وَإِذَا غَرَبَت تَّقْرِضُهُمْ
ذَاتَ ٱلشِّمَالِ وَهُمْ فِى فَجْوَةٍ مِّنْهُ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَـٰتِ ٱللَّهِ ۗ مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِ ۖ وَمَن
يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ وَلِيًّا مُّرْشِدًا ﴿١٧﴾ وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقَاظًا وَهُمْ رُقُودٌ ۚ وَنُقَلِّبُهُمْ ذَاتَ
ٱلْيَمِينِ وَذَاتَ ٱلشِّمَالِ ۖ وَكَلْبُهُم بَـٰسِطٌ ذِرَاعَيْهِ بِٱلْوَصِيدِ ۚ لَوِ ٱطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ
مِنْهُمْ فِرَارًا وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْبًا ﴿١٨﴾

وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَـٰهُمْ لِيَتَسَآءَلُوا۟ بَيْنَهُمْ ۚ قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ ۖ

قَالُوا۟ لَبِثْنَا يَوْمًا أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ ۚ

قَالُوا۟ رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ فَٱبْعَثُوٓا۟ أَحَدَكُم بِوَرِقِكُمْ هَـٰذِهِۦٓ إِلَى
ٱلْمَدِينَةِ فَلْيَنظُرْ أَيُّهَآ أَزْكَىٰ طَعَامًا فَلْيَأْتِكُم بِرِزْقٍ مِّنْهُ وَلْيَتَلَطَّفْ وَلَا يُشْعِرَنَّ
بِكُمْ أَحَدًا ﴿١٩﴾ إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا۟ عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِى
مِلَّتِهِمْ وَلَن تُفْلِحُوٓا۟ إِذًا أَبَدًا ﴿٢٠﴾

وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ لِيَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَأَنَّ ٱلسَّاعَةَ لَا رَيْبَ
فِيهَآ إِذْ يَتَنَـٰزَعُونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُمْ ۖ

فَقَالُوا۟ ٱبْنُوا۟ عَلَيْهِم بُنْيَـٰنًا ۖ رَّبُّهُمْ أَعْلَمُ بِهِمْ ۚ

قَالَ ٱلَّذِينَ غَلَبُوا۟ عَلَىٰٓ أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِم مَّسْجِدًا ﴿٢١﴾

سَيَقُولُونَ ثَلَـٰثَةٌ رَّابِعُهُمْ كَلْبُهُمْ وَيَقُولُونَ خَمْسَةٌ سَادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْمًۢا
بِٱلْغَيْبِ ۖ وَيَقُولُونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ ۚ

قُل رَّبِّىٓ أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم مَّا يَعْلَمُهُمْ إِلَّا قَلِيلٌ ۗ

فَلَا تُمَارِ فِيهِمْ إِلَّا مِرَآءً ظَـٰهِرًا وَلَا تَسْتَفْتِ فِيهِم مِّنْهُمْ أَحَدًا ﴿٢٢﴾ وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ وَٱذْكُر رَّبَّكَ إِذَا نَسِيتَ وَقُلْ عَسَىٰٓ أَن يَهْدِيَنِ رَبِّى لِأَقْرَبَ مِنْ هَـٰذَا رَشَدًا ﴿٢٤﴾

وَلَبِثُوا فِى كَهْفِهِمْ ثَلَـٰثَ مِا۟ئَةٍ سِنِينَ وَٱزْدَادُوا تِسْعًا ﴿٢٥﴾ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ ﴾[1].

موجز القصة من خلال القرآن:

سننظر في قصة أصحاب الكهف من خلال العرض القرآني لها، ولن نخرجَ عنه إلى الروايات والأقاويل والأخبار الإسرائيلية التي أوردها مؤرخون ومفسرون، لأنّ هذا هو المنهج الصحيح في التعامل مع قصص السابقين، كما قدمه لنا القرآن، وكما ارتضيْناه لأنفسنا.

كان أصحاب الكهف مجموعةً من الفتية المؤمنين بالله، وكانت تلك المجموعة مكونةً من سبعة أفراد ــ كما أشار القرآن ــ.

لا نعرف شيئاً عن أسمائهم أو أعمالهم، أو المدينة التي كانوا فيها، أو الملكِ الذي كانوا في عهده، أو الدينِ الذي كانوا عليه، أو الكهفِ الذي أَوَوْا إليه.

وقف هؤلاء الفتية المؤمنون وقفةً للبحث والنظر، خرجوا منها بنتيجة قاطعة، هي أن الله وحده هو رب العالمين، وأنهم لن يؤمنوا إلا به، ولن يعبدوا إلا إياه.

---

(١) سورة الكهف: آيات ٩ ــ ٢٦.

لقد عرفوا أن قومهم كافرون، لأنهم عبدوا غيرَ الله. وكفرهُمْ هذا أوجد عندهم الظلم والكذب والافتراء. فَمَنْ أظلم ممن افترى على الله كذباً؟.

فكَّر أولئك الفتية المؤمنون في الخطوة التالية، فوجدوها في العزلة، فقرروا اعتزال قومهم، إنهم مؤمنون، وقومهم كافرون، ولا مجال لأن يعيشوا معهم.

خرجوا من المدينة إلى الجبال، وقرروا أن يأووا إلى كهف في جبل!

وطلبوا من الله أن ينشر عليهم في الكهف من رحمته.

واستجاب الله لهم، فكانت رحمةُ الله عليهم في الكهف، حيث يسّر الله لهم الأمر، وسخّر لهم الآيات. فأمر الشمس أن لا تمس أجسادهم، حتى لا تؤذيها، كانت عند الصباح تَميلُ عن أجسادهم، فلا تقع عليها، وكانت عند الغروب تميل عنها كذلك، فلا تأتيها، وكانوا في فجوة وسط الكهف.

ومن آيات اللَّهِ عليهم في الكهف، أن عيونَهم كانت مفتوحة، فكان الناظر إليهم يحسَبُهم أيقاظاً ينظرون إليه، مع أنهم نيام راقدون.

وحتى لا تأكل الأرضُ أجسادهم، كان الله يقلِّبهم مرة على اليمين، ومرة على الشمال.

وكان معهم كلبهم الذي صحبهم، حيث جلس على عتبة باب الكهف، وبسط ذراعيه، ونام مثل نومتهم.

وحتى لا يعتدي أحد عليهم وهم رقود، قذف الله في قلب كل من ينظر إليهم الرعب، بحيث لو اطلّع عليهم، لولّى منهم فِراراً، ولمُلِىءَ منهم رعباً.

وناموا نومتهم الطويلة، حيث بقوا على هذه الصورة ثلاثمائة وتسع سنوات!.

وبعد هذه المدة بعثهم الله من نومهم، فصاروا يتساءلون عن مدة نومهم واختلفوا في تقديرها. فقال بعضهم: نمتم يوماً أو بعض يوم!.

لكنهم لم يخوضوا في تقدير المدة، لعدم علمهم بها، ففوَّضوا العلم بها إلى الله، وقالوا: ربكم أعلم بما لبثتم.

واهتموا بالمُهمّ. فكلفوا أحدهم بالذهاب إلى المدينة، وناولوه ما معهم من نقود، وكلفوه أن يشتري لهم طعاماً ليأكلوه. وطلبوا منه أن يختار الطعام الطيب الحلال المباح. كما طلبوا منه أن يكون حَذِراً يقظاً منتبهاً، بحيث لا يفطن أحد إليه، ولا يَشعر أحدٌ به، لأنهم كانوا يخشون قومهم، فإذا علموا بهم وعرفوا مكانهم، فسوف يقتلونهم، أو يفتنونهم، بأن يردوهم عن دينهم، ويعيدوهم إلى الشرك.

وذهب الرجل إلى المدينة ليشتري الطعام. وحرص على الحذر والانتباه والتخفيّ. لكن الله أراد أمراً آخر. أراد أن يجعل منهم آية عليه، ودليلاً على قدرته سبحانه على البعث. فكَشَف أمرهم، وأعثر عليهم قومَهم. وكان القوم مؤمنين بالله، إذ زال ذلك الجيل الكافر، الذي هرَب الفتيةُ منه إلى الكهف، ونشأ جيلٌ مؤمن بالله.

فلما رأى أهل القرية المؤمنين ذلك الرجلَ المؤمن، لحقوا به إلى الكهف، فلما وصلوا الكهف، وجَدوا الرجال المؤمنين السبعة قد ماتوا ــ ماتوا موتاً طبيعياً حقيقياً هذه المرة ــ.

فاختلفوا فيهم، وتنازعوا بينهم أمرهم، ماذا يفعلون بهم؟ فمنهم من قال: ابنوا عليهم بنياناً، ربهم أعلم بهم.

ولكن الحاكمين فيهم قرروا أن يبنوا عليهم مسجداً. وهكذا كان، حيث تم بناء المسجد عليهم!.

وبذلك طُوِيَت صفحةٌ من صفحات الإيمان والإخلاص والزهد في الدنيا واللجوء إلى الله، وبقيت قصة أصحاب الكهف، يتناقلها الناس وأصحاب الديانات السماوية، ويقف أمامها المؤمنون، ليأخذوا منها دروساً في الإيمان والإخلاص والثبات.

سبب نزول الآيات:

روى ابن هشام في السيرة أنه لما اشتدت المعركة الفكرية بين رسول الله ﷺ وبين قريش في مكة، استعانت قريش باليهود في المدينة.

«فبعثتْ النّضر بن الحارث وعُقبة بن أبي مُعَيْط إلى أحبار اليهود ليسألوهم عن رسول الله ﷺ.

فجاءا إلى اليهود، وقالا: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا!.

فقالت لهما أحبار يهود: سلوه عن ثلاث نأمُرُكم بهن. فإنْ أخبركم بهن فهو نبي مرسَل. وإن لم يفعل فالرجل متقوِّل. فرَوْا فيه رأيكم.

سلوه عن فتية ذهبوا في الدهر الأول، ما كان أمرُهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب.

وسلوه عن رجل طوّاف، قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه.

وسلوه عن الروح.

فعادا إلى قريش وقالا: يا معشر قريش. قد جئناكم بفصْلِ ما بينكم بين محمد. قد أخبَرَنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها.

فجاءوا رسول الله ﷺ، فقالوا: يا محمد: أخبِرْنا عن: فتية ذهبوا في

الدهر الأول قد كانت لهم قصة عجب. وعن رجل كان طوافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها. وأخبرنا عن الروح ما هي.

فقال لهم رسول الله ﷺ: أخبركم بما سألتم عنه غداً. ولم يَسْتَثْن ــ يعني لم يقل: إن شاء الله ــ.

ولما جاء الغد لم يأته جبريل بالجواب، ومكث رسول الله ﷺ خمس عشرة ليلة لا يأتيه الوحي.

فأرجف أهلُ مكة، وقالوا: وَعَدَنا محمد غداً، واليوم مضى خمس عشرة ليلة، ولم يخبْرنا محمد عن ذلك.

فأحزنَ رسولَ الله ﷺ تأخرُ الوحي عنه، وشق عليه ما يتكلم به، أهل مكة.

ثم جاءه جبريل بسورة الكهف، وفيها معاتبتُه إياه على حزنه عليهم، وخبرُ ما سألوه عنه من أمر الفتية، والرجل الطوّاف، والروح[1].

وقد ذكر علماءُ التفسير بالمأثور، مثلُ الطبري والسيوطي والشوكاني وابن كثير هذه الرواية عن ابن إسحاق ــ وهو الذي أخذ عنه ابن هشام روايات السيرة ــ.

دلالات من الحادثة:

وعندما ننظر في هذه الرواية، فإننا نخرج منها بعدة إيحاءات وإشارات ودلالات. منها:

١ ــ رغبةُ قريش في إثارة الشبهات ضد رسول الله ﷺ، وفي استخدام كل ما يؤدي إلى الوقوف في وجهه، ومنع انتشار دعوته.

---

(١) الروض الأنف شرح السيرة النبوية ٣: ١٢٨ ــ ١٢٩.

٢ ـ استعانة قريش بالأقوام الأخرى لمحاربة رسول الله ﷺ، وهذا يـدل على عنف المعركة التي يخوضونها، وشدتها وقسوتها.

٣ ـ إن اليهـود هم أخطرُ النـاس على دعوة الحق، وأشـدُّ الناس عداوةً لها، ورغبـةً في القضـاء عليهـا، ولـذلـك لجـأت قـريش إليهم في محـاربـة رسـول الله ﷺ. وعداوة اليهـود للإسـلام والمسلمين العنيفةُ الشـديـدة، بقيت موجودةً ومستمرة، منذ عهـد الرسـول عليه السـلام وحتى عصرنـا الحاضر، وستبقى كذلك في المستقبل.

٤ ـ إن اليهود هم أساتـذةُ الشر وعلمـاء الباطـل، وأكابـرُ الاجرام والفسـاد، وشياطين الإنس، الذين يلجـأ إليهم الآخرون ليتتلمـذوا عليهم ويتعلموا منهم، ويستفيـدوا من علومهم ومعارفهم، ويـأخذوا بـآرائهم، وخبراتهم ونصائحهم.

فهـاهم زعماء قـريش يتعلمون من أحبـار اليهود، ويتتلمـذون عليهم في مواجهة الرسول عليه الصلاة والسلام.

وبقي اليهود مرجعاً للكافرين والمبطلين والمجرمين والمفسدين، ووظَّف اليهود ما عندهم من علم ومعرفـة لتعليم الناس الشـر والباطـل والإجرام والفساد. ويا لها من رسالة يهوديـة خبيثة، ويـا لها من ريـادة يهوديـة في الشر والباطل والإجرام!

٥ ـ إن اليهودَ يريدون امتحان الرسول عليه السلام عنـدما وجهـوا له الأسئلة الثلاثة. وقد أدى الرسـول عليه السـلام امتحانـاً صعباً قـاسياً، إذ انتـظر خمسة عشر يوماً حتى جاءه الجواب من عند الله.

٦ ـ لقد نسي الرسول عليه السلام أن يقول: إن شاء الله. عندمـا وعد قـومه أن يأتيهم بالجواب في الغد.

ولقد أعطى اللَّهُ رسولَه عليه السلام كما أعطانا نحن درساً بالغاً. إذ تأخر عنه الوحي خمسة عشر يوماً مع شدة حاجته له، ومع أنه يقدم امتحاناً صعباً قاسياً، ومع أنه يجيب على أسئلة يهودية صعبة.

٧ ــ إنَّ تأخرَ الوحي عن رسول الله عليه الصلاة والسلام خمسة عشر يوماً، وقريشُ تراجعه كل يوم، ويقول في كل مرة: لم يأتِني الجواب حتى الآن، دليلٌ واضح بيّن على أن القرآن من عند الله، و ليس من عند محمد ﷺ. فلو كان القرآن من عنده لما احتاج إلى هذا الانتظار، ولأجابهم فوراً، ونسبه إلى الله.

فتوقُّفُه في الجواب رغم حاجته الماسة إليه، وانتظارُه الوحيَ من السماء، وحزنُه على تأخر الوحي، وتأثره بكلام المشركين عنه، كل هذا يدل على أن القرآن كلام الله.

الكلمات الغريبة في الآيات:

١ ــ الكهف: الغار في الجبل.

٢ ــ الرقيم: حجر أملس رُقمت فيه أسماء أصحاب الكهف وكتبت عليه، ووُضع على باب الكهف.

٣ ــ ضربْنا على آذانهم: جعلناهم ينامون.

٤ ــ شَطَطاً: باطلاً.

٥ ــ يَنْشُر لكم ربكم: يبسط لكم.

٦ ــ مِرْفقاً: ما ترتفقون به وتنتفعون به في عيشكم.

٧ ــ تَزاوَرُ: تعدل عن الكهف وتميل عنه.

٨ ــ تَقْرِضُهُم: تعدل عنهم وتبتعد.

٩ ــ هم في فجوة منه: في سَعة وسط الكهف.

١٠ ــ الوَصيد: عتبة الباب.

١١ ــ بوَرِقِكُم: الوَرِق الفضة.

١٢ ــ أزكى طعاماً: أحل وأطيب طعاماً.

١٣ ــ يظهروا عليكم: يكتشفوا أمركم.

١٤ ــ أعثَرْنا عليهم: كشفناهم للناس.

١٥ ــ رجماً بالغيب: كلاماً بالظن، بدون يقين ولا علم.

١٦ ــ لا تُمارِ فيهم: لا تجادل في أمرهم.

من المبهمات في القصة:

مبهمات القرآن لا تُبَيَّن من مصادرَ غير صحيحة ولا موثوقة ولا يقينية، إن القرآن لم يبينْها، ولذلك كانت من المبهمات. فيُنْظَر بعد ذلك في الأحاديث. فإن وُجد حديثٌ صحيح يبينُها وجب الأخذ به. وإن لم يوجَد في ذلك حديث صحيح، وجب علينا السكوتُ عنها، وإبقاؤُها على إبهامها، ولا تجوزُ لنا محاولةُ بيانها من المصادر الإسرائيلية أو غيرها.

وفي قصة أصحاب الكهف مبهمات لم تبيَّنْ في القرآن ولا في الحديث، من هذه المبهمات:

١ ــ الفترة الزمنية التي وُجِد فيها أهل الكهف، هل كانوا قبل اليهود أو بعدَهم؟ وهل كانوا قبل عيسى عليه السلام أو بعده؟.

٢ ــ الديانة التي كانوا عليها، هل هم على الديانة اليهودية أو الديانة النصرانية أو ديانة سماوية توحيدية أخرى؟.

٣ ــ اسم الملك الذي عاشوا فترة حكمه، هل هو روماني أو يوناني أو فارسي أو يهودي أو عربي؟.

٤ ــ اسم المدينة التي كانوا فيها هل هي «أَفْسوسْ» التركية أو «طرطوس» السورية أو «عمان» الأردنية أو غير ذلك.

٥ ـ مكانُ الكهف الذي أَوَوْا إليه. وهل هو في الأردن أو سوريا أو تركيا أو غير ذلك.

٦ ـ عملُ الفتية قبل أن يأووا إلى الكهف، وهل كانوا أبناءَ أمراء، أو من كبار الموظفين عند الملك، أو كانوا من الرعاة.

٧ ـ كيفيةُ اهتدائهم إلى الله، وإيمانهم به، ومعرفتهم بكفر قومهم وكونهم على ضلال.

٨ ـ كيفية التقائهم مع بعضهم، وخروجهم من المدينة، وذهابهم إلى الكهف، وهل عرف قومهم بهم أم لم يعرفوا؟ وهل لحق الملك بهم أم لم يلحق؟.

٩ ـ كلبُهم من أين لحق بهم وكيف، ووظيفته معهم؟.

١٠ ـ أسماؤهم، واسم كلبهم ولونه وحجمه؟.

١١ ـ وقتُ دخولهم الكهف، ووقتُ استيقاظهم فيه.

١٢ ـ اسمُ الذي ذهب إلى المدينة ليحضر لهم الطعام، ومقدارُ ما معه من المال، وما جرى له في المدينة من أحداث ومفاجآت.

١٣ ـ تفصيلاتُ عثورِ أهلِ المدينة عليهم، وكيفيةُ وصولهم إليهم، ونزاعهم في أمرهم، وبناء المسجد عليهم، ودور الملك في ذلك.

١٤ ـ ما جرى لهم بعد العثور عليهم، وهل اطّلع عليهم أناس لاحقون أم لا؟ وهل رآهم أناس من الصحابة أم لا؟ وهل يمكن أن يراهم أحد أم لا؟.

١٥ ـ ماذا سيجري لأصحاب الكهف في المستقبل؟ وهل سيَحْيَون عند نزول عيسى عليه السلام، ويكونون معه أم لا؟.

كل هذه الأسئلة وغيرُها، لا يوجد جواب صحيح يقيني عليها، ولقد خاض فيها كثير من المفسرين والمؤرخين السابقين ـ مع الأسف ـ وجاءوا من ذلك برُكام كبير من الأساطير والإسرائيليات. وأشغلوا الناس بما فيها من خلافات، وحجبوهم عن النص القرآني وتدبره واستخراج لطائفه ودروسه ودلالاته.

إن البحث في تلك المبهمات، ومحاولة الإجابة على تلك الأسئلة، لا يقدم للناس علماً ولا فائدة ولا نفعاً، علاوةً على كونه لا يتفق مع المنهج الصحيح في التعامل مع مبهمات القرآن!.

من آيات الله في القصة:

قصةُ أصحاب الكهف مظهر من مظاهر قدرة الله القادرة، وإرادتِه النافذة، وقوتِه الغالبةِ القاهرة، وحكمتِه ورحمتِه وتدبيره سبحانه.

وقد قدَّم لنا القرآنُ أثناء عرضه لها، طائفة من آيات الله الباهرة، ومعجزاتِه الظاهرة، وجنودِه الأخفياء الذين لا يعلمهم إلا هو، والذين وظفهم الحق سبحانه لحماية أصحاب الكهف المؤمنين، والرِّفق بهم.

من هؤلاء الجنود الربانيين الذين يُعْتَبَرون من آيات الله:

١ ـ الكهف في موقعه الملائم المناسب حيث كانت حياتهم فيه كلها رفق ويسر وسهولة. وحيث كان يقيهم من أشعة الشمس عند الصباح والمساء.

٢ ـ الكلب الذي رافقهم وصَحِبهم، ولما دخلوا الكهف وقف على عتبة الباب يحرسهم، وبسط ذراعيه بالوصيد، ونام نومتهم!.

٣ ـ الشمس التي حرصتْ على أن لا تؤذيهم بحرارتها، ولهذا كانت تتصرفُ كأنها حيٌّ عاقلٌ واعٍ حكيم. فكانت إذا طلعتْ تُبْعِدُ أشعتها عنهم،

فتميل ذات اليمين، وإذا غربت كانت تبتعد عنهم ذات الشمال. وهم في فجوة وسَعَة من أشعتها وسط الكهف.

٤ ــ وحتى لا تبلى أجسادُهم بنومتهم الطويلة، وحتى لا تأكلها الأرض، كان الله يُقلِّبهم ذات اليمين وذات الشمال، فإذا قُلِّبوا ذات اليمين تعرضتْ جنوبهم اليسرى للهواء، وإذا قُلِّبوا ذات الشمال قُلبت جنوبهم اليمنى للهواء، فبقيت جنوبهم وأجسادهم سليمة صحيحة.

٥ ــ وحتى لا يَطْمَعَ أحد فيهم، جعل الله منظرهم للآخرين مخيفاً مرعباً، بحيث يتولَّون منهم فراراً، ويُمْلَئون منهم رعباً. ولعل مبعث الرعب منهم هو أن عيونهم كانت مفتوحة، بحيث يحسبهم الناظر إليهم أيقاظاً ينظرون إليه، مع أنهم رقود نائمون.

٦ ــ بَعْثُهم من نومتهم الطويلة التي بلغت ثلاثمائة وتسع سنين.

عددهم ومدة لبثهم:

اختلف السابقون من الأمم في عددهم، كما اختلف علماء المسلمين في إمكانيةِ معرفة عددهم.

وقد ذكر القرآن ثلاثة أقوال للسابقين في ذلك:

﴿سَيَقولون: ثَلاثَةٌ رابِعُهُمْ كَلْبُهُم.
وَيَقولون: خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُم.
رَجْماً بِالغَيْب.
وَيَقولون: سَبْعَةٌ وثَامِنُهُمْ كَلْبُهُم.
قُل: رَبّي أَعْلَمُ بِعِدَّتِهِم. ما يَعْلَمُهُمْ إلاّ قليل﴾.

فذهب فريق من المفسرين إلى أنه لا يمكن معرفةُ عددهم، لأن القرآن لم يصرِّح بذلك، بل أسند العلم بعدتهم إلى الله ﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾.

بينما ذهب فريق آخر من محققي المفسرين إلى أنّ عددهم سبعة، وقالوا: ليس هذا رجماً بالغيب، بل هذا ما يشير إليه القرآن.

واستدلوا على ذلك بما يلي:

١ ـ أبطل القرآن القولَيْن الأولَيْن في عدتهم، عندما وصفهما بأنهما ﴿رجماً بالغيب﴾ والرجم بالغيب هو القول بلا علم ولا دليل. وهذا الوصفُ رفضٌ للقولين.

٢ ـ سكوت القرآن عن القول الثالث ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ فلم يصفه بأية صفة، فلو كان القول باطلاً لوصفه بصفة تضعيف وإبطال، وهذا السكوت القرآني دليل على إقراره لذلك القول، واعتماده له.

٣ ـ إدخال الواو على القول الثالث دليل على صحته وصوابه ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ وهي التي تسميها العرب «واو الثمانية» ولنا معها وقفة بعد قليل ـ إن شاء الله ـ.

٤ ـ أثبت القرآن العلمَ بعدتهم لقليل من الناس فقال: ﴿قل ربي أعلم بعدتهم ما يعلمهم إلا قليل﴾.

فلو لم يمكن لأحد معرفةُ عددهم، لصرَّح القرآن بذلك وقال: ما يعلمهم إلا الله.

٥ ـ تصريحُ بعض الصحابة بأنهم من القليل الذين يعلمون عدَّتهم.

قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «أنا من القليل الذين يعلمونهم. كانوا سبعة».

وقال ابن عباس رضي الله عنهما: «أنا من القليل الذي استثنى الله. كانوا سبعة».

وكذا روي عن قتادة وعطاء رضي الله عنهما[1].

أما مدة لبثهم في الكهف فهي مختلف فيها كذلك.

فمن المفسرين من قال: هي ثلاثمائة وتسع سنين، أخذاً بنص الآية.

ومنهم من قال: لا دليل على تلك المدة. لأن الله يقول: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾.

وسبب اختلافهم في تقدير المدة، هو اختلافهم في المقصود بقوله: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ والقائل له.

١ ـ قال ابن كثير: «هذا خبرٌ من الله لرسوله ﷺ بمقدار ما لبثَ أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أن أَرقدهم إلى أن بعثهم الله وأعثرَ عليهم أهلَ ذلك الزمان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة، تزيد تسع سنين بالهلالية»[2].

٢ ـ بينما رجح مفسرون آخرون أن هذا من قول أهل الكتاب، وأنه غيرصحيح ،كما لم يصح كلامُهم حول عددهم.

قال ابن عباس رضي الله عنهما: «إنَّ الرجل ليفسر الآية، يرى أنها كذلك، فيهوي أبعد ما بين السماء والأرض. ثم تلا: ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين» ثم قال: كم لبث القوم؟ قالوا: ثلاثمائة وتسع سنين. قال: لو كانوا كذلك، لم يقل الله ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾. ولكنه حكى مقالة القوم فقال: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم...﴾ إلى قوله ﴿رجماً بالغيب﴾ وأخبر أنهم لا يعلمون. قال: سيقولون ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً﴾.

---

(١) الدر المنثور ٥ : ٣٧٥.

(٢) تفسير ابن كثير ٣ : ٧٩.

ونقل هذا الكلام عن قتادة ومطرف وابن إسحاق وغيرهم.

وقد جمع ابن كثير بين قول الله: ﴿ولبثوا في كهفهم...﴾ وقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾. قال: «وقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي إذا سُئلت عن لبثهم، وليس عندك علمٌ في ذلك، وتوقيفٌ من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا ﴿الله أعلم بما لبثوا له غيب السموات والأرض﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو، ومَنْ أطلعه عليه من خلقه»[1].

ونحن نميلُ إلى ترجيح قول ابن كثير في مدة لبثهم، وأنها ثلاثمائة وتسع سنين، لا سيما أنه قول جمهور المفسرين ـ والله أعلم ـ.

قصتهم مُجملة ثم مفصَّلة:

عَرَض القرآنُ قصة أصحاب الكهف بطريقة لطيفة مؤثِّرة، محبَّبة للنفوس، وفق أرقى أساليب العرض الفني.

لقد أورد قصتهم أولاً على سبيل الاختصار والإجمال، ثم أوردها على سبيل التفصيل والبيان.

أما الإجمال والاختصار ففي الآيات الأربعة الأولى. وهي قوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الكَهْفِ وَالرَّقيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً * إِذْ أَوى الفِتْيَةُ إِلى الكَهْفِ * فَقالوا: رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً * فَضَرَبْنا عَلى آذانِهِم في الكَهْفِ سِنينَ عَدَداً * ثُمَّ بَعَثْناهُمْ لِنَعْلَمَ أَيُّ الحِزْبَيْنِ أَحْصى لِما لَبِثوا أَمَداً﴾.

وأما التفصيل والإجمال ففي ما تلاها من آيات، بُدِأت بقوله: ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ نَبَأَهُمْ بالحَقّ...﴾.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٩.

عناصر الإجمال جمعت أطراف القصة مجملة:

هم أصحاب الكهف والرقيم. وهم من آيات الله. وهم فتية. وقد أووا إلى الكهف. واستنجدوا بالله. وطلبوا رحمتَه ورُشده وتوفيقه. وضربَ اللَّهُ على آذانهم في الكهف فناموا. واستمر نومهم سنين عدداً. ثم بعثهم الله من نومهم. وقد انقسم الناس في عددهم وأمْرِهم ولبثهم إلى حزبين مختلفين. وقد بيَّن القرآن القول الصحيح في ذلك وأبطل القول الآخر.

ولعل في الآية الأولى: ﴿أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحابَ الكَهْفِ وَالرَّقيمِ كانُوا مِنْ آياتِنا عَجَباً﴾ ردٌ على استغراب الناس من قصتهم. وردٌّ على اليهود والمشركين الذين وجَّهوا السؤال عنهم إلى رسول الله ﷺ.

ربنا آتنا من لدنك رحمة:

لقد استنجد الفتية المؤمنون عندما أووا إلى الكهف بالله، ودعَوْه قائلين: ﴿رَبَّنا آتِنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾.

وهم بهذا قدوةٌ للمؤمنين في اللجوء إلى الله، والاستنجاد به، وطلبِ الرحمةِ منه، والاستعانةِ به في الاهتداء إلى الرشد في الأمور والحياة.

إنهم يعلمون أن الرحمة حقيقةً لا تكون إلا من عند الله، ولهذا طلبوها من ذلك المصدر الكريم ﴿آتنا من لدنك رحمة﴾.

ومعنى: لَدُن: عند.

ومن الملاحظ أنه كثر استعمال هذه الكلمة «لدن» في سورة الكهف: حيث وردت أربع مرات:

١ ـ قال تعالى: ﴿قَيِّماً لِيُنْذِرَ بَأْساً شَديداً مِنْ لَدُنْهُ * وَيُبَشِّرَ المُؤْمِنين﴾[1].

---

(١) سورة الكهف: آية ٢.

٢ ــ قال تعالى: ﴿رَبَّنا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَة * وَهَيِّءْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾[١].

٣ ــ قال تعالى: ﴿فَوَجَدا عبداً مِنْ عِبادنا * آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا * وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً﴾[٢].

٤ ــ قال تعالى: ﴿قَدْ بَلَغْتَ مِنْ لَدُنِّي عُذْراً﴾[٣].

كما أنه من الملاحظ كثرةُ استعمال كلمة «الرحمة» في السورة أيضاً. حيث وردت ست مرات:

١ ــ قول أصحاب الكهف: ﴿رَبَّنا آتِنَا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً وَهَيِّءْ لَنا مِنْ أَمْرِنا رَشَداً﴾[٤].

٢ ــ قولهم لبعضهم بعضاً عندما دخلوا الكهف ﴿فَأْوُوا إِلى الكَهْفِ يَنْشُرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِهِ﴾[٥].

٣ ــ قول الله: ﴿وَرَبُّكَ الغَفورُ ذُو الرَّحْمَة * لَوْ يُؤاخِذُهُمْ بِما كَسَبوا لَعَجَّلَ لَهُمُ العَذاب﴾[٦].

٤ ــ قال تعالى عن الخضر: ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا * آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً﴾[٧].

٥ ــ قال الخضر عن الغلامين اليتيمين في المدينة: ﴿فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلُغا أَشُدَّهُما وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما * رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ﴾[٨].

---

(١) سورة الكهف: آية ١٠.
(٢) سورة الكهف: آية ٦٥.
(٣) سورة الكهف: آية ٧٦.
(٤) سورة الكهف: آية ١.
(٥) سورة الكهف: آية ١٦.
(٦) سورة الكهف: آية ٥٨.
(٧) سورة الكهف: آية ٦٥.
(٨) سورة الكهف: آية ٨٢.

٦ ـ قال ذو القرنين لما بنى السد: ﴿قَالَ هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي ۖ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ﴾(١).

ورحمةُ الله ظاهرة في سورة الكهف، وفي قصصها الذي عرضْته:

فأصحاب الكهف رحمهم الله بأن أرشدهم للكهف، فَأَوَوْا إليه واعتزلوا قومَهم المشركين. ورحمهم الله عندما يسَّر لهم الإقامة في الكهف تلك السنوات الطويلة. ورحمهم الله عندما جعلهم ينامون مئات السنين بحيث انقرض الجيل الكافر الذي هربوا منه، وخلَفه جيل مؤمن. ورحمهم الله عندما سخَّر لهم من الآيات والمعجزات والكرامات داخل الكهف.

علموا أن الرحمة لا تكون إلا من الله فطلبوها منه. وعلموا أن الرشد هو الذي يمنحه الله لأصحابه، فسألوه إياه ﴿ربنا آتنا من لدنك رحمة وهيء لنا من أمرنا رشداً﴾.

ولما سألوه هذا بإخلاصٍ وإنابة، وطلبوه بصدقٍ ورجاء، استجاب الله لهم ففتح لهم من رحمته، ما جعلهم يعيشون فيها، ويتقلَّبون في أفيائها.

جاءتهم رحمة الله في داخل الكهف، فحولتْه عليهم إلى سعادة ونعيم. وصدق الله القائل: ﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها ۖ وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسَلَ لَهُ مِنْ بَعْدِه﴾(٢).

نحن نقص عليك نبأهم بالحق:

يوحي قوله تعالى: ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ بعدة إيحاءات. منها:

---

(١) سورة الكهف: آية ٩٨.

(٢) سورة فاطر: آية ٢.

١ ــ إن تلاوة الله سبحانه لنبأ أصحاب الكهف، مظهرٌ من مظاهر رحمته بنا وتعليمه لنا، وإخبارِنا عن ما ينفعنا من قصص السابقين. وهو تفضُّلٌ وتكرُّم منه سبحانه.

٢ ــ لا ننسى الجوَّ الذي نزلت فيه الآيات، وهو امتحان المشركين واليهود لرسول الله ﷺ بخصوص أصحاب الكهف. فأَنْ يتولى الله سبحانه بنفسه إخبارَ رسوله عليه الصلاة والسلام بذلك، نصرٌ له وتأييد.

٣ ــ كما يمكن أن نعتبر ذلك دليلاً من دلائل النبوة، وشهادةً من الله سبحانه لرسوله عليه الصلاة والسلام. فلو لم يكن رسولاً لما صدَّقه الله وشهد له وتلا عليه.

٤ ــ وصْفُ التلاوة الربانية بالحق ﴿نحن نقص عليك نبأهم بالحق﴾ دعوةٌ لنا إلى تصديق كل ما ورد فيها، واعتقاد صحتِه وصدقِه ووجودِه. وإنْ كانت بعض الجزئيات غيرَ خاضعةٍ للمقاييس المادية، لأن العقل المؤمن يُثْبت لله القدرة القادرة والإرادة النافذة والمشيئة المطلقة، التي تغيِّر ما شاءت من نواميس الكون وسننه.

٥ ــ كما أن وصْفَ التلاوة بالحق، دعوةٌ لنا إلى تحقيق صفة «الحق» ــ التي تعني: الصدق والصواب والوجود الحقيقي ــ في بحثنا عن قصص السابقين في القرآن، وفي الميدان الذي نخوض فيه، والمصادر التي نأخذ منها، والحصيلة التي نخرج بها. فلا بد أن يكون هذا كله متَّصفاً بصفة الحق. ولا يكون ذلك إلا للمصادر الصحيحة اليقينيّة المأمونة، المتمثِّلة في القرآن الكريم والحديث الصحيح.

إن وصف التلاوة بالحق في قصة أصحاب الكهف، دعوةٌ للباحثين والدارسين إلى الاكتفاء بالتلاوة الربانية الصادقة الحق، وإلى عدم الذهاب إلى المصادر الأخرى التي حَوت الكثير من الإسرائيليات

والأساطير والخرافات، بل تجاوزِها وإغفالها، وطرْح كل الروايات المأخوذة منها.

٦ ـ كلمة النبأ في الآية تعني أن قصة أصحاب الكهف هامة، لأن النبأ يُطلَق على الأخبار الهامة والصادقة في نفس الوقت.

إنهم فتية . . . :

وصَفَ اللّهُ أصحاب الكهف بأنهم فتية: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنوا بِرَبِّهِمْ * وَزِدْناهُمْ هُدى﴾.

والفتى هو الشاب في مقتبل العمر، وهو أكبر من الغلام وأصغر من الشاب.

ومرحلةُ الفتوَّة هي مرحلة الحماس والاندفاع والحيوية، مرحلةُ العطاء والهمة والالتزام.

والفتوَّة صفةٌ ممدوحة في القرآن، محمودٌ صاحبها، عندما يقوم بصالح الأعمال وعظيمها وجليلها.

فإبراهيم الخليل عليه السلام، عندما حطم أصنام قومه، وصَفوه بأنه فتى. وقالوا: ﴿سَمِعْنا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يُقالُ لَهُ إبْراهيم﴾[1].

وهم بهذا الوصف يقصدون إلى تنقيصه وذمِّه واتهامه. وكأنهم يقولون: إنه فتى مندفعٌ طائش، لا يعرف عاقبة أفعاله، ونتيجة تصرفاته. فلو كان كبيراً ناضجاً لما أَقْدم على ذلك.

ولكننا نفهم من وصْفه بالفتوّة مدحه، والثناءَ على تصرفه، فالفتوةُ دفعتْه إلى إنكار المنكر وتحطيم الأصنام، فما كانت فتوته تحتمل أن ترى المنكر، ولهذا توجهت له بالتحطيم.

(١) سورة الأنبياء: آية ٦٠.

وفتوَّةُ الشباب المسلم الملتزم بدينـه، مصدرُ اتهـام وذمٍّ وتنقيص من قِبَل أعداء الإسلام في هذا الزمان. حيث يعتبرونهم فتياناً طائشين، وشباباً متهوِّرين مندفعين، ويقولـون: لو أنهم رجـال كبار لاتَّصفـوا بالـوعي والحكمة والحنكـة والنضوج.

علماً بأن فتـوة هؤلاء الشباب الملتـزم هي مصدر همَّتـه وطاقتـه، وسعيه وبذله، وجهده ونشاطه، وهي الثمارُ اليانعة للفتوة الصادقة الملتزمة دائماً.

مرحلةُ الفتوَّة هي مرحلة الحماس والبذل والعطاء، والفتـوة تعني الإقدام والالتزام.

والشبـاب هم عامـل التغيير والإصـلاح، وما قـامت الـدعـوات إلا على سواعد الشباب، ولا تحقق التغيير إلا بجهودهم.

ولقد كان الشباب هم غالب أتْباع الأنبياء والدعاة والمصلحين.

ونظراً لما للشباب من أثر ملحوظ، وحرصاً من أعداء المسلمين في هـذا الزمان على عـدم استفادة المسلمين من طـاقات وهمم شبـابهم، فقد حـرصوا على غـزو الشباب في أفكـارهم وعقائـدهم، وإيقـاعهم في الضيـاع والعبث، وقتلِ نخوتهم وهمتهم واندفاعهم، وتوجيههِم إلى توافه الاهتمامـات والأعمال والحياة.

وما حورب شباب المسلمين كما حوربوا في هذا الزمان، ولا غُزُوا كمـا غُزُوا في هذا الزمان، وما فُجـع المسلمون في شبابهم كما فُجِعـوا في شبابهم في هذا الزمان، وما ضلَّ وضاعَ شبـاب المسلمين كما ضلوا وضـاعوا في هـذا الزمان، وكم تخسر الأمة عندما تُصاب في شبابهـا، وتُفجَـع في فتيانهـا، وهم عمادها ومعقد رجائها.

لكن الأمة لم تخسر كلَّ شبابها، ففيها فتيان صالحون وشباب عـاملون،

ينطبق عليهم قول الله عن أصحاب الكهف: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنوا بِرَبِّهِمْ وَزِدْناهُمْ هُدى﴾. حيث أقبلَ هؤلاء الشباب على إسلامهم، فعرفوه حق المعرفة، والتزموا به صادق الالتزام، ودعوا إليه بهمة ونشاط وإخلاص.

إنهم فتية آمنوا بربهم، فلما آمنوا به واختاروا طريقة، وعَلِم الله منهم الصدقَ والإخلاص، أمدَّهم بمدد من عنده، فزادهم هدى.

إن هذه الآية تريد أن تقرر الحقيقة القرآنية الصادقة في موضوع الإيمان والهدى، وهي: إن الإنسان المؤمن هو الذي يختار، فإذا ما اختار الإيمانَ، وأقبلَ عليه بإخلاص والتزام وصدق وجديّة، فإن الله يَمُنّ عليه بالزيادة من ذلك. أما إذا لم يَقُمْ هو بالخطوة الأولى، ولم يحقق الاختيار، فإن الله لن يمنحه الهدى، فضلاً عن أن يزيده منه.

ما عليك إلا أن تختار، واللَّهُ يزيدك مما تختار، ويمدك منه، سواء كان إيماناً أو كفراً، هدى أو ضلالاً، هذه هي سنة الله التي قررتْها آيات من القرآن، مثل هذه الآيات: ﴿مَنْ كانَ يُريدُ العاجلَةَ عَجَّلْنا لَهُ فيها ما نَشاءُ لِمَنْ نُريد * ثُمَّ جَعَلْنا لَهُ جهَنَّمَ يَصْلاها مَذْموماً مَدْحوراً * وَمَنْ أَرادَ الآخِرَةِ وَسَعى لَها سَعْيَها ــ وَهُوَ مُؤْمِن ــ فَأولئِكَ كانَ سَعْيُهُمْ مَشْكوراً * كُلّاً نُمِدُّ هٰؤُلاءِ وَهٰؤُلاءِ مِنْ عَطاءِ رَبِّكَ * وَما كانَ عَطاءُ رَبِّكَ مَحْظوراً * أُنْظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنا بَعْضَهُمْ عَلى بَعْض * وَلَلآخِرَةُ أَكْبَرُ دَرَجاتٍ وَأَكْبَرُ تَفْضِيلاً﴾[1].

وربطنا على قلوبهم:

الفتيةُ المؤمنون المهتدون ــ أصحابُ الكهف ــ وُجِدوا وسط أقوام كافرين، فخالفوهم واختاروا جانب الحق وطريق الإيمان، حيث فتحوا قلوبهم للإيمان، ولما دخل الإيمانُ قلوبَهم زادهم الله منه، زادهم إيماناً وهدى، حتى ملأ قلوبهم.

---

(١) سورة الإسراء: آيات ١٨ ــ ٢١.

وبعدما امتلأتْ قلوبُهم إيماناً وهدى، ربط الله عليها. قال: ﴿وَرَبَطْنا عَلى قلوبهم﴾.

مَعْنَى ربطنا على قلوبهم: ثَبَّتْناهم على الإيمان، فثبتوا عليه في شدة وعزم وصبر وتصميم.

لكنني معجب بالصورة اللطيفة التي تلقيها هذه الجملة، بحيث أتصور قلوبَهم ممتلئةً بالإيمان والهدى، فهي أشبه ما تكون بقرْبَة مملوءةٍ ماء، وحتى لا يسيل الماء منها، يربط صاحبها فمها، ويُبقي الماءَ داخلها.

وهذه القلوب التي اختارت الإيمان والهدى، يُخشى عليها أن يتسرب منها ذلك وسط فتنة القوم الكافرين، فربط الله على تلك القلوب، ليحفظ الإيمان والهدى داخلها.

والقلوب التي تختار الإيمان تحتاج إلى أن تَربط عليه حتى لا يتسرب أو يضيع، كما قال الله لمؤمني بدر: ﴿وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُمْ مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطَهِّرَكُمْ بِهِ * وَيُذْهِبَ عَنْكُمْ رِجْزَ الشَّيْطان * وَلِيَرْبِطَ على قلوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الأَقْدام﴾[1].

إذ قاموا فقالوا:

﴿وَرَبَطْنَا على قُلوبِهِم * إِذْ قاموا فقالوا: رَبُّنا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْض * لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلٰـهاً * لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً﴾.

لقد سار الفتية المؤمنون أصحاب الكهف مراحلَ متدرِّجة متتابعة في طريق الإيمان.

١ ــ فهم ــ أولاً ــ آمنوا بربهم. وطلبوا منه الرحمة والرشد، فاستجاب الله لهم، وزادهم إيماناً وهدى.

---

(١) سورة الأنفال: آية ١١.

٢ ـ وهم نـالـوا كـرامـة وفضـلاً ونعمـة من الله، حيث ربط الله على قلوبهم الممتلِئةِ إيماناً، لتحتفظ بإيمانها حياً داخلها.

٣ ـ وهم بعد ذلك قاموا بهمة وجدّ، وبحثوا بنشاط وسعي، وأعلنوا أن ربهم وحده رب السموات والأرض، وأنهم من ثم لن يتخذوا من دونـه إلـهاً، وأن قومهم الذين عبدوا غيره مخطئون.

وهذه المرحلة الثالثة عبَّر عنها القرآن بقوله: ﴿إِذْ قاموا فَقالـوا: رَبُّنا رَبُّ السَّموات وَالأَرْض * لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دونِهِ إلهاً * لَقَدْ قُلْنا إِذاً شَطَطاً﴾.

وقد اختلف المفسرون في بيان معنى القيام:

١ ـ منهم من قال: إنه كان قياماً منهم بين يدي الملك الكـافر، فهـو وصْفٌ لمقـامهم أمامـه، حيث علم الملك بهم، وبأنهم خـالفوا دينـه، فـرُفِـع أمرهم إليه، ومثلوا بين يـديه، وقيـل له: إنهم قـد فارقـوا دينك وكفـروا بك.

فأَمَرَهم بالعودة إلى دينـه، وتوعـدَّهم بالقتـل إن لم يفعلوا ذلك. فـثبتـوا على الحق وقالوا له: ربُّنا رب السموات والأرض. . .

وهذا الكلام يكون مقبولاً لو صحت الرواية في ذلك عن رسـول الله ﷺ وطالما أنها لم تصح، فلا نقول بها.

٢ ـ ومن المفسـرين من قال: إن الفتيـة كانـوا أولادَ عـظمـاء في المـدينـة، فخـرجوا منهـا واجتمعـوا على مشـارفهـا على غيـر ميعـاد بينهم. فقـال أحـدهم: إني أجـد في نفسي أن ربـي هــو رب السمـوات والأرض. وقالوا هم: ونحن نجد في أنفسنا مثـلَ ذلك. فقـاموا وقـالوا: ربنـا رب السموات والأرض.

وهذا التفصيل لقيامهم غير وارد في الروايات الصحيحة كذلك.

٣ ـ وقال بعض المفسرين: عبَّر القرآن بالقيام هنا عن خروجهم من قومهم ومفارقتِهم لهم، وعزمِهم على الهروب إلى الله تعالى. كما تقول: قام فلان إلى أمرِ كذا. إذا عزم عليه بغاية الجد[1].

لكننا نفهم من القيام في هذا المقام أمراً آخر.

إنه قد يكون قياماً حقيقياً حسياً، بمعنى الوقوف، حيث اختاروا طريق الله، وربَطَ الله على قلوبهم المؤمنة، فقاموا ووقفوا، وأعلنوها واضحة صريحة: إن ربهم هو رب السموات والأرض.

كما أن القيام يمكن أن يرادَ به السعي والبحث والاهتمام والجد والجهد، فكانوا جادين صادقين في اختيار طريق الله، وكانوا متمتعين في ذلك بهمة وعزيمة وإرادة.

ونفهم من القيام لطيفةً أخرى، وهي أنه حركة وسعي وجهد، بمعنى أنهم لم يُبْقوا الإيمانَ في دائرة المعرفة النظرية الذهنية العقلية، ولم يجعلوه مجرد ثقافة ومعرفة واطلاع، وإنما قاموا بخطوة أخرى، تُعتبَر الثمرةَ الطبيعية، والنتيجة المنطقية، للمعرفة الذهنية والثقافية العقلية. وذلك عندما قاموا وتحركوا وسعوا.

لقد كان قيامُهم وسعيهم عاملاً في تقوية إيمانهم، وكانت حركتهم وخطوتهم العملية ضروريةً لإيمانهم.

إنه لا بد أن يكون إيمانُنا حياً فاعلاً قوياً كإيمان هؤلاء الفتية، لا بد أن يقودَنا هذا الإيمان إلى الخطوات العملية والحركات الخارجية، بحيث نجعل حياتنا كلها وِفْقة، ثم نتوجه به نحو الآخرين، فندعوهم إليه.

---

(١) انظر القرطبي ١٠: ٣٦٥ ـ ٣٦٦.

إن القيام بالإيمان وبالإسلام، والثباتَ عليه والدعوةَ إليه، يحتاج إلى قلوب تختاره ثم تمتلىء منه، ثم تطلب من الله أن يربط عليها. لمّا ربط الله على قلوب أصحاب الكهف منحهم القوة والعزيمة والهمة، فقاموا قياماً بإيمانهم، وهكذا القلوب المؤمنة المجاهدة دائماً.

إن القرآن يطالبنا بالقيام، الذي هو الاهتمام والهمة والعزيمة في البحث والتفكر، فإذا تمَّ هذا فإن الإنسان سيختار الإيمان والالتزام. قال تعالى: ﴿قُلْ إنَّما أَعِظُكُمْ بواحِدَة: أَنْ تَقوموا لِلَّهِ مَثْنى وَفُرادى * ثُمَّ تَتَفَكَّروا * ما بِصاحِبِكُمْ مِنْ جِنَّة * إنْ هُوَ إلاّ نَذيرٌ لَكُمْ بَيْنَ يَدَيْ عَذابٍ شَديد﴾[1].

والعجيبُ أن الصوفية تعلَّقوا بقيام أهل الكهف وقولهم: ﴿ربنا رب السموات والأرض﴾ وجعلوا هذا دليلاً لهم على جواز وقوفهم وحركاتهم ورقصهم وتمايلهم في حلقات الذكر والدروشة والإنشاد.

وقد ردَّ الإمام القرطبي هذا الاستدلال وأبطل هذا التعلق، وقال: «وهذا تعلُّقٌ غير صحيح. هؤلاء قاموا فذكروا الله على هدايته، وشكروه لِما أولاهم من نِعَمه ونعمته.. أين هذا من ضرب الأرض بالأقدام، والرقص بالأكمام، وخاصة في هذه الأزمان، عند سماع الأصوات الحسان من المُرْدِ والنسوان. هيهات. بينهما والله ما بين الأرض والسموات. ثم هذا حرام عند جماعة العلماء.

وقد سئل الإمام أبو بكر الطَّرْسوسي عن مذهب الصوفية فقال: وأما الرقصُ والتواجد فأول من أَحْدثه أصحاب السامريّ، لما اتخذ لهم عجلاً جسداً له خوار، قاموا يرقصون حوله ويتواجدون»[2].

---

(١) سورة سبأ: آية ٤٦.

(٢) القرطبي ١٠: ٣٦٦.

لولا يأتون عليهم بسلطان بيّن!

قام أصحاب الكهف فقالوا: ربُّنا رب السموات والأرض. لن ندعو من دونه إلهاً، لقد قلنا شططاً.

وقام أصحاب الكهف فقالوا: هؤلاء قومنا اتخذوا من دونه آلهة، لولا يأتون عليهم بسلطان بين، فمن أظلم ممن افترى على الله كذباً؟.

لقد رفضوا ما عليه قومهم من الكفر بالله، والشر كِ به وعبادةِ غيره، واتخاذَهم من دونه آلهة.

وطلبوا من قومهم دليلاً وحجة وبرهاناً، وسلطاناً بيناً واضحاً، على جواز ما هم عليه من الباطل.

ثم قرروا النتيجة الطبيعية لذلك، وهي أنه لا أحد أظلم ولا أطغى من الذي يفتري الكذب على الله سبحانه، فيجعل له شريكاً، ويعبد معه غيره.

إن قولهم: ﴿لَوْلا يَأْتونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّن﴾ يقدم حقيقةً قرآنية قاطعة، ويقرر قاعدةً قرآنية ضرورية، في موضوع العقائد والأفكار والآراء.

لولا يأتون عليهم بسلطان بين: هلا يقدِّمون حجة وبرهاناً ودليلاً على ما هم عليه.

لولا هنا: ليست حرف شرط، وإنما هي حرف حثّ وحضّ.

لأنه إذا وقع بعدها فعل، كانت حرف حث وتحضيض بمعنى: هلا.

وإذا وقع بعدها اسم كانت حرف شرط، حرف امتناع لوجود.

إن القرآن يريد من الناس جميعاً أن يكونوا علميين منهجيين موضوعيين، في عقائدهم وأفكارهم وآرائهم ونظراتهم، فلا يقبلوا فكراً أو رأياً لا يتفق مع الصواب، ولا تتوفر فيه العلمية والمنهجية والموضوعية.

وحتى يحققوا هذه الصفة الضرورية لما هم عليه، فلا بد أن يقدموا الدليل والسلطان والحجة والبرهان على ما هم عليه، وأن يكون هذا الدليل والسلطان بيناً واضحاً، يقبله كل عقل سليم، ويتفق مع كل منطق صحيح.

ولو طلب كل إنسان دليلاً وحجة وسلطاناً على ما يؤمن به أو يقوله، ولو ألقى جانباً كل رأي أو فكر أو مبدأ لا يَسْتند إلى سلطان بيّن، لتخلى الناس عن كثير مما يقولونه أو يعتقدونه، ويعتبرونه من البديهات المسلَّمة، ولزال الكثير من العقائد والأفكار والمبادىء والنظريات والشعارات، التي تنتشر في العالم في غفلة من البحث العلمي المنهجي الموضوعي القائم على السلطان والدليل والبرهان!.

إن القرآن الكريم يطالبُ الناس بالسلطان والبرهان، ويقدّم طلبه هذا خاصة للكافرين وهو يناقشهم في أفكارهم وعقائدهم ومبادئهم.

قال تعالى في بيان المحرّمات: ﴿قُلْ إِنَّما حَرَّمَ رَبِّيَ الفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَمَا بَطَن * وَالإِثْمَ وَالبَغْيَ بِغَيْرِ الحَق * وَأَنْ تُشْرِكوا بِاللَّهِ ما لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطاناً * وَأَنْ تَقولوا عَلى اللَّهِ ما لا تَعْلَمون﴾[1].

وأورد القرآن قولَ المشركين في نسبة الولد إلى الله سبحانه، ثم رده لعدم وجود سلطان لهم به.. ﴿قالوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَداً * سُبْحانَه * هُوَ الغَنِيّ * إِنْ عِنْدَكُمْ مِنْ سُلْطانٍ بهذا؟ أَتَقولونَ عَلى اللَّهِ ما لَا تَعْلَمون﴾[2].

وقرر القرآن أن المشركين الذين لا يملكون سلطاناً على شركهم، ومع ذلك يُصرّون على شركهم ويجادلون في آيات الله، إنما يفعلون ذلك بسبب الكبر في نفوسهم: ﴿إِنَّ الذّينَ يُجادلونَ في آياتِ اللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطانٍ أَتَاهُمْ * إِنْ في صُدورِهِمْ إِلّا كِبْرٌ ما هُمْ بِبالِغيه﴾[3].

---

(١) سورة الأعراف: آية ٣٣.

(٢) سورة يونس: آية ٦٨.

(٣) سورة غافر: آية ٥٦.

وأَمَرَ اللَّهُ رسولَه محمداً ﷺ أن يـرُد عبادة المشـركين للأصنـام والأوثان، لأنهم لا يملكـون السلطان عليها. . ﴿أفـرَأَيْتُمُ اللاتَ وَالعُـزّى * وَمَناةَ الثـالِثَـةَ الأُخْرى * أَلَكُمْ الذَّكَرُ وَلَهُ الأُنْثى؟ تِلْكَ إِذَنْ قِسْمَـةٌ ضِيزى! إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمـاءٌ سَمَّيْتُموها أَنْتُمْ وآباؤُكُمْ * ما أَنْزَلَ اللَّهُ بها مِنْ سُلْطان * إِنْ يَتَّبِعونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَما تَهْوى الأَنْفُس * وَلَقَدْ جاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الهُدى. . ﴾(١).

إن الكافرين لن يجدوا سلطاناً ولا حجة ولا برهـاناً على مـا هم عليه من الكفر والباطل، ولو أفْنوا أعمارهم، واستغرقوا حياتهم، وأجهدوا عقولهم، وأتعبوا نفوسهم في البحث والطلب والسعي.

إنـه لا سلطانَ ولا بـرهـانَ إلا لحقيقـةٍ واحـدة، وهي حقيقـةُ الألــوهيـة والربوبية لرب العالمين سبحانه، والتزام كل ما صدر عن الله من أوامر وأحكام وحقائق وأسس.

إننا نقول للناس في زماننا، الذين يخرجون عن منهـج الله، ويتَّبعون غيرَ سبيله، ما قالـه أهل الكهف لقـومهم: ﴿هـٰؤُلاءِ قَوْمُنـا اتَّخذوا مِنْ دونـهِ آلِهَة * لَوْلا يَأْتونَ عَلَيْهِمْ بِسُلْطانٍ بَيِّن * فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرى عَلى اللَّهِ كَذِباً﴾.

وإِذِ اعْتَزلتموهم . . .

بعـد أن وصـل الفتيـة أصحـابُ الكهف إلى هــذه المـرحلة من البحث والاهتداء، وبعدما علموا قوَّتَهم وقدرتَهم بالنسبة لقوة قومهم وقـدراتهم، وأنهم عـاجزون عن المـواجهة والتغيير، قرروا اعتـزال القوم، وآثـروا الـذهـاب إلى الكهف، ونـادى بعضهم بعضاً قـائلين: ﴿وَإِذِ اعْتَزَلْتُمـوهُمْ وَمـا يَعْبُـدونَ ــ إِلاّ اللَّه ــ فَـأْووا إلى الكَهْف * يَنْشُــرْ لَكُمْ رَبُّكُمْ مِنْ رَحْمَتِـهِ * وَيُهَيِّءْ لَكُمْ مِنْ أَمْرِكُمْ مِرْفَقاً﴾.

---

(١) سورة النجم: آيات ١٩ ــ ٢٣.

أي: بما أنكم قررتم اعتزالَ قومكم الكافرين، واعتزالَ عبادتهم الباطلة للآلهة من دون الله، فاذهبوا إلى الكهف، وأووا إليه، فهو أفضل مكان للعزلة، وهناك يبسطُ الله عليكم فيه من رحمته، وينشرُها عليكم نشراً، ويهيء لكم ما يصلح لإقامتكم فيه.

متى اعتزلوا قومهم؟

والسؤال الذي يطرح نفسه: متى قرر الفتية المؤمنون اعتزال قومهم؟

والجواب: إنهم قرروا الاعتزال بعد دراسة للواقع الذي يعيشونه، لقد نظروا في قوة قومهم الكافرين، فوجدوهم يملكون كل وسائل القوة والسلطان، ونظروا في أنفسهم فإذا بهم لا يملكون من تلك القوة المادية شيئاً.

وهذا يعني أنهم إذا واجهوا قومهم وحاربوهم، فإن المعركة ستكون غير متكافئة، وستكون نتيجتُها معروفة مسبقاً. إنهم لن ينتصروا فيها، فلماذا يخوضونها؟.

ثم نظروا في موقف قومهم، فإذا بهم مُصرّون على الكفر، لا يسمعون كلمة في الدعوة إلى الإيمان بالله، ولا يستجيبون لصاحب تلك الدعوة. بل سيلجأوون إلى الفتك به، وإيذائه وتعذيبه، وقتلِه وسفك دمه. إذن لا فائدة من الجدال معهم أو دعوتهم.

ونظراً لذلك، فقد علم الفتية المؤمنون أنه لا فائدة من وجودهم مع قومهم، ولا إمكانية للبقاء معهم، بل يُخشى أنه يفتنهم قومهم، وأن يردوهم عن إيمانهم.

فلم يبقَ إلا الاعتزال، والذهاب إلى الكهف، ليعيشوا إيمانهم، ويعبدوا فيه ربهم.

لقد كان قرارُهم بالاعتزال والذهاب إلى الكهف صائباً وصواباً، ويتفق مع حالتهم وواقعهم. ولذلك استجاب الله دعاءهم، وبسط لهم من رحمته، وهيأ لهم في كهفهم مِرْفقاً.

هل نقتدي بهم في العزلة؟

وقد يثير بعض المسلمين تساؤلاً حول اعتزال أهل الكهف لقومهم، فيقول: بما أن أهل الكهف مؤمنون، وأن قرارهم بالعزلة كان صواباً، وقد أثنى عليهم القرآن لموقفهم، أفلا يجوز أن نقتدي بهم في هذا؟ وماذا علينا لو اعتزلنا قومنا، وذهبنا إلى الكهوف والجبال؟ أو اعتزلناهم وأوينا إلى بيوتنا؟

وللإجابة على هذا، نقرر أنه لا يجوز للمسلم أن يعتزل الناس عزلة مادية حسية، لا يتصل بهم ولا يخالطهم ولا يدعوهم ولا ينصحهم. ولا يجوز له أن يقتدي بأهل الكهف في هذا.

من الفروق بيننا وبينهم:

هناك فروق جوهرية بين واقع المسلمين وبين أهل الكهف، وهذه الفروق تمنع أن يُقاس واقع المسلمين على واقع أهل الكهف. ومن هذه الفروق:

١ ـ لأهل الكهف شرعٌ غيرُ شرعنا، وإن شرعهم أجاز لهم اعتزال قومهم، وأعذرهم في عدم تبليغهم، ونحن لا نقتدي بهم في هذا الحكم، والراجح عند الأصوليين أنّ شرع مَنْ قبلنا ليس شرعاً لنا.

٢ ـ شرْعُنا صريح في منع العزلة، وفي وجوب التبليغ والدعوة، وفي القرآن آيات صريحة في ذلك منها:

قوله تعالى: ﴿يا أَيُّها الرَّسولُ بَلِّغْ ما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّك ❊ وَإِنْ

لَمْ تَفْعَلْ فَما بَلَّغْتَ رِسالَتَه * وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاس * إِنَّ اللَّهَ لاَ يَهْدِي القَوْمَ الفاسِقين﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنِّي لَنْ يُجيرَني مِنَ اللَّهِ أَحَد * وَلَنْ أَجِدَ مِنْ دونِهِ مُلْتَحَداً إلاّ بَلاغاً مِنَ اللَّهِ وَرِسالاتِه﴾[2].

إن الإسلام لا ينتشر إلا بمخالطةِ الناس ودعوتهم، وإن المسلم لن يقوم بواجبه، ولن ينجوَ من المساءلة والعذاب، إلا عن طريق الدعوة والتبليغ والبيان.

٣ ـ الرسول ﷺ يحثُّنا على مخالطةِ الناس، والصبرِ على أذاهم، وينهانا عن اعتزالهم.

ونكتفي من توجيهاته حول هذا الأمر بهذا الحديث. فقد روى ابن ماجة عن عبد الله بن عمر ـ رضي الله عنهما ـ قال: قال رسول الله ﷺ: «المُؤْمِنُ الذّي يُخالِطُ النّاس، وَيَصْبِرُ على أذاهُمْ، أَعْظَمُ أَجْراً مِنَ المُؤْمِنِ الذّي لا يُخالِطُ النّاس، وَلا يَصْبِرُ عَلَى أَذاهُمْ»[3].

إن مخالطة الناس تكون من أجل نُصحهم وتذكيرهم، ولا يجوز أن تكون على حساب الدين والتقوى والطاعة، فلا يجوز للمسلم أن يتفلّت من دينه، أو يتخلى عن مبادئه، أو يمارس المنكرات والمحرمات، بحجة مخالطة الناس.

وكم كان الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود ـ رضي الله

---

(١) سورة المائدة: آية ٦٧.

(٢) سورة الجن: آيات ٢١ ـ ٢٢.

(٣) ابن ماجة كتاب (٣٦) الفتن. باب (٢٣) الصبر على البلاء، حديث ٤٠٣١.

عنه ـ دقيقاً وذكياً وموضوعياً ومتوازناً عندما قال: «خالِطِ النَّـاسَ، وَدِينَكَ لا تَكْلِمَنَّهْ»(١).

والكَلْم هو الجرح.

أي خالط الناس بتوازن وتناسق، فإياك أن تَكْلِم دينك وتجرحـه، من خلال ارتكاب المحظور، وفعل المنكر، وترك الواجب.

٤ ـ ثم هناك فرق رابـع بيننا وبين أهل الكهف، وهـو الواقـع الـذي نعيشه، لقـد كانـوا يعيشون بين قـوم كافـرين، مصـرِّين على كفـرهم، رافضين الدعوة والنصح، فكان لا بد من الاعتزال.

أمـا نحن فـإننا نعيش وسط أنـاس مسلمين ـ غالبـاً ـ توجَـد بيننا وبينهم مادةٌ مشتركة ـ وهي الإسلام ـ يمكن أن ننطلقَ معهم منها، وأن نبنيَ عليهـا، وأن نعيـدهم من خـلال المخـالـطة، إلى دائـرة الالتـزام والطاعة.

بين العزلة المادية والعزلة الشعورية:

على أنه من الواجب أن نشيـر هنا إلى العـزلة الشعـورية، والفـرق بينها وبين العزلة الحسية المادية.

العزلة الحسية المادية هي أن تغادر الناس، وتعتزلهم بجسمـك وبدنـك وحياتك، وتختار أن تعيش في عقر بيتك أو في الكهوف والجبـال. وعرفْنـا أن هذا لا يجوز.

أما العزلة الشعـورية، فهي المخالـطة للناس، مـع التميـز عنهم بالفكـر

---

(١) رواه البخاري ـ تعليقاً ـ في كتاب (٧٨) الأدب، باب (٨١) الانبسـاط إلى الناس، في ترجمة الباب.

والتصور، والأخلاق والسلوك، هي أن تعتزل ما هم عليه من الباطل بشعورك وتصوُّرك، وأن لا تأخذ إلا من إسلامك، وبهذا تخالطهم لتؤثر فيهم، وأنت في مناعة عن التأثر بهم!

بين ضيق الدنيا وسعة الكهف:

قرر الفتية المؤمنون اعتزالَ قومهم، وأووا إلى الكهف، آملين أن ينشر عليهم ربهم من رحمته، واستجاب الله لهم، وحقق لهم أملهمورجاءهم، فنشر عليهم في الكهف من رحمته.

وإن الإنسان ليعجَب من هذه اللقطة:

لقد ضاقت على أولئك الفتية المؤمنين، الدنيا الواسعةُ العريضةُ التي كانوا يعيشونها مع قومهم الكافرين. ضاقت عليهم على سَعتها، لأنها خالية من الإيمان، ضاقت بهم لأنها امتلأت كفراً بالله.

وتضيق الدنيا والحياة، عندما تخلو من الإيمان، وعندما يعمها الكفر والفسوق والضلال. فيراها المؤمن ضيقة، تكاد تكتم أنفاسه.

أما الكهف ـ الضيق ـ فقد اتَّسَع من حولهم، فأحسّوا أنه واسع عريض، فمن أين جاء هذا الإحساس؟.

إنه إحساس حقيقي، وليس وهماً أو تسلية أو ظناً، إن المؤمن يشعر بأُنس وراحة وانشراح، عندما يمارس إسلامه ويعيش حقائق إيمانه.

وهذا ما وجدوه في الكهف. لقد عاشوا داخلَه مؤمنين، وتذوقوا فيه لذة العبادة، وأنس المناجاة، وحلاوة الإيمان، فشعروا بسَعته.

إن التي جعلت كهفهم واسعاً هانئاً ميسَّراً للحياة، هي رحمة الله التي طلبوها، فاستجاب لهم، ونشرها عليهم ﴿ينشر لكم ربكم من رحمته﴾.

لقد نشر عليهم ربهم من رحمته، فملأتْ عليهم كهفهَم، فعاشوا بها

سعداء هانئين. وصدق الله القائل: ﴿ما يَفْتَحِ اللَّهُ لِلنّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلا مُمْسِكَ لَها * وَما يُمْسِكْ فَلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ﴾[1].

ما أقسى الحياة بدون رحمة، وما أضيق الدنيا بدون رحمة. إن الرحمة الربانية الحانية ما نُشِرتْ على شيء إلا سهَّلتْه وهيأتْه وجعلته هانئاً صالحاً للحياة، وإن الرحمة الربانية الحانية، ما شملت مؤمناً إلا جعلتْه هانئاً سعيداً مسروراً، يعيش حياته بعزة وكرامة وسعادة وهناء.

سيد قطب يتحدث عن أثر رحمة الله:

لقد تحدث سيد قطب عن أثر رحمة الله على الحياة عندما تتخللها، وعلى الدنيا عندما تُنشر عليها، وعلى المؤمن عندما تغمره. كما تحدث عن أثر الحياة بدون تلك الرحمة.

وكان من ما قاله: «وما من نعمة يُمسك الله معها رحمته، حتى تنقلب هي بذاتها نقمة، وما من محنة تَحفُّها رحمة الله، حتى تكون هي بذاتها نعمة. ينام الإنسان على الشوك مع رحمة الله، فإذا هو مِهاد، وينام على الحرير وقد أمسكت عنه، فإذا هو شوك القتاد. ويعالج أعسر الأمور برحمة الله فإذا هي هوادة ويسر. ويعالج أيسرَ الأمور، وقد تخلت رحمة الله فإذا هي مشقة وعسر. ويخوض بها المخاوف والأخطار فإذا هي أمن وسلام. ويعْبُر بدونها المناهج والمسالك فإذا هي مهلكة وبوار.

ولا ضيق مع رحمة الله، إنما الضيق في إمساكها دون سواه. لا ضيق ولو كان صاحبها في غياهِب السجن، أو في جحيم العذاب، أو في شعاب الهلاك، ولا سعة مع إمساكها ولو تقلب الإنسان في أعطاف النعيم، وفي مراتع الرخاء.

---

(١) سورة فاطر: آية ٢.

فمن داخل النفس برحمة الله تتفجر ينابيع السعادة والرضا والطمأنينة، ومن داخل النفس مع إمساكها تدب عقارب القلق والتعب والنصب والكد والمعاناة»[1].

ثم يعرض نماذجَ لأنبياء وصالحين فتح الله عليهم ما فتح من رحمته، فغيرت ما حولهم إلى سَعَةٍ ويُسر:

«ورحمة الله لا تُعَزّ على طالب في أي مكان، ولا في أي حال. وجدها إبراهيم عليه السلام في النار، ووجدها يوسف عليه السلام في الجُبّ ثم في السجن. ووجدها يونس عليه السلام في بطن الحوت في ظلمات ثلاث. ووجدها موسى عليه السلام في اليم، وهو طفل مجرد من كل قوة ومن كل حراسة، كما وجدها في قصر فرعون، وهو عدوٌّ له متربص به يبحث عنه.

ووجدها أصحاب الكهف في الكهف، حين افتقدوها في القصور والدور، فقال بعضهم لبعض: «فأْووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته» ووجدها رسول الله ﷺ وصاحبه في الغار، والقوم يتعقبونَهما ويقصّون الآثار. ووجدها كل من آوى إليها يأْساً من كل ما سواها، منقطعاً عن كل شبهة في قوة، وعن كل مظنَّة في رحمة، قاصداً باب الله وحده دون الأبواب»[2].

ويذكر تجربة له في التعامل معها:

لقد تعامل سيد قطب مع رحمة الله تعاملاً حياً، وعاشها حقيقة حياتية واقعية، ورأى كيف تكون الحياة مع الرحمة. وذكَرَ لنا تجربتَه العملية الحية معها. فقال: «ويبقى أن أتوجَّه أنا بحمد الله على رحمةٍ منه خاصة، عرفتُها منه في هذه الآية.

---

(١) الظلال ٥: ٢٩٢٢.

(٢) المرجع السابق ٥: ٢٩٢٣.

لقد واجهتْني هذه الآية في هذه اللحظة، وأنا في عُسر وجهد وضيق ومشقة. واجهتْني في لحظة جفافٍ روحي، وشقاءٍ نفسي، وضيقٍ بضائقة، وعسر من مشقة. واجهتْني في ذات اللحظة. ويسَّر الله لي أن أطلع منها على حقيقتها. وأن تسكب حقيقتها في روحي، كأنما هي رحيقٌ أرشفه، وأحس سريانَه ودبيبَه في نفسي. حقيقة أذوقها لا معنى أدركُه. فكانت رحمةً بذاتها، تقدِّم نفسَها لي تفسيراً واقعياً لحقيقة الآية التي تفتحتْ لي تفتحها هذا.

وقد قرأتُها من قبل كثيراً، ومررتُ بها من قبل كثيراً. ولكنها اللحظة تسكب رحيقَها وتحقق معناها، وتنزل بحقيقتها المجردة، وتقول: هانذا نموذجاً من رحمة الله حين يفتحها، فانظر كيف تكون!.

إنه لم يتغير شيء مما حولي، ولكن لقد تغير كل شيء في حسي. إنها نعمة ضخمة، أَنْ يتفتح القلبُ لحقيقة كبرى من حقائق هذا الوجود، كالحقيقة الكبرى التي تتضمنها الآية...»[1].

موقع الكهف:

كان من تيسير الله للفتية المؤمنين، الكهفُ الذي ألهمهم باللجوء إليه، وقد أشار القرآن إلى موقع الكهف، وإلى الآيات التي كانت فيه، وإلى الجنود الربانيين الذين سُخِّروا لخدمتهم وتيسير إقامتهم فيه: ﴿وَتَرى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِمْ ذاتَ اليَمين * وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمَال * وَهُمْ في فَجْوَةٍ مِنه * ذٰلِكَ مِنْ آياتِ اللهِ﴾.

وقد استدل الإمام ابن كثير بالآية على أن باب الكهف كان نحو الشمال، فقال: «فهذا فيه دليلٌ على أن باب هذا الكهف كان من نحو الشمال. لأنه تعالى أخبر أن الشمس إذا دخلتْه عند طلوعها، تَزاور عنه ذات

(١) الظلال ٥: ٢٩٢٤.

اليمين، أي يتقلص الفيء يمنة من خلال ميلان الشمس، وذلك أنها كلما ارتفعت في الأفق تقَلَّص شُعاعها بارتفاعها، حتى لا يبقى منه شيء عند الزوال في ذلك المكان. ـ ولهذا قال: «وَإِذا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمال» أي تدخل إلى غارهم من شمال بابه، وهو من ناحية الشرق، فدل على صحة ما قلناه»[1].

وإذا كُنا نُوافق الإمامَ ابن كثير على استدلاله بالآية على موقع الكهف، فإننا لا نوافقه على أن الشمس تدخل الكهف من شمال بابه عند الغروب. لأن الآية أخبرتْ أن الشمس تَقْرِضُهم عند غروبها ذات الشمال. ومعنى تقرضهم: تبتعد عنهم وتعدل عنهم. فإن القرْض معناه: القطع.

قال مجاهد: تقرضهم: تتركهم.

وقال قتادة: تقرضهم: تَدَعُهم.

وقال النحاس: القَرْض القطع والترك، وهذا معروف في اللغة.

وقال القرطبي: والمعنى أنهم كانوا لا تصيبهم شمس البتة كرامة لهم. وهو قول ابن عباس»[2].

ذلك من آيات الله:

ذهب جمهور المفسرين إلى أن الشمس كانت لا تصيبهم عند الشروق وعند الغروب، نظراً لموقع الكهف وبابه الذي كان جهة الشمال، وحول هذا المعنى، يقول الإمام ابن كثير: «وهذا بيِّن لمن تأمله، وكان له علم بمعرفة الهيئة، وسير الشمس والقمر والكواكب.

وبيانه أنه لو كان باب الغار من ناحية الشرق، لما دخل إليه منها شيء

---

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير ٣: ٧٥.

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ١٠: ٣٦٩.

عند الغروب. ولو كان من ناحية القبلة لما دخل منها شيء عند الطلوع ولا عند الغروب، ولا تَزَاوَرَ الفيء يميناً ولا شمالاً، ولو كان من ناحية الغرب لما دخلتْه وقت الطلوع بل بعد الزوال، ولم تزل فيه إلى الغروب»(١).

ونذكِّر بأننا لسنا مع ابن كثير في فهمه لحركة الشمس، وأَنها تدخل كهفهم عند الشروق وعند الغروب. لأن الراجح من كلمات الآية، أن الشمس كانت لا تدخل الكهف البتة، لا عند الصباح ولا بعد الزوال ــ والله أعلم ــ.

وقد اعتبر القرآن موقعَ الكهف وحركةَ الشمس حوله، من آيات الله، فقال: ﴿ذٰلِكَ مِنْ آياتِ الله﴾.

ومعنى كون هذا من آيات الله: أن الله هو الذي قدَّر لهم أن يأْووا إلى ذلك الكهف، وألهَمهم أن يلجأوا إليه، وشاء سبحانه أن يكون الكهف في ذلك الموضع، وأن تكونَ حركة الشمس حوله بتلك الكيفية.

لكن للزجاج فهمٌ آخر للآية. حيث يرى «أن فعل الشمس كان آيةً من الله، دون أن يكون باب الكهف إلى جهة توجب ذلك»(٢).

أي أن الشمس كان من الممكن أن تدخل الكهف، لو تُرِكَ الأمر على طبيعته، ولكن الله أمرها بأن تتقاصر عنهم، وتزاور عنهم في الصباح، وتبتعد عنهم بعد الظهر، فلو لم يأمرها الله بذلك لدخلت الكهف!.

لكن الأرجح ما ذهب إليه جمهور المفسرين ــ والله أعلم.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٥.

(٢) تفسير القرطبي ١٠: ٣٦٩، وقد قال برأي الزجاج ونصره ورد الآخر الإمام الشنقيطي في أضواء البيان ٤: ٣٣ ــ ٣٤.

تصوير وضْعهم داخل الكهف:

صوَّر القرآن الكريم وضْعَهم داخل الكهف تصويراً دقيقاً حياً مؤثِّراً بحيث نكاد نراهم ونحس بهم. وهذا من حيوية التصوير القرآني المعجز الفريد.

قال تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُمْ أَيْقاظاً * وَهُمْ رُقود * وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليَمين وذَاتَ الشِّمال * وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالوَصِيد * لَو اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُم فِراراً * وَلَمَلِئْتَ مِنْهُمْ رَعْباً﴾.

في الآية السابقة إشارةٌ إلى تقدير الله لهم في الكهف، بحيث كان مناسباً لهم، وفي هذه الآية إشارةٌ إلى تقدير الله لهم وهم نائمون مقيمون داخل الكهف، بحيث يبقى حافظاً لهم بإذن الله.

وهذا التقدير الرباني تمثل في أمور. منها:

١ ـ جعَلهم ينامون في الكهف سنين طويلة، على أن لا تأكلَ الأرضُ أجسادهم، ولا تبلى حواسُّهم، ولا يقترب أحد منهم.

٢ ـ وحتى يتحقق ذلك كانت عيونهم مفتوحة الأحداق رغم أنهم نائمون. وذلك لئلا تفسد وتبلى، وكونُها مفتوحة ليدخل إليها الهواء، فيكون هذا أبقى لها.

٣ ـ وهناك هدفٌ آخر من بقاء عيونهم مفتوحة، هو المتمثل في قوله: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً * وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ إنها لإخافة الناظر إليهم، فلا يمدُّ يده إليهم بسوء، إنه عندما ينظر إليهم يرى عيونهم مفتوحة، وكأنها تحدق به وتنظر إليه، فيولِّي منهم فراراً.

٤ ـ وحتى لا تأكل الأرض أجسادَهم، كان التقليب لهم: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليَمين وذَاتَ الشِّمال﴾.

واختيار الفعل المضارع «نُقَلِّبُهُمْ» الذي يدل على التجدد والاستمرار، يدل على أن التقليبَ كان دائماً مستمراً، وليس مجردَ مرتيْن في العام كما قال بعض السابقين.

وإسناد التقليب إلى الله، يدل على أنه فعلُ الله وقدَرُه وأمره، ولا ينفي هذا أن يكلِّف الله ملَكاً من ملائكته ليقوم بالتقليب.

٥ ــ ومن كمال الاعتناء بهم وحفظهم، قدَر الله أن يكون كلبهم على عتبة الباب، حيث جَلَس على عتبة الباب وبَسَط ذراعيه ونام. وحركتُه ثابتة مستقرة، فلم يشمله التقليب، لأن «باسط» اسم فاعل، وهو يفيد الثبات والاستقرار على حالة واحدة، ومَنْ هو الذي يجروء على الاقتراب منهم وإيذائهم، وكلبهم حارس لهم بالوصيد؟.

٦ ــ إلقاءُ الرعبِ والخوفِ في قلب كل من يفكر بإيذائهم والاعتداء عليهم، بحيث يولِّي منهم فراراً.

التصوير الدقيق للكهف ووضْعهم فيه دليل على مصدر القرآن:

نلاحظ أن القرآن عَرَض لنا تفصيلات دقيقة ــ على طريقته التصويرية المعجزة ــ عن الكهف وموقعه وحركة الشمس معه، وعن الفتية داخله.

وقد اعتبر العلماء هذه التفصيلات القرآنية، دليلاً على مصدر القرآن، وحجةً على أنه من عند الله، وليس من عند محمد ﷺ.

ووجهُ الاستدلال بذلك. أن الرسول عليه الصلاة والسلام سُئل عن أهل الكهف، فجاء الجواب بهذه التفصيلات. وهذه التفصيلات لم تُذكر في التوراة ولا في الإنجيل حيث يُنفىٰ احتمال أخذها عن تلك الكتب.

ومعلوم أن الرسول ﷺ لم يَرَ الكهف في حياته، ولم يقف عليهم داخلَه، وبهذا يُنفىٰ احتمال أن يكون قد استوعب تلك التفصيلات، ثم صاغها من عنده.

فكيف عَرَفَ الرسول ﷺ بتلك التفصيلات التي لم يعرْفها أحد من البشر، ولم يأخذها عن أحد من البشر؟.

لا يَبقى إلا أن الله سبحانه ـ العليم الخبير ـ هو الذي أوحى لرسوله عليه السلام بها، وبهذا يَثْبت مصدر القرآن، وأنه من عند الله.

قال الإمام السهيلي في الرَّوْضِ الأُنُف: «والفائدةُ العظمى من هذه الصفات، أن هذا البيان لا يكاد يعرفه من رآهم، فإن المطَّلع عليهم يُملأ منهم رعباً، فلا يمكنه تأمل هذه الدقائق من أحوالهم. والنبي ﷺ لم يَرَهم قط، ولا سمع بهم، ولا قرأ كتاباً فيه صفتُهم لأنه أمّيّ في أمّة أمّية، وقد جاءكم ببيان لا يأتي به مَنْ وصل إليهم. لولا الوحي الذي جاءه من الله سبحانه بالبيان الواضح الشافي، والبرهان الكافي»[1].

كلبهم تناله بركتهم:

لم يُغفل القرآن ذكرَ الكلب الذي رافقهم، وتصويرَ وضعه وهو باسط ذراعيه بالوصيد.

وقد يتساءل بعضهم عن الحكمة من ذكر كلبهم معهم.

ولعل الحكمة في ذلك، هي الإشارة إلى مصدر القرآن ـ كما قلنا قبل قليل ـ فكيف سيعرف رسولُ الله ﷺ، أن الكلب باسطٌ ذراعيه بالوصيد لولا الوحي؟

وقد ذكر العلماء أن كلبَهم نالتْه بركتُهم بصحبته لهم:

قال الإمام ابن كثير: «وشملت كلبَهم بركتُهم، فأصابه ما أصابهم من

---

(١) الروض الأنف للسهيلي ٣: ١٦٥ ـ ١٦٦ باختصار.

النوم على تلك الحالة. وهذه فائدة صحبة الأخيار، فإنه صار لهذا الكلب ذكرٌ وخبر وشأن»[1].

وقال الإمام القرطبي: «إذا كان بعضُ الكلاب قد نال هذه الدرجة العليا، بصحبته ومخالطته الصلحاء والأولياء، حتى أخبر الله تعالى بذلك في كتابه، فما ظنُّك بالموحِّدين المؤمنين المخالِطين المحبين للأولياء والصالحين، بل في هذا تسليةٌ وأُنس للمؤمنين المقصِّرين عن درجات الكمال، المحبين للنبي ﷺ..»[2].

وعند إمعان النظر في الآيات، فإننا نجد فرْقاً بين الإخبار عن الفتية، والإخبار عن كلبهم.

أما هم فقد كانوا يقلَّبون ذات اليمين وذات الشمال، بينما لم يشمل التقليبُ كلبهم، حيث بسط ذراعيه بالوصيد، ونام على هذه الكيفية.

وقد حاول الإمام السهيلي استخراجَ حكمة من عدم تقليب الكلب، فقال: «إن التقليب كان من فعل الملائكة بهم، والملائكة أولياء المؤمنين في الحياة الدنيا وفي الآخرة، والكلبُ خارجٌ من هذه الآية. ألا تراه قال: بالوصيد. أي: بفناء الغار، لا داخلاً معهم، لأن الملائكة لا تدخل بيتاً فيه كلب!»[3].

وتبدو حكمةٌ غيرَ هذه، وهي إشارة إلى قدرة الله على حفظ النائمين، وهذه القدرة الربانية غيرُ محكومة بالأسباب. فالفتية حفظهم الله عن طريق التقليب، فلم تأكل الأرض أجسادهم. بينما حفظ الله كلبهم بدون تقليب، فلم تأكل الأرض جسده، رغم استقراره فوقها بدون حراك ثلاثمائة وتسع سنوات!!

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٦.
(٢) تفسير القرطبي ١٠: ٣٧١ ـ ٣٧٢.
(٣) الروض الأنف ٣: ١٦٦ ـ ١٦٧.

تصرُّف الفتية بعد بعثهم من نومهم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ * قَالَ قَائِلٌ مِنْهُمْ كَمْ لَبِثْتُمْ؟ قالوا لَبِثْنَا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ * قالوا: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

بعث الله أهل الكهف من رقدتهم التي استمرت ثلاثمائة وتسع سنوات، وهناك لفتةٌ لطيفة من تعبير القرآن عن استيقاظهم بالبعث ﴿كَذَٰلِكَ بَعَثْنَاهُمْ﴾ لأن الأمر كان شبيهاً ببعث الأموات من قبورهم! وإلا فهل من الممكن أن ينام إنسان أكثر من ثلاثمائة سنة ويبقى محتفظاً بجسمه، ويستيقظ بعد ذلك من نومه؟ إنها معجزة ربانية ظاهرة، تدل على قدرة الله سبحانه الطليقة وإرادته النافذة.

كما يفيد التعبير بالبعث، أنهم احتفظوا بأجسامهم وحواسهم وشعورهم وملابسهم، لم يُنقَص منها شيءٌ.

﴿بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾ هذه اللام هي لام العاقبة. بمعنى أنه نتج عن بعثهم تساؤلهم فيما بينهم.

تساءلوا عن مدة لبثهم في الكهف. فقال قائل منهم: كم لبثتم نياماً في الكهف؟ فأجابه أحدهم قائلاً: لبثْنا يوماً أو بعض يوم! فلعلّنا نمنا يوماً كاملاً، أو جزءاً من اليوم.

هذا ما كانوا يتوقعونه، فكل ما حولهم في الكهف يوحي بهذا، ولا يدل أنّ نومهم كان طويلاً، فلم يَفْسد ولم يَبل ولم يتغير شيء مما حولهم.

ويبدو أن بعضهم اعتبر تلك الإجابة غيرَ دقيقة، وعلموا أنهم عاجزون عن تقدير مدة لبثهم، فأوكلوها إلى الله وقالوا: ﴿رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثْتُمْ﴾.

ونأخذ من موقفهم هذا درساً وعبرة، بحيث لا نُتعب أنفسنا في الخوض فيما لا نملك الوسائل اليقينية السليمة الهادية، للخوض فيه، لأن هذا يُعتبر

مضيعةً للوقت والجهدِ والفكر، فعلينا أن نَكِل ذلك إلى الله وعلمهِ سبحانه، ونقول فيما لا نملك الخوض فيه: الله أعلم به.

دلالات مما أوصُوا به مبعوثهم إلى المدينة:

﴿قالوا: رَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِما لَبِثْتُمْ.

فَابْعَثُوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ هٰذِهِ إلى المَدِينَةِ * فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً * فَلْيَأْتِكُمْ بِرِزْقٍ مِنْه * وَلْيَتَلَطَّفْ * ولا يُشْعِرَنَّ بِكُمْ أَحَداً * إِنَّهُمْ إِنْ يَظْهَروا عَلَيْكُمْ يَرْجُموكُمْ أَوْ يُعيدوكُمْ في مِلَّتِهِم * وَلَنْ تُفْلِحوا إِذَنْ أَبَداً﴾.

ويتضمن هذا التوجيه الذي وجَّهوا به مبعوثهم إلى المدينة عدة دلالات وإيحاءات وإشارات. نشير إلى بعضها فيما يلي:

أولاً: جواز الوكالة:

أخذ بعض العلماء من قول أصحاب الكهف: ﴿فَابْعَثوا أَحَدَكُمْ بِوَرِقِكُمْ﴾ دليلاً على جواز الوكالة في الإسلام. ووجه الاستدلال، أنهم وكَّلوا أحدهم لشراء ما يحتاجون إليه من المدينة، وأعطوه أموالهم من أجل ذلك.

قال الإمام الشنقيطي في أضواء البيان: «جوازُ الوكالة وصحتُها. لأن قولهم ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم﴾ يدل على توكيلهم لهذا المبعوثِ لشراء الطعام.

وقال بعض العلماء: لا تدل الآية على جواز التوكيل مطلقاً، بل مع التقية والخوف، لأنهم لو خرجوا كلهم لشراء حاجتهم لعلم بهم أعداؤهم في ظنهم. فهم معذورون. فالآية تدل على توكيل المعذور دون غيره.

وإلى هذا ذهب أبو حنيفة وهو قول سحنون من أصحاب مالك في التوكيل عن الخصام»[1].

---

(١) أضواء البيان ٤: ٤٥.

وقد اعتبر الشنقيطي هذه اللفتة حول الوكالة، مناسبة ليقول في الوكالة والشركة، ويتحدث عن مسائلهما وأدلتهما ومباحثهما، حيث خصص لها ثلاثين صفحة من أضواء البيان[1].

ونرى أن الاستدلال بهذا على صحة الوكالة في ديننا فيه نظر، لأن الراجح أن شرع مَنْ قَبْلنا ليس شرعاً لنا.

كما نرى أن استطراد الإمام الشنقيطي للوكالة والشركة، خروجٌ عن البقاء مع إيحاءات النص في التفسير.

ثانياً: جواز الشركة:

أورد الشنقيطي استدلال بعض المالكية من قول أهل الكهف ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم﴾ على صحة وجواز الشركة. فقال: «أورد بعض المالكية من هذه الآية الكريمة جوازَ الشركة، لأنهم كانوا مشتركين في الوَرِق ـ أي الفضة ـ التي أرسلوها ليشتريَ لهم الطعام بها.

وقال ابن العربي المالكي: لا دليل في هذه الآية على الشركة لاحتمال أن يكون كلُ واحد منهم أرسل معه نصيبه منفرداً، ليشتري له به طعامه منفرداً.

وعلق الشنقيطي على كلام ابن العربي: وهذا الذي ذكره ابن العربي مُتَّجِه كما ترى»[2].

ونعلِّق نحن على هذا الاستدلال والخلاف بأنه لا داعي له، لأن شرع من قبلنا ليس شرعاً لنا. وعندنا من النصوص والأدلة على جواز الشركة ما يكفينا.

---

(١) انظر أضواء البيان ٤: ٤٥ ـ ٧٥.

(٢) المرجع السابق ١٠: ٥٠.

ثالثاً: البحث عن الطعام الحلال الزاكي:

كلَّفوا مبعوثهم إلى المدينة بـالنظر والبحث، وإحضـار الطعـام، الحلال ﴿فَلْيَنْظُرْ أَيُّها أَزْكى طَعاماً﴾.

إن فعل «فلينظر» يـدل على وجوب النـظر والبحث والتحري، وإحسـان الاختيـار، وهذا ألـزم ما يكـون عند انتشـار الحرام، وسيـادة الجـاهليـة، وقلة الحلال، فإن المسلم مطالب في هذه الحالة بالنظر والبحث عن الحـلال، وأن لا يختار الحرام.

أما كلمة «أزكى طعاماً» فـإنها تقـدم لنا لفتـة قرآنيـة بديعـة حول الـطعام الزاكي.

معنى أَيُّها أَزْكى طَعاماً، أيها أحلُّ طعاماً ــ كما قال ابن عباس.

وهنـاك من قال: أزكى طعـاماً: أطيب طعـاماً. ومنهم من قـال: أرخص طعاماً، ومنهم من قال: أكثر طعاماً.

وقد رجـح الإمام ابن كثير الأول «والصحيـح الأول. لأن مقصودهم إنما هو الطيب الحلال، سواء كان قليلاً أو كثيراً»[(١)].

رابعاً: القرآن والذوق العام في الطعام:

ونأخذ من قولهم «أيُّها أزكى طعاماً» إشارة أخرى. حيث أرادوا بـالأزكى طعاماً: الأحل الأطيب طعاماً.

الزكاة هنا توحي بالطهارة والنماء، والفضل والبركة.

إن القرآن يريد منا، أن تكون أذواقنا وأمزجتُنا في اختيار أصناف الـطعام واللباس، ملتزمةً بتوجيهات الإسلام، ومبادىء الحلال والحرام.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٧.

وهـذه القضية تُشَـوِّهها الجـاهلية، ويلَوِّثهـا أصحابهـا الجـاهليـون، لأن أذواقهم وأمزجتهم مريضةٌ ومشوَّهَة ومزوَّرة.

إن الطعام المفضَّل عندهم الذي يعتبرونه الأزكى طعاماً، هو المتفق مـع أحـدث أسـاليب الـطهي والإعـداد والأكـل، وهم يُقْصـون العـامـل الـديني، ولا يبقونه في دائرة الحلال والحرام.

وإن مما يؤسف له أن تصـل هذه النـظرة الجاهليـة للأزكى طعـاماً، إلى بعض المسلمين، حيث يرفضون إقحام الحلال والحرام في الطعام، ويعتبرونـه متناقضاً مـع الذوق السليم والمزاج الصائب، في اختيار الأزكى طعاماً.

إن الأزكى طعاماً في الحياة، هو الأطيب والأحلّ، وإن الأزكى لباسـاً في الحياة هو المتفق مـع توجيهات الإسلام. وإن الطعام الحرام واللباس الحرام، هو الأخبث والأسوأ.

وإن ذوق المسلم الذي يرفعـه ويُهذِّبـه القرآن، وإن مـزاجه الـذي يقوده ويسيِّره الإسلام، يرفض الطعام الحرام واللباس الحرام، لأنـه يعتبره في دائـرة الخبيث السيء المرفوض.

كل طعام حلال فهو الـزاكي، وكل طعـام حرام فهو خبيث، وكل لبـاس حلال فهو الزاكي، وكل لباس حرام فهو خبيث.

وإن هـذه الإشارة القـرآنية لتـدعونـا إلى الالتفـات إلى إشـارات القـرآن وإيحـاءاته ولـطائفه، وإلى استخـراج بعض الأدلة الصـائبة منهـا. وإن القرآن ليحوي إشاراتٍ منـوعة، ولفتـات شاملة، في مختلف مجـالات الحياة، المهم أن نعرف كيف نلتفت إليها ونستخرجها ونتعامل معها.

خامساً: «وليتلطَّفْ»:

أوصى الفتيـة مبعوثهم بـأن يتلطف. يتلطف مـع أهـل المـدينـة عنـدمـا يقابلهم، وعندما يشتري منهم.

وتلطفُه بأن يكون سمحاً هيناً ليناً، سهلاً ميسِّراً.

وتوصيتهم له بالتلطف، التفات ذكي منهم إلى أهمية اللُّطف واليسر والسماحة في الحياة، وفي الاتصال بالناس والتعامل معهم، وفي البيع والشراء.

وهي لفتة ضرورية لكل مسلم، ووصيةٌ هامة له، إن حياته لن تستقيم إلا بالتلطف، وإن علاقته مع الآخرين لن تتوثق إلا بالتلطف، وإن تعامله معهم في مختلف مجالات العمل ومرافق الحياة، لن ينجح إلا بالتلطف.

وشتان بين رجل لطيفٍ مع الناس، وبين رجل آخر سيء نكدٍ، حادٍّ عصبيٍّ المزاج.

واللطفُ واليسر والسماحة واللين، ملازمةٌ للخلق الحسن، والنفس الراضية، والطبيعة الهادئة، وهذه أمور يمكن أن تحصل بالتجربة والمجاهدَة، والمران والدربة، فالحلم بالتَّحلُّم واللطف بالتلطُّف.

وقد أشار القرآن إلى فضيلةِ اللطف، وأهميةِ السماحة واليسر، ونعمةِ اللين مع الناس، عندما امتنَّ الله على رسوله ﷺ بذلك الخُلُق النبوي الكريم، فقال له: ﴿فَبِما رَحْمَةٍ مِنَ اللَّهِ لِنْتَ لَهُمْ * وَلَوْ كُنْتَ فَظَّاً غَليظَ القَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ * فَاعْفُ عَنْهُمْ * وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ * وَشاوِرْهُمْ في الأَمْر﴾[1].

وحثَّنا رسول الله ﷺ في أحاديث كثيرة على التلطف والرفق واللين مع المسلمين.

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٥٩.

منهـا ما رواه مسلم عن جـرير بن عبـد الله رضي الله عنه عن النبـي ﷺ قال: «مَنْ يُحْرمِ الرِّفْقَ، يُحْرمِ الخَيْرَ كُلَّه»[1].

ومنها ما رواه مسلم عن عـائشة أن رسـول الله ﷺ قال: «يا عائِشَـة: إنَّ اللَّهَ رَفيقٌ يُحِبُّ الرِّفْق، وَيُعْطي عَلى الرِّفْق ما لا يُعْطي على العُنْف»[2].

إنهـا دعوة إلينـا، من أصحاب الكهف ومن القـرآن ومن رسول الله ﷺ، كي نتلطف في حيـاتنا، نتلطفَ في أقـوالنا وأعمـالنا، وحيـاتنـا وارتبـاطـاتنـا، وصِـلاتنا وتعـاملنا. عنـدها نجـد الحياةَ راحـةً وسعادة، وبـركة وهنـاء، ونجـد الصلات مـع الآخرين يسراً وليناً وخيراً.

وصدق الله حيث يقول: ﴿وَقُولوا لِلنّاسِ حُسْناً﴾[3].

وحيث يقـول: ﴿وَلا تَسْتَـوي الحَسَنَـةُ وَلاَ السَّيِّئَة * إدْفَـعْ بِـالتّي هِيَ أَحْسَن * فَإذا الذّي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَداوةٌ كَأَنَّـهُ وَليٌّ حَميم * وَما يُلَقَّـاهَا إلاَّ الـذّينَ صَبَروا * وَما يُلَقّاها إلاّ ذُو حَظٍّ عظيم﴾[4].

سادساً: إخفاء أمرهم على قومهم:

وممـا أوصى بـه أهـلُ الكهف مبعـوثَهم، أن يُخفي أمـره وأمـرهم على قـومهم: ﴿وَلا يُشْعِـرَنَّ بِكُمْ أَحَـداً * إنَّهُمْ إنْ يَـظْهَـروا عَلَيْكُمْ يَـرْجُمـوكُمْ أَوْ يُعيدوكُمْ في مِلَّتِهِم * وَلَنْ تُفْلِحوا إذَنْ أَبَداً﴾.

طلبـوا منه من قبـل، أن يتلطف، ومن ذلـك: التلطفُ في حـركتـه وفي قـدومه للمـدينة، وفي شـرائه، وفي تصـرُّفه، وفي عـودته، بحيث يُخفي أمـره عليهم، فلا يشكُّون فيه، ولا يرتابون في أمره، ولا يلاحقونه ويتعقبونه.

---

(١) رواه مسلم في (٤٥) كتاب البر والصلة، باب (٢٣) فضل الرفق، حديث ٢٥٩٢.
(٢) رواه مسلم في كتاب البر والصلة، باب الرفق، حديث رقم ٢٥٩٣.
(٣) سورة البقرة: آية ٨٣.
(٤) سورة فصلت: آيات ٣٤ ــ ٣٥.

وعلَّلوا هـذا التخفي والتلطف والإسـرار، بـأن قـومهم إنْ عـرفـوا بهم، واكتشفـوا أمرهم، ووصلوا إلى كهفهم، وظهـروا عليهم، فإنهم سيـرجمـونهم أو يقتلونهم، أو سيعيـدونهم في دينهم الباطـل وملتهم المنحـرفـة، ويجعلونهم يكفرون بالله، ويشركون معه غيره، وبهذا لن يفلحوا أبداً.

ونفهم من هذا أن أهل الكهف كانوا حـريصين على إخفاء أمـرهم، وأن لا يشعر بهم قومهم، ولذلك يريدون التخفي عن عيونهم.

وهـذا يشير إلى مشـروعية إخفـاءِ الدعـاة تنـظيمهم عن قـومهم، وجـوازِ إسرارهم بحركاتهم عن الآخرين، وعدم كشفهم لانتماءاتهم وارتباطاتهم.

يجـوز للعمل الإسـلامي التنـظيمي أن يكـون سـريـاً متخفِّيـاً، إذا دعت الضرورة إليه.

إن أعداء هذا الـدين يريـدون القضاءَ عليـه، ومحاربـةَ جنوده ورجـاله، وإزالةَ كل صور وألوان العمل الإسلامي، فإذا ما وُجِـد الدعـاة في بيئة كهـذه، وكـانوا في مـرحلة ضعفٍ واستضعاف، جـاز لهم الإسرارُ بتنـظيمهم، وإخفـاءُ أمرهم على خصومهم.

لكن عليهم أن يتقدموا بدعوتهم للآخرين، ويعلنوا إسلامَهم، وينصحوا قـومهم، وينتصروا لـدينهم، فـلا يقعـدُ بهم الإسـرار والتخفي، عن أداءِ هـذا الواجب.

وإن التنسيق والتوفيق بين الإسرار بـالحركـة والتنظيم، والجهـرِ بالـدعوة والبيان، يحتاج إلى توازن وفقهٍ وفطنة، وتوفيق من الله سبحانه.

وقـد عرض لنـا القرآن نمـاذج وأمثلةً لـلإسـرار والتخفي، وعـدم إشعـار الآخرين بما عليـه الشخص. كما فعلتْ أختُ مـوسى بتوجيـهٍ من أمها عنـدمَا ذهبتْ تقصُّ خبر أخيها، حيث بصرت به عن جُنُب وهم لا يشعرون.

أما في السيرة: فعندنا كثير من النماذج والأمثلة على إسرار رسول الله ﷺ بتنظيمه الإسلامي في أول الدعوة وأثنائها، في الفترة المكية والفترة المدنية، ومن أبرز الأمثلة ما رواه أبو ذر الغفاري ـ رضي الله عنه ـ في قصة إسلامه، وموقفُ فاطمة بنت الخطاب من أم أبي بكر الصديق، عندما جاءتها تسألها عن رسول الله ﷺ. وتكليفُ الرسول عليه الصلاة والسلام لعمِّه العباس رضي الله عنه، بالبقاء في مكة لتقديم أخبار أهلها للمسلمين.

الحكمة من بعثهم وكشف أمرهم:

قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَعْثَرْنَا عَلَيْهِمْ * لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَق * وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فيها﴾.

هناك فجوةٌ فنية في قصة أصحاب الكهف، فجوةٌ بين تكليف الفتية لأحدهم بالذهاب إلى المدينة، ليُحضِر لهم الطعام، وبين عودته إليهم في الكهف، وقد كُشف أمرُهم، فجوةٌ عن سير ذلك الرجل حتى وصل المدينة، ومفاجآت ما رآه فيها، وما جرى بينه وبين أهلها، وعودتِه بتعجب ودهشة إلى أصحابه.

فجوةٌ لا نجد عنها شيئاً في الروايات الصحيحة، ولا نأخذ فيها عن الروايات غير الصحيحة.

فجوة لم يقل القرآن عنها شيئاً، وكأنه يدعو القارىءَ إلى أن يملأها بما يتخيله بخياله عنها، وما يتوقعُه بخياله من أحداثٍ ومفاجآت.

المهم أن المبعوثَ إلى المدينة كُشف أمرُه ـ ولا ندري كيف ـ فعاد إلى أصحابه في الكهف، ولحق به أهلُ المدينة، فلما وقفوا على باب الكهف وجدوا المؤمنين بداخله أمواتاً، موتاً حقيقياً هذه المرة.

لقد أعثر الله على أهل الكهف، وجعلَ أهلَ المدينة يكتشفونهم، ويقفون على أمرهم.

وأشـار القرآن إلى الحكمـة من ذلك بقـوله: ﴿وَكَـذٰلِكَ أَعْثَـرْنَا عَلَيْهِمْ * لِيَعْلَمُوا أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقّ * وَأَنَّ السَّاعَةَ لا رَيْبَ فيها﴾.

لقد كان ذلك ليعلم أهلُ المدينة أن وعـد الله حق، وأن الساعـةَ لا ريب فيها.

وعْـدُ الله لعباده المؤمنين حق لا محـالة، إنـه معهم بـالـرعـايـة والحفظ والنصر والتثبيت. فكل من حقَّق الشروط المطلوبة فلْيوقِن بتحقيق وعد الله.

فهـاهم أصحـاب الكهف لجـأوا إلى الله، فكـان الله معهم، وحَمـاهـم وحفظهم، وأبقى أجسادَهم سليمة وهم نائمون مئات السنين.

ولقـد أعثر الله عليهم، ليعلم أهـل المدينـة ـ والناسُ من بعـدهم ـ أن السـاعـة لا ريب فيهـا. ووجْـهُ دلالـة قصـة أصحـاب الكهف على البعث يـوم القيامة، أنهم ناموا ثـلاثمائـة وتسـع سنين، وفارقتْ أرواحهم أجسـادَهم طوال تلك المـدة المـديـدة، ثم ردَّ الله أرواحهم إلى أجسـادهـم، فـاستيقـظوا من نومهم.

وطـالما أن الله قـادر على أن يعمـل بهم هـذا، وعلى بعثهم من نـومهم الطويل، فإنه سبحـانه يكـون قادراً على بعث النـاس يوم القيـامة. بعثهم بعـد إعادة أرواحهم إلى أجسادهم البالية.

إن قصة أصحاب الكهف من أقـوى الأدلة القـرآنية العمليـة على البعث يوم القيامة، ويَبقى هذا الدليل القرآني يقدم دلالته حتى يوم القيامة.

قومهم فريقان تجاههم:

تنازع قومهم في أمـرهم، ويبدو أنهم كـانوا مؤمنين بـالله، موحِّـدين له: ﴿إِذْ يَتَنازَعونَ بَيْنَهُمْ أَمْرَهُم * فقالوا: ابْنوا عَلَيْهِمْ بُنْياناً * رَبُّهُمْ أَعْلَمُ بهم * قال الذّين غَلَبوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾.

لقد انقسموا بشأنهم إلى فريقين:

الفريق الأول: هم المؤمنون الصالحون. حيث قالوا: ابنوا عليهم بنياناً، ربهم أعلم بهم.

لقد طالبوا ببناء بنيان عليهم، وهو ليس مسجداً، أو من أجل تقديسهم، وإنما هو من أجل إكرامهم بدفنهم وحفظهم داخل البنيان، ومعروف أن إكرام الميت دفنُه.

وهؤلاء المؤمنون لم يخوضوا في أمرهم، لأنهم يعلمون أنهم لا يملكون من الوسائل والأدوات ما يعينهم على البحث والخوض والدراسة والتحليل، وطالما أنهم لا يملكون ذلك، فلا يجوز أن يذهبوا إلى الافتراضات والأساطير، ولا أن يُضيِّعوا أوقاتهم وعقولهم وأفكارهم فيما لا فائدة منه.

عليهم إذن أن يكِلوا الأمر إلى علم الله، وأن يفوِّضوا في معرفة الأمر إلى الله سبحانه العليم الخبير. ولهذا قالوا: ربهم أعلم بهم.

إن إيمانَهم بالله هو الذي قادهم إلى هذا الرأي، وأوحى إليهم بهذا القول، ولهذا اعتبرناهم مؤمنين.

الفريق الثاني: وهم الحاكمون المتنفِّذون، الذين وصفهم القرآن بأنهم الذين غَلبوا على أمرهم. وكان رأيهم أن يُبنىٰ على أصحاب الكهف مسجد. ﴿قَالَ الذِّينَ غَلَبوا عَلى أَمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾.

ونلحظ روح التعالي والتكبر والتسلط والدكتاتورية في قولهم: لنتخذن عليهم مسجداً.

لقد غلبوا قومهم على أمرهم، وتحكَّموا فيهم، وعاملوهم بتكبُّر واستعلاء، وخاطبوهم بحزم وجزم لا يقبلُ الحوار أو المناقشة أو التراجع: ﴿لنتخذن عليهم مسجداً﴾.

ولما وصل المفسرون إلى هذا الموضع في تفاسيرهم. تحدثوا عن حكم بناء المساجد على القبور، وذكروا في ذلك أحاديث عن رسول الله ﷺ، نَهى فيها عن اتخاذ القبور مساجد، ولَعَن فيها اليهودَ والنصارى الذين اتخذوا من تلك القبور مساجد.

من هذه الأحاديث:

الأول: روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها أَنَّ أُمَّ حبيبة وأُمَّ سلمة ذكرتا كنيسة رَأَيْنَها بالحبشة ـ فيها تصاوير ـ لرسل الله ﷺ. فقال: «إِنَّ أُولَئِك، إذا كانَ فيهمُ الرَّجُلُ الصّالِح، فَمَات، بَنَوْا عَلى قَبْرِهِ مَسْجِداً، وَصَوَّروا فيهِ تِلْكَ الصُّوَر، أُولَئِكَ شِرارُ الخَلْقِ عِنْدَ اللَّهِ يَوْمَ القِيَامة»[1].

الثاني: روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت: قال رسول الله ﷺ في مَرَضه الذي لم يقم منه: «لَعَنَ اللَّهُ اليَهودَ والنَّصارى. إِتَّخذوا قُبورَ أَنْبيائِهِمْ مَساجِد»[2].

الثالث: روى مسلم عن جندب رضي الله عنه قال: سمعتُ رسولَ الله ﷺ، قبل أن يموت بخمس، وهو يقول: «إِنِّي أَبْرَأُ إلى الله، أَنْ يَكونَ لي مِنْكُمْ خَليل، فَإِنَّ اللَّهَ تعالى قَد اتَّخَذَني خَليلاً، كَما اتَّخَذَ إِبْراهيمَ خليلاً. وَلَوْ كَنْتُ مُتَّخِذاً مِنْ أَمَّتي خَليلاً لاَتَّخَذْتُ أَبا بَكْرٍ خليلاً. أَلا وَإِنَّ مَنْ كانَ قَبْلَكُمْ كانُوا يَتَّخِذونَ قُبورَ أَنْبِيائِهِمْ وَصالِحيهم مَساجد، أَلا فَلا تَتَّخِذُوا القُبورَ مَساجد. إِنِّي أَنْهاكُمْ عَنْ ذَلِك»[3].

---

(١) مسلم كتاب (٥) المساجد ومواضع الصلاة، باب (٣) النهي عن بناء المساجد على القبور، حديث ٥٢٨.

(٢) مسلم، حديث ٥٢٩.

(٣) مسلم حديث ٥٣٢.

ويُفْهم من هـذه الأحاديث ذمُّ السـابقين الذين بنـوا المساجـد على قبـور أنبيائهم وصالحيهم، بل ولعنُهم لتلك الجريمة.

وهـذا يـدل على أن الـذين صَمَّمـوا على بنـاء المسجـد على أصحـاب الكهف، ليسوا من المؤمنين الصالحين، وأَن رأيَهم ليس صائباً ولا مقبولاً.

ونفهم من التـوكيـد في جملة ﴿لنتخـذن عليهم مسجـداً﴾ أن أولئـك الحـاكمين المتنفـذين، نفَّـذوا مـا صمَّمـوا عليـه، وبَنَـوْا المسجـد على ذلـك الكهف.

وقد سكتَ القرآن عن بناء المسجد، فلم يذكره، ولم يصرح أنه قد تمّ، ويبدو أن هذا لأَمْرين:

الأول: أن القرآن يترك فجـوةً فنية في العـرض القصصي، وذلك ليتـرك المجالَ لخيال القـارىء، ليُكمل تلك الفجـوة. وهنا يـذهب خيالُنـا إلى القوم وهم يبنـون المسجـد، ويـرسم في مخيَّلتـه صـورةَ المسجـد، وقـد أقيم على الكهف.

الثاني: لكراهية بناء المساجد على القبور، وكراهيـةِ ذلك العمـل الذي قام به أولئك المتنفذون ـ والله أعلم ـ.

ثلاثة أقوال في عدتهم:

أخبر القرآن الكريم عن اختلاف الناس في عدد أصحاب الكهف،وأوردَ في ذلك ثلاثةَ أقوال. فقال: ﴿سَيَقُولونَ ثَلاثَةٌ رابِعُهُم كَلْبُهُمْ * وَيقولـونَ خَمْسَةٌ سادِسُهُمْ كَلْبُهُمْ رَجْماً بِالغَيْب * وَيَقولونَ سَبْعَةٌ وَثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

القول الأول: هم ثلاثة. رابعهم كلبهم.

القول الثاني: هم خمسة. سادسهم كلبهم.

القول الثالث: هم سبعة. وثامنهم كلبهم.

ونلاحظ على العبارات السابقة ما يلي:

١ ـ ردَّ القرآن القولَيْن الأولَيْن وأبطلهما. وذلك لأنه وصفهما بصفةٍ تدعو إلى ردهما وإغفالهما، ولذلك قال عنهما «رجما بالغيب». والرجمُ بالغيب هو القولُ بلا علم، والادعاءُ بلا دليل.

٢ ـ وصْفُ القرآن للقولَيْن الباطلَيْن بأنهما من باب الرجم بالغيب، دعوةٌ لنا إلى أن نتثبت في أقوالنا، ونتأكد من أفكارنا وآرائنا، فلا نرى إلا ما عندنا به علم، ولا نقول إلا ما قام على صحته وصوابه دليل، أما القولُ بلا علم، والادعاءُ بلا دليل، فإنه لا يتفق مع المنهجية العلمية الموضوعية التي يدعونا إليها القرآن.

٣ ـ سكوتُ القرآن عن القول الثالث، وعدمُ ذمِّه كما ذمّ اللَذْين قبله، هو إقرار من القرآن له، وقبولٌ به، كما فهم ذلك القليلون المحققون من العلماء. وسنعود إلى هذه المسألة بعد قليل بإذن الله.

٤ ـ أصحابُ الكهف ذوو عدد فردي وليس زوجياً، فهم ثلاثة أو خمسة، والراجح أنهم سبعة.

٥ ـ كلُّ الأقوال قرنتْ كلبهم بهم، مع ملاحظة أن القولَيْن الأولَيْن لم يفْصِلا بينه وبينهم: ثلاثة رابعهم كلبهم، وخمسة سادسهم كلبهم. بينما القول الثالث الراجح، فصَل بينهم وبينه بالواو.

ولعل ذكر كلبهم معهم في اللفظ في الأقوال الثلاثة، لأنه اختار أن يحرسهم، وأن يكون معهم، ولهذا نالته بركتهم، وشملَته نعمتهم. بحيث عندما يُذْكَرون يُذْكَر معهم، ويُضاف إليهم، إضافةَ تملّك وتخصيص وتكريم.

واو الثمانية:

هي الواو المذكورة في قوله تعالى: ﴿وَيَقولونَ سَبْعَةٌ وثَامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾.

وهذه الواو هي التي تأتي بعد عددِ سبعة، وتُذكر قبل العدد الثامن، ولهذا سُميت واوَ الثمانية.

أما معناها، فإنها تُذكرَ إذا كان المعطوف بعدها ليس داخلاً في جملة المعطوف عليه قبلها. فهي تدل على التغاير في المعنى بين المعطوف والمعطوف عليه.

وسرُّ ذكرها هنا أنها توحي لنا بأن القول الثالث في عدة أصحاب الكهف غير القولَيْن اللّذيْن قبله، بل هو مغاير لهما. فإذا كانا قولَيْن مرفوضَيْن باطلَيْن. فإن واو الثمانية تشير إلى صحة وصواب القول الثالث، واعتماد القرآن له.

قال الإمام السهيلي في الروض الأنف عن هذه الواو كلمةً طيبة، واستنبط منها دلالةً لطيفة: «إنّ هذه الواو تدل على تصديق القائلين، لأنها عاطفةٌ على كلام مضمَر. تقديرَه: نعم. وثامنهم كلبهم. وذلك أن قائلاً لو قال: إن زيداً شاعر. فقلت له: وفقيه. كنتَ قد صدّقتَه كأنك قلت: نعم هو كذلك، وفقيه أيضاً.

وفي الحديث: سئل رسول الله ﷺ: أَنَتَوَضَّأ بِما أَفْضَلَتِ الحُمُر؟ فقال: وَبِما أَفْضَلَتِ السّباع. أخرجه الدارقطني[1].

وفي التنزيل ﴿وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَراتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُمْ بِاللَّهِ وَاليَوْمِ الآخِرِ * قالَ وَمَنْ كَفَرَ﴾[2] هو من هذا الباب، كأنه قال: نعم. ومن كفر فأمتعُه قليلاً ثم اضطره إلى عذاب النار وبئس المصير.

---

(١) وأخرجه الشافعي والبيهقي في معرفة السنن والآثار وقال البيهقي: له أسانيد إذا ضُم بعضها إلى بعض كانت قوية. انظر نيل الأوطار للشوكاني ١ : ٤٥.

(٢) سورة البقرة: آية ١٢٦.

فكـذلك مـا أخبره عنهم من قـولهم: وَيقولـون سبعة. فقـال سبحـانـه: وثـامنهم كلبهم. وليس كـذلـك سـادسهم كلبهم، وسـابعهم كلبهم، لأنـه في موضـع النعت لما قبله»(١).

وقد ذُكِرت واو الثمانية في عدة مواضـع في القرآن الكريم. منها:

١ ـ قوله تعالى عن المؤمنين المبايعين الـذين باعـوا أنفسهم وأموالهم لله: ﴿التَّائِبونَ العابِدونَ الحامِدونَ السـائحون الـرَاكِعونَ السّـاجِدونَ الآمِـرونَ بِـالمَعْـروفِ وَالنّـاهـونَ عَنِ المُنكَـرِ * وَالحـافِـظونَ لِحُـدودِ الله * وَبَشِّـرِ المُـؤْمِنين﴾(٢).

واو الثمانية في الآية هي الداخلة على النـاهين عن المنكر، وهي داخلة على الصفـة الشـامنـة من صفـات المؤمنين. ونـلاحظ التغـايـر مـا بين الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، أي بين ما قبل واو الثمانية وما بعدها.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿عَسى رَبُّهُ إنْ طَلَّقَكُنَّ أَنْ يُبْدِلَهُ أَزْواجاً خَيْراً مِنْكُنْ: مُسْلِماتٍ مُـؤْمِناتٍ قانِتاتٍ تائِباتٍ عابِداتٍ سائِحاتٍ ثَيِّباتٍ وَأَبْكاراً﴾(٣).

فواو الثمانية دخلت على الصفة الثـامنة من صفـات المؤمنات، كمـا أن ما بعد الواو يختلف عـن ما قبلها، ولا تجتمعان عنـد امرأة معـاً، إذ يستحيل أن تكون المرأة ثيباً وبكراً في نفس الوقت، لأنها إما ثيب وإما بكر.

ما يعلمهم إلا قليل:

ذهب قوم من المفسرين إلى أن البشر عاجزون عن معرفة عدد أصحاب الكهف، واستنـدوا إلى قول الله عن عـدتهم ﴿قُلْ رَبِّـي أَعْلَمُ بِعِـدَّتِهِم﴾ حيث

---

(١) الروض الأنف ٣: ١٧٠.

(٢) سورة التوبة: آية ١١٢.

(٣) سورة التحريم: آية ٥.

اختص الله بعلم ذلك، ونحن منهيّون عن المراء والجدال فيهم، وعن استفتاء السابقين في شأنهم.

بينما ذهب المحققون من المفسرين إلى أننا نستطيع معرفةَ ذلك العدد، وأنَّ القرآن يوحي به ويشير إليه، وأن آياته تحتاج إلى إمعان النظر فيها، وفهم إشاراتها وإيحاءاتها.

ولذلك قالوا: هم سبعة وثامنهم كلبهم.

والأدلة على هذا من الآية هي:

١ ـ إن الله لم يذكر استحالة علم البشر بهم، ولم ينف العلم عنهم، بل على العكس ذَكَر أن البشر، يمكنهم معرفةُ ذلك فقال: ﴿ما يعلمهم إلا قليل﴾ ولو أراد نفي علم البشر لقال: لا يعلمهم إلا الله.

ألا تراه في سورة إبراهيم عندما قرر أن البشر عاجزون عن معرفة الأقوام الذين عاشوا بعد ثمود، قصر العلم بهم على الله وحده. فقال: ﴿أَلَمْ يَأْتِهِمْ نَبَأُ الـذّينَ مِنْ قَبْلِهِمْ * قَوْمِ نـوحٍ وَعادٍ وَثَمود، وَالذينَ مِنْ بَعْدِهِمْ لا يَعْلَمُهُمْ إِلاَّ الله...﴾[1].

وفرق بعيدٌ بين قوله: ﴿لا يعلمهم إلا الله﴾ وقوله: ﴿قل ربي أعلم بعدتهم * ما يعلمهم إلا قليل﴾.

٢ ـ دخول واو الثمانية على القول الثالث ﴿ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم﴾ وهذه الواو تدخل على ما كان مغايراً لما قبلها، فإذا كان القولان الأولان مرفوضيْن، فإن القول الثالث هو الصحيح ـ والله أعلم.

٣ ـ نقضَ القرآن القولين الأولين عندما وصفهما بأنهما رجم بالغيب، بينما لم ينقض القول الثالث، بل سكت عنه سكوت إقرار.

---

(١) سورة إبراهيم: آية ٩.

٤ ـ فهمَ الصحابة والمحققون من المفسرين من الآية إمكان علم البشر بعدتهم، فقالوا بالقول الثالث، واعتبروا القرآن داعياً لهم إلى ذلك القول، وإعمالِ عقولهم فيه.

فقد روى ابن كثير عن ابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ قوله: «أَنا من القليل الذي استثنى الله عز وجل: كانوا سبعة» وقوله: «أنا ممن استثنى الله، كانوا سبعة»[1].

ونحن مع الإمام ابن عباس في نظرته في الآية واستنباطه منها، ولهذا نقرر أنهم سبعة وثامنهم كلبهم ـ والله أعلم ـ.

حكمة أخرى لواو الثمانية:

وبإمعان النظر في جملة «ويقولون سبعة وثامنهم كلبهم» نأخذ إشارةً أخرى، ونهتدي إلى حكمة جديدة، لدخول واو الثمانية عليها:

إن هذه الواو فصلت ما بين السبعة أصحاب الكهف وكلبهم.

وهذا الفصْل ضروري، فهم مؤمنون صالحون، وكلبهم حيوان نجس، فلا يليق أن يقترن معهم بالنطق والذكر.

وعندما ننظر في القولين الأولين، نجد أنهما قرنا بين المؤمنين وبين كلبهم: ثلاثة رابعهم كلبهم وخمسة سادسهم كلبهم. ولعل هذا القِران بينهم، عامل آخر على نقض القولين وردِّهما.

ولعل فصل القول الثالث بينهم بواو الثمانية، عامل آخر على قبوله واعتماده والقول به.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٨.

فالقائلون به يلحظون هذا المعنى الأدبي الذوقي اللطيف، فلم يقرنوا ما بين المؤمنين البشر وما بين الكلب الحيوان، ولم يقرنوا ما بين الرجال الأطهار والكلب النجس، الذي لم تُغيْر صحبتُهُ لهم، من نجاسته شيئاً، ولهذا أبقاه القرآن بعيداً عنهم على عتبة الباب «في الوصيد» ـ والله أعلم ـ.

ولا تستفت فيهم منهم أحداً:

المعنى القريب لهذه العبارة هو نهيُ رسول الله ﷺ، عن استفتاءِ أو سؤالِ أحدٍ بخصوص أهل الكهف، وبخاصة أهل الكتاب اليهود والنصارى.

لا يسألُهم ولا يستفتيهم، لأنهم لا علم لهم بذلك، لا يملكون علماً حقيقياً، صحيحاً صادقاً موثوقاً به.

لكن هذه العبارة ليست بخصوص أهل الكهف ـ وإنْ نزلتْ فيهم لأن العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب ـ وإنما هي عامة، تشمل كلَّ قصص القرآن، وأخبارَ السابقين.

كما أن التوجيه فيها ليس مقصوراً على رسول الله ﷺ وإنْ كان الخطاب له، ـ لأن خطاب الرسول ﷺ خطاب لأمته، ما لم يقل دليل على التخصيص ـ.

إن التوجيه فيها لكل مسلم حتى قيام الساعة، ينهاه عن سؤال أهل الكتاب أو غيرهم بخصوص أهل الكهف، وغيرهم من أصحاب قصص السابقين في القرآن.

إن هذه العبارة تقدم لنا قاعدة قرآنية محكمة، في التعامل مع قصص القرآن، إنها تنهانا عن استفتاء أهل الكتاب وغيرِهم من البشر بخصوص تلك القصص، تنهانا عن الأخذ عنهم، والرجوع إليهم، وإيراد أقوالهم وأخبارهم ورواياتهم.

وهي قاعدة علمية منهجية موضوعية.

لا نسأل أهل الكتاب ولا نأخذ عنهم، لأنهم محرِّفون لكتاب الله، غيرُ أُمَناء على التاريخ والأخبار والحقائق.

لا نسأل أهل الكتاب ولا نأخذ عنهم، لأن قصصَ السابقين وأحداثَها وتفصيلاتِها إنما هي من عالم الغيب ـ غيب الماضي ـ وأحداثُ الغيب وتفصيلاتُه لا يعلمها إلا الله. فلا تؤخذ إلا عن الله ـ سبحانه ـ.

لا نسأل أهلَ الكتاب ولا نأخذ عنهم، لأن العلمية والمنهجية والموضوعية تُلزمنا أن نتثبت ونتأكد مما نورده من الأقوال والأخبار، وتنهانا أن نقفوَ ونرويَ ونورِد ما ليس لنا به علم.

إننا مُلْزَمون ـ بخصوص أهل الكهف وغيرهم من قصص القرآن ـ أن نبقى في إطار الحق والصدق والصواب، وهذا لا يكون يقيناً إلا لما ورد في كتاب الله، وفي الحديث الصحيح لرسول الله ﷺ.

وسامح الله الذين ذهبوا إلى أهل الكتاب، وأوردوا أقوالهم ورواياتهم عن قصص السابقين، فخالفوا بذلك هذا التوجيه الرباني الكريم ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾.

قال الإمام ابن كثير في تفسير هذه العبارة: «ولا تستفت فيهم منهم أحداً. فإنهم لا علم لهم بذلك، إلا ما يقولونه من تلقاءِ أنفسهم، رجماً بالغيب، أي من غير استنادٍ إلى كلام معصوم، وقد جاءك الله يا محمد بالحق، الذي لا شك فيه، ولا مرية فيه، فهو المقدَّم الحاكم على كل ما تقدمه من الكتب والأقوال»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٨.

نسيان الرسول ﷺ :

قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ * وَاذْكُرْ رَبَّكَ إِذَا نَسِيتَ﴾.

في هذه الآية توجيهٌ من الله لرسوله ﷺ - ولكل مسلم من بعده - بأن يُعلِّق ما سيقوم به في المستقبل بمشيئة الله، فيقول: سأفعل ذلك الشيء غداً: إن شاء الله. وترشده إلى الذكر عند نسيان التعليق بالمشيئة ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾.

وهذه الآية تشير إلى مناسبة نزول قصة أصحاب الكهف - التي أوردناها في بداية كلامنا عن القصة - حيث وعد رسولُ الله ﷺ كفارَ قريش أن يقدم لهم الجواب على الأسئلة التي وجهوها له في الغد، حيث قال لهم: أجيبكم غداً.

ونسي أن يستَثْنِ - أي نسي أن يقول: أجيبكم غداً إن شاء الله -.

فتأخر عنه جبريل بالجواب خمسة عشر يوماً، وشق ذلك على رسول الله ﷺ، وصار الكفار يتندَّرون ويضحكون، ويقولون: إنّ صاحبَك قد جفاك. وكان هذا التأخر مقصوداً، ليعلِّمنا الله هذا الدرس، ويقدِّم لنا هذه القاعدة الإيمانية التي تقدمها الآية.

وهل ينسىٰ الرسول؟

وهذا النسيان من رسول الله ﷺ، لا يطعن في نبّوته، ولا يقدح في عصمته.

صحيح أن الله تكفل له بأن لا ينسى، ﴿سَنُقْرِئُكَ فَلا تَنْسى﴾[1] ولكنّ

---

(١) سورة الأعلى: آية ٦.

هـذا النسيان المنفي إنمـا هو مـا كان بـاختياره، ولكن الله إذا شـاء أن ينسى، فسوف ينسى، ولهذا أَتْبـع ذلك الوعد بقوله: «إلاّ ما شَاءَ الله، إِنَّهُ يَعْلَمُ الجَهْـرَ وَما يخفى»[١].

ثم إن النسيانَ المنفي هو النسيانُ في حفظ القرآن، فإن الله تكفَّل بحفظ القرآن، وتكفَّل لرسوله بأن يحفظ القرآن فلا ينسى منه حرفاً.

أما النسيانُ في غير القرآن فهـذا ممكن، بل قـد وقـع من رسول الله ﷺ حيث نسي وهو في الصلاة، ثم سجد للسهو قبل أن يسلِّم!.

فقـد روى مسلم في صحيحه عن عبـد الله بن بُحَيْنَة ـ رضي الله عنـه ـ قال: صلى لنا رسولُ الله ﷺ ركعتين من بعض الصلوات، ثم قام فلم يجلس، فقام الناس معه، فلما قضى صـلاتَه، ونَـظَرْنا تسليمَـه، كبَّر، فسجـد سجدتين وهو جالس قبل التسليم. ثم سلَّم»[٢].

فالرسـول ﷺ سها في صـلاته، في التشهـد الأول، وقام للثـالثة فـوراً، ولكنه سجد للسهو سجدتين قبل التسليم.

وروى مسلم عن عبـد الله بـن مسعـود رضي الله عـنـه قـال: صلى رسـولُ الله ﷺ، فلما سلَّم قيـل له: يـا رسول الله: أَحَـدَثَ في الصلاة شيء؟ قال: وما ذاك؟ قالوا: صَلَّيْتَ كذا كذا. فَثَنى رِجْلَيْـه، واستقبل القبلة، وسجـد سجـدتين، ثم سلَّم، ثم أقبل علينـا بوجهـه، فقال: إنـه لو حَـدَثَ في الصلاة شيء أنبــأْتُكُمْ بـه، ولكن إنمــا أَنـا بشــر، أَنْسىٰ كمـا تَنْســون، فـإذا نَسيتُ فـذكِّروني. وإذا شَـكَّ أَحَدُكُمْ في صـلاته فلْيَتَحَـرَّ الصـواب، فَلْيُتِمَّ عليـه، ثم لِيَسْجُد سجدتين»[٣].

---

(١) سورة الأعلى: آية ١١.

(٢) رواه مسلم كتـاب (٥) المساجـد ومـواضـع الصـلاة. بـاب (١٩) السهـو في الصـلاة والسجود له، حديث ٥٧٠.

(٣) مسلم نفس الكتاب والباب، حديث ٥٧٢.

وروى مسلم عن أبي هريرة قال: «صلّى بنا رسولُ الله ﷺ إحدى صلاتَي العَشِيّ. إما الظهر وإما العصر، فسلَّم في ركعتين، ثم أتى جِذْعاً في قِبْلة المسجد، فاستند إليها مُغْضِباً، وفي القوم أبو بكر وعمر، فهابا أن يتكلما، وخرج سَرَعانُ الناس يقولون: قُصِرَت الصلاة. فقام ذو اليَدَيْن فقال: يا رسول الله: أقُصِرَت الصلاة أم نسيتَ؟ فنظر النبي ﷺ يميناً وشمالاً، فقال: ما يقول ذو اليدين. قالوا: صدق، لم تُصلِّ إلا ركعتين. فصلى ركعتين وسلَّم»[1].

ففي تلك الصلاة نسي رسول الله ﷺ وسهى فيها، وسلَّم من الركعة الثانية، فلما ذكَّره الصحابة أتى بالركعتين الباقيتين، ثم سجد للسهو.

وصرَّح في الحديث بأنه بشر، ولذلك فهو ينسى كما ينسى البشر، وطالبهم أن يذكِّروه عندما ينسى.

إن نسيانَ الرسول دليلٌ على بشريته، لأن النسيان ملازم للإنسان، ودليل على نبوته، لأن الله يذكِّره ويخبره بأنه قد نسي.

وقد يتساءل أناس: كيف ينسى رسول الله ﷺ في صلاته؟ وبماذا كان يفكر؟ حول هذا المعنى يقول الشاعر:

يا سائِلي عَنْ رَسول اللَّهِ كَيْفَ سَها   وَالسَّهْوُ في كُلِّ قَلْبٍ غافِلٍ لاهِ
قَدْ غابَ عَنْ كُلِّ شَيْءٍ قَلْبُهُ، فَسَها   عَمّا سِوى اللَّهِ، في التَّعْظِيمِ لِلَّهِ

أنبياء ينسون:

والنسيان لم يحدث لرسولنا فقط ـ عليه الصلاة والسلام ـ وإنما حصل لأنبياء آخرين.

فقد أخبرنا الرسول ﷺ بأن سليمان عليه السلام نسي أن يقول إن شاء الله.

---

(١) مسلم: نفس الكتاب والباب حديث ٥٧٣.

روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: قالَ سُلَيْمانُ بْنُ داودَ عَليْهِما السلام: لأَطوفَنَّ اللَّيْلَةَ عَلى مِائَةِ امْرَأَةٍ ـ أَوْ تِسْعٍ وَتِسْعين ـ كُلُّهُنَّ يَأْتي بِفارِسٍ يُجاهِدُ في سَبيل الله. فَقَالَ لَهُ صاحِبُه: قُلْ إِنْ شَاءَ الله. فَلَمْ يَقُلْ إِنْ شاءَ الله. فَلَمْ تَحْمِلْ مِنْهُنَّ إِلّا امْرَأَةٌ واحِدَة، جاءَتْ بِشِقِّ رَجُل. وَالذّي نَفْسُ مُحَمَّد ﷺ بِيَدِهِ لو قال: إنْ شاءَ الله، لَجاهَدوا في سَبيلِ اللَّهِ. فُرْساناً، أَجْمَعون»[1].

وقد علمنا من سورة الكهف، أن موسى عليه السلام قد وعد صاحبَه العبدَ الصالح ـ الخضر عليه السلام ـ أن لا يسأله عن شيء وأن لا يعترض على شيء، ولكنه لما رآه يخرق السفينة اعترض عليه فقال: أَخَرَقْتَها لتغرق أهلَها؟ لقد جئت شيئاً إمراً.

فلما ذكَّره صاحبُه بالوعد، اعترف بنسيانه له فقال: لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسراً.

كما أخبرنا القرآن أن أبا البشر وأولَ الأنبياء آدمَ عليه السلام، نسي فأكل من الشجرة، وذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ * فَنَسِيَ * وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[2].

ومعنى الآية: أن الله عَهِد إلى آدم أن لا يأكل من الشجرة فنسي عهد الله، وأكل منها ناسياً، ولم يكن عنده عزْم وقصد وتعمُّد للأكل منها. والنبي لا يتعمد مخالفةَ العهد!

كل شيء بالمشيئة الإلهية:

﴿وَلَا تَقولَنَّ لِشَيْءٍ إِنّي فاعِلٌ ذٰلِكَ غداً * إِلَّا أَنْ يَشاءَ الله﴾.

---

(١) البخاري كتاب (٥٦) الجهاد، باب (٢٣) من طلب الولد للجهاد، حديث رقم ٢٨١٩.

(٢) سورة طه: آية ١١٥.

تنهى هذه الآية كلَّ مسلم ـ من خلال نهي رسول الله ﷺ ـ أن يجزم بفعل شيء في المستقبل إلا أن يعلِّقه بالمشيئة الإلهية، تنهاه عن أن يعدِ وعداً إلا أن يسْتثني: ﴿ولا تقولن لشيء إني فاعل ذلك غداً إلا أن يشاء الله﴾.

وقد يتساءل الإنسان: لماذا هذا الاستثناء؟ ولماذا يعلِّق غده ومستقبله بالمشيئة الإلهية؟ وهل هو عاجز عن الجزم بما سيفعل في المستقبل؟ ولماذا هو عاجز؟.

إن المستقبلَ غيب بالنسبة للإنسان، لأن هذا المستقبل إنما هو بيد الله وحده، وإن الإنسان لم يزوِّده الله بالوسائل التي تعينه على الجزم، والتحديد بما سيحدث له، أو ما سيفعله في المستقبل.

وبما أن المستقبل غيب لذلك لا يعلمه إلا الله، لأن الله عنده مفاتح الغيب، و ﴿لَا يَعْلَمُ مَنْ في السَّمواتِ وَالأَرْضِ الغَيْبَ إلّا الله * وَمَا يَشْعُرونَ أَيّانَ يُبْعَثون﴾[1].

الإنسان لا يعلم ماذا سيحدث له في مستقبله، وماذا سيفعل في غده. وفي ذلك يقول الله تعالى: ﴿إنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السّاعَة، وَيُنَزِّلُ الغَيْثَ، وَيَعْلَمُ ما في الأَرْحام، ومَا تدْري نَفْسٌ ماذا تَكْسِبُ غداً، وَمَا تَدْري نَفْسٌ بِأيِّ أَرْضٍ تَموت﴾[2].

إن الغد بالنسبة للإنسان مليءٌ بالمفاجآت والاحتمالات، فعلى حسب تفكير الإنسان، إما أن يحصلَ له في الغد الأمرُ الفلاني أو الفلاني، وقد يحدث له أمرٌ لم يكن بالحسبان.

---

(١) سورة النحل: آية ٦٥.

(٢) سورة لقمان: آية ٣٤.

وقد يجزم الإنسان بشيء يحدث في المستقبل، وقد يخططُ لشيء يفعله في الغد، ويتخذ لذلك كافة الاحتياطات، ويأخذ بكل الأسباب، ولا يُقصر ببذل شيء، فيبدو الأمرُ على أساس الحسابات البشرية، مضموناً مائة بالمائة. ثم تحدث مفاجأةٌ تقلِب كل الأمور، فتلغي له خططه وبرامجه، وهذه المفاجأة ليست في حسابه، ولا قدرة له على دفعها.

هذا بالنسبة لتقديرِ الإنسان وعلمه وقدرته.

أما بالنسبة إلى الله سبحانه وتعالى، فإن قدرتَه فاعلة، وإراداتَه نافدة، ومشيئَته طليقة، إنه يفعل ما شاء ويختار، وإنه فعّال لما يريد، وأنه لا رادّ لأمره، وإن مشيئَته وإرادَته وقدرتَه هي التي تقرر الأحداث والأخبار والأفعال والتصرفات، وإنه لا يشذ واحد منها عن هذه المشيئة الإلهية، وإن كل المخلوقين في هذا الكون ـ سواء كانوا من الإنس أو الجن أو الملائكة ـ خاضعون لإرادة الله ومشيئته، ولا يقدر أحد هؤلاء أن يقف في وجهها أو يعاندها، أو يعاكسها ويحاربها ويبطلها، لأنها أمر الله الخالق القوي القدير.

لهذا نرى أَنه لا يحدث في الكون إلا ما يشاء الله، ولا يكون إلا ما يريد الله، وأَنَّ مشيئة الناس خاضعةٌ لمشيئة الله، فما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا يشاء الناس إلا ما يشاء الله، كما قال الله: ﴿فَمَنْ شاءَ اتَّخَذَ إِلى رَبِّهِ سَبيلاً ❁ وَما تَشاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ الله ❁ إِنَّ اللَّهَ كانَ عَليماً حَكيماً﴾[1].

وكما قال الله: ﴿وَما تَشاءونَ إِلاَّ أَنْ يَشاءَ اللَّهُ رَبُّ العالَمين﴾[2].

ونظراً لجهل الإنسان بما سيحدث له في غده، ونظراً لعجزه عن دفع ما شاء الله أن يقع له، وعن جلب ما لم يشأ الله أن يصل إليه، لذلك نجده

---

(١) سورة الإنسان: آيات ٢٩ ـ ٣٠.

(٢) سورة التكوير: آية ٢٩.

عاجزاً عن الجزم بما سيحدث له من خير أو شر، أو عن ضمان خططه وبرامجه، وحصولها كما خطط وبرمج.

لهذا ترشده الآية إلى التصرف المناسب في هذا الأمر، فتطالبه بتعليق وعودِه وخططِه المستقبلَية بالمشيئة الإلهية النافذة، عندها لا يكون هذا الإنسان عرضةً للوم عندما يعجز عن تنفيذ ما وعد.

ولا نفهم من هذا أن يتوقف المسلم عن الأخذ بالأسباب، وأن يلغيَ الخطط والبرامج والآمال، لأن الأخذَ بالأسباب من أساسيات الإيمان ومجالاتِ العبادة، كلُّ ما في الأمر، أن لا يركن إلى الأسباب، ولا يرى إلا الخطط والبرامج، بل يجعل للمشيئة الإلهية الاعتبار الأول!

واذكر ربك إذا نسيت:

كان نسيانُ الرسول ﷺ أن يعلق وعده للمشركين بمشيئة الله، ونسيانُه أن يقول لهم: أجيبكم غداً، إن شاء الله، كان هذا مناسباً ليُلقيَ القرآن لرسول الله ﷺ ولكل مسلم من بعده، بقاعدة قرآنية ضرورية للحياة على هذه الأرض.

ولذلك قال تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسيت﴾.

وهذا القول الكريم حقيقةٌ أساسيةٌ من حقائق الإسلام، وعلاج نافع للانحراف أو التقصير، أو الغفلة والنسيان.

إن المسلم يخوض في هذه الحياة معركة حتميةً مفروضةً عليه، معركة مع الشيطان ومع أعوانه ومع الباطل وجنوده.

وقد ضمن الله له الانتصار في المعركة، إذا لجأ إلى ربه واعتصم به.

وقد حذّره الله من عدوه الشيطان وبيّن له أن للشيطان سلطاناً ونفوذاً وتأثيراً على أعوانه وجنوده، وأنه يدخل للإنسان من باب الغفلة والنسيان

والتقصير والإهمال. لذلك حذّره الله من الغفلة والنسيان والتقصير والإهمال: فقال له: ﴿يَا أَيُّها الذّينَ آمَنوا اتّقُوا اللّهَ * وَلْتَنْظُرْ نَفْسٌ ما قَدَّمَتْ لِغَد * وَاتَّقُوا الله * إنَّ اللّهَ خَبيرٌ بِما تَعْمَلُون * وَلا تَكونوا كالذّينَ نَسوا اللّهَ فَأَنْساهُمْ أَنْفُسَهُمْ * أَولئِكَ هُمُ الفاسِقونَ﴾[1].

فإذا ما غفل هذا الإنسان ونسي ـ وهو سيغفل وسينسى ـ فعليه أن يتذكرَ وأنْ يصحو، فيلجأ إلى ربه ويستغفره، ويستنصر به. قال له: ﴿إنَّ الذّينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطان تَذَكَّروا فَإذا هُمْ مُبْصِرون * وَإخْوانُهُمْ يَمُدّونَهُمْ في الغَيِّ ثُمَّ لا يُقْصِرونَ﴾[2]. وقال له: ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾.

فذِكْرُ الله سبحانه أضمنُ سلاح للانتصار على الشيطان وجنوده، وذِكْر الله علاج قرآني ناجع للتقصيرِ والإهمال والتفلُّتِ من الأحكام، وارتكابِ المحظورات.

وذكرْ الله حياةٌ للقلب، وسعادةٌ للروح، وراحةٌ للمؤمن، ونورٌ للحياة، وطريقٌ لمحبة الله ورضوانه، وسببٌ لدخول جنته، والنجاة من عذابه.

وترشدنا الآية إلى موضع آخر لذكر الله، وهو النسيان،أي يذكر الله عندما ينسى.

﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾ والنسيان هنا غير محدَّد ولا مقيَّد، بل هو عام مطلق، وقد جعله القرآن على عمومه ليشمل كل صور وألوان النسيان، التي لا علاج لها إلا بذكر الله.

والأَوْلى إبقاءُ اللفظ على عمومه، وعدمُ تقييده وتحديده ـ لأن هذا من مفاتيح التعامل مع القرآن وقواعدِ فهمه.

---

(١) سورة الحشر: آيات ١٨ ـ ١٩.

(٢) سورة الأعراف: آيات ٢٠١ ـ ٢٠٢.

ومن الصور والألوان والحالات التي يشملها لفظ النسيان:

١ ـ نسيانُ الله: اذكر ربك إذا نسيته، لأنه لا يجوز لمسلم أن ينسى الله لحظة، فنسيان الله ذنب وتقصير، لا بد له من ذكرِ الله واستغفاره، ونسيانُ الله سبب للوقوع في المعاصي وعلاجُه بذكر الله.

٢ ـ نسيانُ الاستثناء، وتعليقُ الوعد بالمشيئة الإلهية: أي اذكر ربك إذا نسيت أن تقول: سأفعل غداً إن شاء الله. فاذكر الاستثناء عند التذكر، وعلِّق الأمر بالمشيئة. وهذه الصورة للذكر. ذكرَها معظم المفسرين عند تفسيرهم للآية.

٣ ـ نسيانُ عداوة العدوِّ الأكبر الشيطان وأعوانِه، لأن نسيان عداوتهم سبيل الاستجابة لوساوسهم، فذكْر الله يعيد صاحبه مبصراً حذراً من هؤلاء الأعداء.

٤ ـ نسيانُ الواجبات، فذكْر الله عامل لتذكُّرها وأدائها، وعامل مباشر في حسن التعامل معها والنظر إليها.

٥ ـ نسيانُ الهدف من الحياة، والوظيفة فيها، والخطة الناجحة لأدائها على منهج الله.

٦ ـ نسيانُ الموت، والانتقالِ من هذه الدنيا، وعدمِ الخلود فيها.

٧ ـ نسيانُ الآخرة، نسيان النار وعذابها، ونسيان الجنة ونعيمها وخيراتها.

إن هذه الصورَ وغيرَها خطيرة، ذاتُ أضرار بالغة في حياة المسلم، ولا علاج لها إلا بالمداومة على ذكر الله سبحانه ﴿واذكر ربك إذا نسيت﴾.

من هو القائل «لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين . . . » :

قوله تعالى: ﴿وَلَبِثوا في كَهْفِهِمْ ثَلاثَمِائَةٍ سِنينَ * وَازْدادُوا تِسْعاً﴾. إخبار عن المدة التي لبثوها في الكهف، أو الفترة التي ناموها في الكهف بتعبير أدق، وهي الفترة ما بين دخولهم وعثور قومهم عليهم.

ويقرر الخبر أن هذه المدة كانت ثلاثمائة وتسع سنين.

لكن من هو قائل هذا الخبر؟ هل هو قول الله فيكون تقريراً لهذه المدة!.

أم هو قول السابقين المختلفين في أمرهم، فيكون إيراد القرآن له من باب الحكاية والرواية لا من باب الإقرار والاعتماد؟.

اختلف العلماء في ذلك. فمنهم من قال: هو قول الله عن مدة لبثهم. ومنهم من قال: هو قول السابقين الذين تنازعوا في أمرهم.

القول الأول: هو قول السابقين المتنازعين في أمرهم، ولم يقرْره القرآن أو يعتمده، بل ردَّه ونقضه.

والواو عند هؤلاء، في قوله: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين﴾ عاطفة، عطفت هذا القول على قوله: ﴿سيقولون ثلاثة رابعهم كلبهم﴾.

ويكون المعنى: سيقولون إنهم ثلاثة رابعهم كلبهم... وسيقولون: لبثوا في كفهفهم ثلاثمائةٍ سنين.

وقد أبطل القرآن قولهم في قوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا * له غيب السموات والأرض﴾ فأحال في مدة لُبثهم إلى علم الله، ولو كان قولُهم صحيحاً ومعتمداً لما كان هناك معنى جديداً في قوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾. ولو كان هذا القول من الله سبحانه لما كان لقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ معنى.

أخـرج السيوطي في الـدر المنثور عن ابن عبـاس ـ رضي الله عنهما ـ قال: إن الرجـل لَيفسر الآيـة، يرى أنهـا كذلـك، فيَهوى أبعـد ما بين السمـاء والأرض. ثم تـلا: ﴿ولبثـوا في كهفهم ثـلاثمـائــة سنين﴾ ثم قـال: كم لبث القوم؟ قالوا: ثلاثمائة وتسـع سنين. قـال: لو كـانوا لبثـوا كذلـك، لم يقل الله ﴿قـل الله أعلم بما لبثـوا﴾ ولكنه حكى مقـالة القـوم، فقال: سيقـولون ثـلاثـة رابعهم كلبهم. وأخبـر أنهم لا يعلمـون قـال: وسيقـولـون ولبثـوا في كهفهم ثلاثمائة سنين وازدادوا تسعاً.

وأخرج السيوطي أيضاً عن قتادة رضي الله عنـه قال: إنمـا قالـه الناس. ألا ترى أنه قال: ولبثوا في كهفهم ثـلاثمائـة سنين. ثم قال: قـل الله أعلم بما لبثوا.

وفي رواية أخرى، عن قتـادة: «هذا قـول أهل الكتـاب، فرد الله عليهم بقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ »[1].

القول الثاني: إن هذا قول الله نفسه، وإنه إخبار من الله عن المدة التي لبثوا فيها في الكهف.

أخـرج السيوطي عن مجـاهد قـولـه في الآيـة: هـذا عـدد مـا لبثـوا في الكهف[1].

وقـد تبنّى الإمام ابن كثيـر هذا القـول ونصـره، وردَّ على القـول الأول، فقال: «هذا خبر من الله تعالى لرسوله ﷺ بمقدار مـا لبث أصحاب الكهف في كهفهم، منذ أرقدهم الله، إلى أن بعثهم وأعثر عليهم أهل ذلـك الزمـان، وأنه كان مقداره ثلاثمائة سنة تزيد تسع سنين بالهلالية.

---

(١) الدر المنثور للسيوطي ٥: ٣٧٩.

وقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ أي إذا سُئِلتَ عن لبثهم وليس عندك علم في ذلك وتوقيفٌ من الله تعالى، فلا تتقدم فيه بشيء، بل قل في مثل هذا: ﴿الله أعلم بما لبثوا * له غيب السموات والأرض﴾ أي لا يعلم ذلك إلا هو، ومَنْ أطلعه عليه من خلقه.

وهذا الذي قلناه، عليه غير واحد من علماء التفسير كمجاهد، وغير واحد من السلف والخلف.

أما قول قتادة الذي زعمه فإن فيه نظر، فإن الذي بأيدي أهل الكتاب أنهم لبثوا ثلاثمائة سنين، من غير تسع يعنون بالشمسية، ولو كان الله حكى قولهم لما قال: وازدادوا تسعاً.

والظاهر من الآية إنما هو إخبار من الله تعالى، لا حكاية عنهم، وهذا اختيار ابن جرير رحمه الله»(١).

ونتوقفُ في ترجيح أَيٍّ من القولين حتى نعرف الفرق بين السنين الشمسية والهلالية.

هل التسع هي الفرق بين الحسابين؟

ذهب مفسرون سابقون ومعاصرون، إلى أن أهل الكهف لبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين بالحساب الشمسي، وهذه السنين تصبح ثلاثمائة وتسع سنوات، بالحساب القمري.

فالسنواتُ التسع، إنما هي الفرق بين الحسابيْن الشمسي والقمري.

ويعتبرون ذكر القرآن لهذه السنوات التسع دليلاً على مصدره، وأنه كلام الله، وليس كلام الرسول عليه الصلاة والسلام.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٩.

قال الإمام ابن كثير عن كون السنوات التسع هي الفرق بين الحسابين: «إن لبثهم كان مقداره ثلاثمائة سنة، تزيد تسع سنين بالهلالية، وهي ثلاثمائة سنة بالشمسية، فإنَّ تفاوُتَ ما بين كل مائة سنة بالقمرية إلى الشمسية ثلاث سنوات، فلهذا قال بعد الثلاثمائة «ازدادوا تسعاً»[1].

لكن هناك من المعاصرين من لا يوافق على هذا، ويعتبره غير متفق حتى مع الحساب.

ويمثل هؤلاء المرحومُ عبد الرحمن الوكيل، حيث يقول في تعليقه على «الرّوْضِ الأُنُف» عن ذلك القول: «وهذا تأويل لا يليق بكتاب الله، ولا بكلام الله، إنما يضطرون إليه، لأنهم يرون أن قوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين﴾ هو من قول الله نفسه، وليس قولاً يقصُّه الله عن غيره.

وليس في الآية ما يشير مطلقاً إلى هذا التأويل»[2].

وقبل أن نقول بما قاله الجمهور، الذين مثَّلهم ابن كثير، ننظر: هل التسع سنوات هي الفرق بين الحسابين؟ وللإجابة على هذا السؤال نسأل سؤالاً آخر: كم هو الفرق بين السنة الشمسية والسنة الهلالية؟.

قال المؤرخ الإسلامي المعاصر أحمد عادل كمال في كتابه «جداول التقويم الميلادي المقابل للتقويم الهجري».

«واليوم الشمسي يزيد عن اليوم القمري بمقدار ٥٥,٩ ثانية ٣ دقائق.

واليوم عند العرب يبدأ من غروب الشمس، ويمتد إلى غروبها التالي.

والشهر القمري: ٢٩,٥٣٠٥٨٨ يوماً.

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ٧٩.

(٢) الروض الأنف بتحقيق الوكيل ٣: ١٧٣.

والسنة القمرية: ٣٦ ثانية ٤٨ دقيقة ٨ ساعة ٣٥٤ يوماً.

وتنقص عن السنة الشمسية بنحو: ١١ يوماً.

حيث تبلغ السنة الشمسية ٩,٥ ثانية ٩ دقيقة ٦ ساعة ٣٦٥ يوماً»[١].

بعد هذا الحساب الدقيق نجد أن الفرق بين الحسابيْن الشمسي والقمري ليس تسع سنوات فقط، بل هو أزيد من هذا!.

وقد ناقش الإمام الآلوسي هذه المسألة ولاحظ الفرْق بين الحسابيْن.

قال: «التفاوت بين الحسابيْن في السنة الواحدة: عشرة أيام، وإحدى وعشرون ساعة ودقيقة واحدة.

وإذا كان هذا تفاوت سنة، كان تفاوت مائة سنة هو: ألف يوم وسبعة وثمانين، وثلاث عشرة ساعة، وأربع دقائق، وهي ثلاث سنين، وأربعة وعشرون يوماً، وإحدى عشرة ساعة، وست عشرة دقيقة.

فيكون تفاوت ثلاثمائة سنة هو: تسع سنين، وثلاثاً وسبعين يوماً، وتسع ساعات، وثمانياً وأربعين دقيقة»[٢].

الفرق بين الحسابيْن ليس تسع سنين بالضبط كما حدد القرآن، بل هو يزيد عليها أكثر من ثلاثة وسبعين يوماً.

ونظراً لهذه الزيادة على الزيادة ــ التي هي تسع سنوات ــ قال علماء: إن هذا ليس إخباراً من الله، ولا إقراراً منه له، وإنما هو ذكر لكلام السابقين المتنازعين في أمر أهل الكهف، فكما اختلفوا في عددهم، اختلفوا في مدة لبثهم. فذكر قوم أنهم لبثوا ثلاثمائة وتسع سنوات، وقولهم ليس صحيحاً.

ولو كان هذا إخبار من الله، لكان منضبطاً دقيقاً، وهو ما عوَّدَنا القرآن عليه في ما يعتمده ويقرره من الأخبار والأقوال.

---

(١) جداول التقويم الميلادي المقابل للتقويم الهجري لأحمد عادل كمال: ٣ ــ ٤.

(٢) روح المعاني للآلوسي ١٥: ٢٥٢.

وقد رد الجمهور بأن هذا التفاوتَ لا بأس بـه، لأنه أقـلُّ من ربـع سنة، ومن عادة العرب أن يُسقطوا الكسور من الـذكر إذا قلَّتْ وكـانت دون النصف. ولذلك لم يقل القرآن: وازدادوا تسعاً وربعاً، أو تسعاً وثلاثة وسبعين يوماً.

يقول الآلوسي حول هذا: «ودعوى أن التفاوت تسـعُ سنين، مبنيـة على التقـريب لأن الزائـد لم يبلـغ نصف سنـة، ولا فصـلاً من فصـولهـا، فلم يُعبأ به»[1].

الراجـح أنه إخبار من الله:

نقف الآن ـ بعد إيراد حجـج الفريقين ـ لنحاول الترجيـح.

أدلة الفريق الأول، القائل بأن تحديد لبثهم في الكهف بثلاثمـائة وتسـع سنين هو قول السـابقين الذين اختلفـوا في عدة أصحـاب الكهف، وأن القرآن الكريم أورد هذا القول من باب الإخبار عن أقوالهم، أدلةُ هذا الفريق قوية، من حيث الدقة الحسابية.

لكننا عندما نزيل شبهة التفـاوت الحسابـي، بـأن العرب تُسقط الكسـورَ إذا نقصت عن الـربـع، فلهـذا لا بـأس من زيـادة حـوالي ثمـانين يـومـاً على السنوات التسـع.

ولذلك فنحن مـع الجمهور، بأن قوله ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمـائة سنين وازدادوا تسعاً﴾ هو إخبار من الله سبحانه عن لبثهم في الكهف، وليس حكايـةً لقول من أقوال السابقين.

وأن هذا القول راعى الحسابيْن الشمسي والقمري.

فهي ثلاثمائة سنين بالحساب الشمسي الرومي الميـلادي، الذي كـانت عليه الدولة الرومانية، والذي ورثتْه عنها الدول الغربية المعاصرة.

---

(١) روح المعاني ١٥: ٢٥٢.

وهي ثلاثمائة وتسع سنين بالحساب القمري العربي، الذي كان عليه العرب في العصر الجاهلي، وهو الحساب الهجري الذي اعتمده المسلمون فيما بعد.

فتكون السنوات التسع ـ والكسور التي أُسقطت ـ هي التفاوت بين الحسابين.

فائدة «قل الله أعلم بما لبثوا»:

علمنا أن من أقوى أدلة القائلين بأن القولَ في تحديدِ لبثهم في الكهف، هو لأهل الكتاب السابقين، ما عقَّب به القرآن على القول بقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ فكأن القرآن يرد ذلك القول ويبطله، ويعتبره غيرَ قائم على علم صحيح، ويرشدنا إلى أن نُحيل الأمر إلى علم الله.

قال الوكيل في تحقيق الروض الأُنُف «وتأويلُ ابن هشام لقوله تعالى: ﴿ولبثوا في كهفهم﴾ تأويلٌ رائع ـ على أنه قول السابقين ـ إذ يجعل هذا القول من قول أهل الكتاب، وبهذا يستقيم فهمُنا للآية. ويتفق هذا مع ما بعده، وهو قوله سبحانه: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ إذ لو كان «ولبثوا» من كلام الله نفسه، ما كان لقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ معنى»[1].

لكن الجمهور لا يقبلون هذا التأويل، ويُزيلون هذا الاعتراض، ويعتبرون أن القولين لله سبحانه «ولبثوا» و ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾.

ونورد فيما يلي خلاصةً نافعة لفائدةِ قوله ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ وبيانِ تناسقها مع ما سبقها من الكلام، أوردها الإمام الآلوسي.

﴿ولبثوا في كهفهم..﴾ جملةٌ مستأنَفَة مبيِّنة، لما أُجمل في قوله تعالى: ﴿فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عدداً﴾.

---

(١) الروض الأنف ٣: ١٧٢ ـ ١٧٣ حاشية.

فعلى هـذا قوله تعالى: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ تقرير لكون المدة المضروب فيها على آذانهم هي هذه المدة، كأنه قيل: قل الله أعلم بما لبثوا، وقد أَعْلَمَنا بما لبثوا، فهو الحق الصحيح الذي لا يحوم حوله شك قط.

وفائدة تأخير هذا البيان عن مدة لبثهم، التنبيهُ على أنهم تنازعوا في مدة لبثهم كما تنازعوا في عددهم، ولهذا ذَكَره عُقيب اختلافهم في عدة أشخاصهم.

وليكون التذييل بقل الله أعلم بما لبثوا، محاكياً للتذييل[1] بقوله سبحانه: ﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾.

وللدلالة على أنه من الغيب، الذي أُخبر به عليه الصلاة والسلام، ليكون معجزاً له»[2].

وقد وقف الآلوسي وقفةً لطيفة ذكية، حول ما نُسب لابن عباس ـ رضي الله عنهما ـ حيث رُوي عنه: إن القول بتحديد لبثهم في الكهف هو قول السابقين، وأن القرآن نقضه بقوله: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾.

ذكَّرَنا الآلوسي برأي ابن عباس في عدة أصحاب الكهف، حيث ذهب إلى أنهم سبعة وثامنهم كلبهم، مع أن الله قال بعدها: ﴿قل ربي أعلم بعدَّتهم﴾.

فلم يمنع هذا التعقيب الذي يحيل عدتهم إلى علم الله، من القول بأنهم سبعة وثامنهم كلبهم. فلماذا مَنَع التعقيب هنا ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ من اعتماد ما قبله من الخبر؟.

---

(١) لا نُقرّ إطلاقَ كلمة التذييل على أسلوب القرآن، والأَوْلى استخدام كلمة «ختم الآية بكذا».

(٢) روح المعاني ١٥: ٢٥٢.

قال الآلوسي: «ولعل هذا لا يصح عن الحَبر رضي الله تعالى عنه. فقد صح عنه القول بأن عدة أصحاب الكهف سبعة وثامنهم كلبهم، مع أنه تعالى عقَّبَ القول بذلك بقوله سبحانه: ﴿قل ربي أعلم بعدتهم﴾ ولا فرق بينه وبين قوله تعالى: ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾ فلِمَ دل هذا على رد القول وإبطاله، ولم يدل ذاك؟»[1].

دلالة قوله «وازدادوا تسعاً» على مصدر القرآن:

وقف العلماء وقفةً متأنية أمام قوله: ﴿وازدادوا تسعاً﴾ وحاولوا أن يستخرجوا الحكمة من ذكرها.

وخلاصةُ نظرتهم: إن هذه الجملة تدل دلالة صريحة على مصدر القرآن، حيث تشير إلى أنه من عند الله سبحانه وليس من تأليف الرسول ﷺ.

ووجْه دلالتها على ذلك:

إن الآية تتضمن الحسابيْن الشمسي والقمري في مدة لبثهم في الكهف: ﴿ولبثوا في كهفهم ثلاثمائة سنين * وازدادوا تسعاً﴾.

كانت المدة ثلاثمائة سنين بالحساب الشمسي، ويضاف لها تسع سنوات وكسور بالحساب القمري.

وهذا إخبار من الله لرسوله ﷺ.

ولو كان القرآن من تأليف الرسول ﷺ، فما يدريه بأنَّ المدة كانت ثلاثمائة سنة؟ وأهل الكتاب من اليهود والنصارى لا يعلمونها! وما كان يدريه ـ وهو الأمي عليه السلام ـ أن الثلاثمائة سنة تزيد تسع سنوات بالحساب القمري؟.

---

(١) المرجع السابق ١٥: ٢٥٢ ـ ٢٥٣.

وكلمة «وازدادوا» توحي بهذا المعنى، وتُلقي هذا الظل. فهذه السنوات التسع إنما هي زيادة على الحساب، لأنها هي الفرق بين الحسابيْن.

وإن اليهود يعلمون صعوبة هذا السؤال، ولهذا وجهوه للرسول عليه السلام، كما أنهم يعلمون دلالته على النبوة والرسالة في حالة الإجابة عليه، وجاء الجواب من الله تقريراً لهذه الحقيقة، وإضافةَ دليل قاطع إلى أدلة كثيرة، على أن هذا القرآنَ كلامُ الله سبحانه، أوحى به لرسوله عليه الصلاة والسلام.

أدلة أخرى من السياق على مصدر القرآن:

ليس هذا هو الدليلُ الوحيد من السياق على مصدر القرآن، فكل القصة إنما سيقت للدلالة على ذلك، ولذلك كانت معجزة من معجزات الرسول عليه الصلاة والسلام.

من الأدلة على ذلك:

١ ـ قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ فِتْيَةٌ آمَنوا بِرَبِّهِم﴾ وتحديد أعمارهم بأنهم فتية.

٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَرى الشَّمْسَ إذا طَلَعَتْ تَزاوَرُ عَنْ كَهْفِهِم ذاتَ اليَمين * وَإِذَا غَرَبَتْ تَقْرِضُهُمْ ذاتَ الشِّمال﴾ بهذا التصوير الدقيق لحركة الشمس.

٣ ـ قوله تعالى: ﴿وَهُمْ في فَجْوَةٍ مِنْه﴾ بهذا التحديد الدقيق لوضعهم داخل الكهف.

٤ ـ ما يفهم من التصوير السابق لتحديد مكان الكهف، واتجاه بابه.

٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَتَحْسَبُهُم أَيْقاظاً وَهُمْ رُقود﴾ وإشارتها إلى فتح عيونهم مع أنهم رقود.

٦ ـ قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُهُمْ ذاتَ اليَمينِ وَذاتَ الشِّمال﴾ وتصويرها لحركة تقلبهم داخل الكهف.

٧ ـ قوله تعالى: ﴿وَكَلْبُهُمْ باسِطٌ ذِراعَيْهِ بِالوَصِيد﴾ وتحديده لمكان الكلب وهيئته التي نام عليها.

٨ ـ قوله تعالى: ﴿لَوِ اطَّلَعْتَ عَلَيْهِمْ لَوَلَّيْتَ مِنْهُمْ فِراراً * وَلَمُلِئْتَ مِنْهُمْ رُعْباً﴾ ودلالته على أن الرسول عليه السلام لم يطلع عليهم، لأن لو حرف امتناع لامتناع، فهو لم يهرب منهم خوفاً لأنه لم يطلع عليهم، فكيف عَرَف كل هذه التفصيلات الدقيقة، والتصويرات النافذة، التي لم يعرفها أحد من البشر؟.

٩ ـ قوله تعالى: ﴿قالَ الذّينَ غَلَبوا عَلى أمْرِهِمْ لَنَتَّخِذَنَّ عَلَيْهِمْ مَسْجِداً﴾ وإشارتُه إلى أن بناء المسجد كان رأي الحاكمين المتنفِّذين الذين غلبوا على أمرهم.

١٠ ـ حصرُه الأقوال في عدتهم بأنها ثلاثة لا رابع لها.

١١ ـ قوله تعالى: ﴿وَيَقولونَ سَبْعَةٌ وثامِنُهُمْ كَلْبُهُمْ﴾ وأنه هو القول الراجح في عدتهم.

١٢ ـ قوله تعالى: ﴿وَلا تَقولَنَّ لِشَيْءٍ إنِّي فاعِلٌ ذٰلِكَ غَداً * إلاّ أَنْ يَشاءَ الله﴾ وإشارتُه إلى سبب النزول، ونسيانُ الرسول عليه السلام أن يعلق الوعد بمشيئة الله، وما أعقبها من تأخر نزول الوحي عليه بالجواب.

١٣ ـ ما ورد في الروايات في أسباب النزول عن تأخُّر نزول جبريل على رسول الله ﷺ، رغم حاجته الماسة له، لا سيما وأنه وعَدَ المشركين الجواب في الغد، وصار كلما يراجعونه يقول: لم يأتني الوحي، مما جعلهم يثيرون الشبهاتِ والدعايات ضده. وما في ذلك من ضيق وألم للرسول عليه السلام.

١٤ ـ قوله تعالى: ﴿وَلَبِثُوا في كَهْفِهِمْ ثَلاثَمِائَةٍ سِنين﴾ والجزم بتحديدها بهذه المدة.

١٥ ـ قوله تعالى: ﴿وَازْدادوا تِسْعاً﴾ وذكْر هذه السنوات بلفظ الزيادة الذي يوحي بالفرق بين الحسابيْن.

الحكمة من تعقيب القرآن على قصصه:

من الملاحظ أن القرآن الكريم كان يتولى التعقيب على القصص الذي يورده، ببضع آيات، ويقرر في هذا التعقيب أهمَّ المعاني التي توحي بها القصة التي يعرضها، والدلالاتِ التي تؤْخَذ منها، وحاجة المسلمين إلى دروسها وعبرها.

وهذا التعقيب القرآني يوحي لنا بعدة أمور. منها:

١ ـ إن القصص في القرآن لا يُراد لذاته، وإنما هو وسيلة ناجحة، إلى غايات سامية، وأهداف مقصودة.

٢ ـ يدعونا القرآن إلى أن نلحظ الهدف والغاية من القصة، وأن نفقه ذلك ونقفَ عليه، ونتدبرَه ونُحسنَ التعامل معه.

٣ ـ يدعونا القرآن إلى أن لا نُتعب أنفسنا بالبحث في تفصيلات ذلك القصص، الذي لم يَرد في القرآن ولا في الحديث الصحيح، وأن لا ننشغل بمحاولة تبيين مبهمات ذلك القصص، وتحديد أشخاصه وزمانه ومكانه، وعلينا بدل ذلك أن نلتفت إلى العبرة والدلالة والهدف والغاية.

٤ ـ يدعونا القرآن إلى أن نقتدي به في ما نعرضه من قصص، بحيث يكون لنا هدفٌ نسعى لتحقيقه من خلاله.

تعقيب القرآن على قصة أصحاب الكهف :

كان تعقيب القرآن على قصة أصحاب الكهف في الآيات التالية :

﴿ قُلِ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا لَبِثُوا۟ ۖ لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ ۚ مَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَلِىٍّ وَلَا يُشْرِكُ فِى حُكْمِهِۦٓ أَحَدًا ﴿٢٦﴾ وَٱتْلُ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن كِتَابِ رَبِّكَ ۖ لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ وَلَن تَجِدَ مِن دُونِهِۦ مُلْتَحَدًا ﴿٢٧﴾

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

وَقُلِ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ ۖ فَمَن شَآءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَآءَ فَلْيَكْفُرْ ۚ

إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلظَّٰلِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا ۚ وَإِن يَسْتَغِيثُوا۟ يُغَاثُوا۟ بِمَآءٍ كَٱلْمُهْلِ يَشْوِى ٱلْوُجُوهَ ۚ بِئْسَ ٱلشَّرَابُ وَسَآءَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٢٩﴾

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ إِنَّا لَا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلًا ﴿٣٠﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ جَنَّٰتُ عَدْنٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِّن سُندُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُّتَّكِـِٔينَ فِيهَا عَلَى ٱلْأَرَآئِكِ ۚ نِعْمَ ٱلثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا ﴿٣١﴾ ﴾[1] .

---

(١) سورة الكهف : آيات ٢٦ ــ ٣١ .

بعض دلالات ولطائف هذا التعقيب:

١ ــ تعليمُنا الأدب مع الله، وأن نَكِل إلى علم الله الشامل المحيط كلّ الأمور والأخبار والأحداث. كما يبدو من قوله ﴿قل الله أعلم بما لبثوا﴾.

٢ ــ تعليمُنا مدحَ الله والثناءَ عليه، والمبالغةَ في ذلك، كما يبدو من قوله: ﴿أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ ومعناه ما أبصرَ اللَّهَ وأسمعَه، فبصرُه شامل لكل موجود، وسمعُه لكل مسموع.

٣ ــ الله وحده هو الولي، وغيره لا يصلح أن يكون ولياً، وإذا اتخذه أناس ولياً فلن ينفعهم، فلا ولي إلا الله: ﴿ما لهم من دونه من ولي﴾.

٤ ــ إن الله غني عن الشركاء، وغني عن العالمين، ولذلك «لا يشرك في حكمه أحداً».

٥ ــ دعوةٌ لنا إلى تلاوة القرآن وتدبُّرِه، وفهمِ معانيه، والحياة بِهِ، والدعوةِ إليه، فهذه التلاوة للقرآن هي حياة القلوب والأرواح والأبدان: ﴿واتل ما أوحي إليك من كتاب ربك﴾.

٦ ــ يخبرنا القرآن أن كلمات الله لا تبديل لها ولا تغيير، وكلمات الله شاملة لإرادته ومشيئته سبحانه، ولسننه العامة التي تربط حياة البشر، وللآيات القرآنية الحكيمة: «لا مبدل لكلماته».

٧ ــ يأمرُنا القرآن بأن نكون مع الصالحين، أن لا نعدُوَ أعيننا عنهم، وأن نصبر أنفسنا صبراً على أن نكون معهم ﴿واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه * ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾.

٨ ــ يخبرُنا القرآن أن كل مَنْ عَدَل عن الصالحين وتَرْكهم، فإنما يريد الحياة الدنيا وزينتها ﴿ولا تعد عيناك عنهم تريد زينة الحياة الدنيا﴾.

٩ ـ إن الناس أحد فريقين لا ثالث لهما، فريق الصالحين الذين يدْعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه، وفريق الكافرين الظالمين الذين غفلت قلوبهم عن ذكر الله، واتبعوا أهواءهم، وفسدت حياتهم.

وكل من تخلى عن الصالحين فإنما يكون بالضرورة مع الفريق الآخر.

١٠ ـ يدل القرآن، على أن الإيمان بالله هو النظامُ الدقيق الذي يجمع حياة الإنسان، والسلكُ المتين الذي يربط جزئيات هذه الحياة، ويوحِّد بينها، فإذا فُقد هذا النظام، وقُطع هذا السلك، تناثرت جزئياتُ حياته وضاعت، وصارت فُرُطاً مهملاً ضائعاً لا خير فيه: ﴿ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً﴾.

١١ ـ نحن مطالبون بالدعوة والحجة والبيان والتعريف، وأن نوضح للناس الحق واضحاً بيناً، وأن ندلّهم عليه، وندعوهم ليكونوا معه. وبهذا تنتهي مهمتنا ﴿وقل: الحق من ربكم﴾.

١٢ ـ على الناس أن يختاروا أيَّ طريق يسلكون، وأيَّ فريق يتبعون، نحن نوقفهم على مفرق الطريق، وهم يختارون بإرادتهم طريق الإيمان أو طريق الكفر: ﴿فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر﴾.

١٣ ـ وحتى نساعدهم على اختيار طريق الحق والنّفور من طريق الباطل، نريهم نهاية كل طريق وخاتمتَه. فنعرض عليهم مشاهد من الجنة ونعيمها، ومشاهد أخرى من النار وعذابها.

١٤ ـ الدنيا دارُ العمل، والآخرة دارُ الجزاء، ومَنْ أحسن في الدنيا وآمن وعمل صالحاً، فإن الله لا يضيع أجر من أحسن عملاً.

١٥ ـ رغم اتفاق المؤمنين والكافرين في العيش في الدنيا، إلا أنهم يختلفون في النهاية والمصير يوم القيامة، فجنة المؤمنين ﴿نعم الثواب

وحسنت مرتفقاً﴾ ونار الكفار ﴿بئس الشراب وساءت مرتفقاً﴾ وشتّان بين الحُسْن والسوء، والنعيمِ والعذاب، والثوابِ والعقاب!!.

تلخيص لأهم دروس القصة:

نقف في نهاية كلامنا عن قصة أصحاب الكهف، لنسجل أهمَّ الدروسِ والدلالات والعِبر، التي تُؤخذ منها:

١ ــ تعاونُ الكفار فيما بينهم، وتنسيقُهم مواقفَهم لمحاربة دعوة الحق، والوقوفِ في وجهها، كما حصل من قريش واليهود في توجيه الأسئلة لرسول الله ﷺ.

٢ ــ اليهودُ هم أشدُ الناس عداوة للمسلمين ــ كما صرح القرآن ــ وأكثرُ الناس حقداً على المسلمين، كما ظهر من توجيههم الأسئلة العويصة للرسول عليه السلام.

٣ ــ اليهودُ هم أساتذة الشر والفساد، ولذلك يلجأ إليهم الآخَرون ليتتلمذوا عليهم في الشر والفساد. كما فعلتْ قريش.

٤ ــ وجوبُ الاكتفاء بالعرض القرآني لأحداث وتفصيلات القصص السابقة، وعدم تجاوزها إلى الإسرائيليات والأساطير.

٥ ــ عدمُ تحديد مبهمات القرآن عن أشخاصٍ وأزمانٍ وأمكنةِ أَحداثِ القصص السابقة.

٦ ــ تُعتَبر قصةُ أصحاب الكهف من أبرز الأدلة القرآنية على إمكانية الكرامات للصالحين، ووقوعِها في عالم الواقع، حيث أشارت القصة إلى عدة كرامات وقعت لأولئك الفتية المؤمنين.

٧ ــ في القصة آيات كثيرة لله سبحانه، تدل على الله، وتُعرِّفنا عليه، وتعرض بعض صفاته وأفعاله.

٨ ــ القصــة أوضح دليـل على حفظ الله لأوليـائـه، ونصـره لهم، فيعيشون حياتهم في طمأنينة، ويواجهون أعداءهم بثبات.

٩ ــ تعلِّمنا القصة لجوءَ المؤمن إلى ربه، واعتصامَه به، وتوكلَه عليه، وطلَبه لرحمته، وهي أقوى وسائل الصبر والثبـات والجهاد والنصر.

١٠ ــ قصَّ القـرآن قصة أصحـاب الكهف بالحق، وهـذا يعني أن كل ما ورد في القرآن من أخبار فهو الحق الـذي لا شك فيـه. وأن كل مـا لم يتفق مـع القرآن فلا حق فيه.

١١ ــ وصْفُ أصحـاب الكهف بأنهم فتيـة، وصفُ ثنـاء واستحسـان، وهذا يوحي بأهمية مرحلة الشباب والفتوَّة، باعتبارها مـرحلة العطاء والحيـوية، والبناء والاندفاع.

١٢ ــ جعـل الله للإنسـان قـدرةً على الكسب والاختيـار، فهـو يختـار طريقه، وهو في اختياره مـوافق لإرادة الله سبحانـه، والله يزيـده مما اختـار من خير أو شر.

١٣ ــ ملأ أصحاب الكهف قلوبهم إيماناً، وتوجهوا إلى الله بـالتثبيت، فَـرَبط على قلوبهم، وعلى المسلم أن يملأ قلبـه إيمـانـاً ثم يـطلب من الله أن يربط عليه حتى لا يتسرب منه، أو يختلط معه غيره.

١٤ ــ بعـد مرحلة الاختيـار للإيمـان والتزودِ منـه والربط عليـه، تـأتي مرحلةٌ تاليـة، وهي السعي والدعـوة والحركـة، والعملُ بجـد وجهد في سبيـل الإيمان الذي اختاره.

١٥ ــ أمورُ العقيدة وقضايا الإيمـان لا تترسـخ في القلب والشعـور إلا بالحركة، والعمل، والدعوةِ للدين، والقيام بالحق، ومواجهةِ الباطل.

١٦ ــ لا تُقبَل أيةُ فكرة أو دعوة إلا بعد توفُّر الدليـل القاطـع والبـرهان الساطـع، وما أكثرَ المبادىء والدعوات التي تفتقد لهذه القاعدة الأساسية!.

١٧ ـ أظلمُ الناس هو ذلك الذي يفتري الكذب على الله، لأن الكذبَ على الناس جريمة، والكذبَ على الله جريمة أكبر، تدل على نضوب الخير في نفس وقلب صاحبه.

١٨ ـ لقد اعتزل أهلُ الكهف قومَهم، لأنه لم يكن أمامهم إلا الاعتزال، ونحن لا يجوز لنا أن نقتدي بهم في ذلك الاعتزال، لوجود فروق كثيرة بيننا وبينهم.

١٩ ـ إن مخالطة الآخرين، والاتصالَ بهم، ونصحَهم، ودعوتَهم، وتذكيرَهم، واجبٌ على الداعية، ولا يعتزل الآخرين إلا إذا لم تبق أمامه إلا تلك الوسيلة.

٢٠ ـ ومع المخالطة والاتصال يجب أن يعيش الداعية نوعاً آخر من العزلة، إنها العزلة الشعورية، بمعنى أن لا يأخذ عنهم باطلهم، ويُبقي قلبَه وشعورَه وكيانَه مع ربه.

٢١ ـ عندما دخل أصحاب الكهف كهفَهم، يسّره الله لهم، وكان صالحاً لإقامتهم، وذلك بسبب رحمة الله التي نشرها عليهم فيه، فما أسعدَ الحياة برحمة الله، وما أقساها بدونها!.

٢٢ ـ لقد سخَّر الله للفتية في الكهف جنوده الكثيرين، وقدَّر الأسباب المادية، التي تحقق بها حفظُهم.

٢٣ ـ صحبةُ الصالحين تُفيض على صاحبها معاني الخير والبركة بفضلهم، وصحبةُ الأشرار تجعل على صاحبها نصيبَه من الشر والخسارة.

٢٤ ـ تجاوُزُ الهامشيات والمسائل الفارغة التي لا نفع فيها ولا خير، وعدمُ إضاعة الوقت فيها، كما فعل أصحاب الكهف في ترك الجدال في مقدار لبثهم نائمين في الكهف.

٢٥ ــ توحي لنا القصةُ بجواز ومشروعية الشركة والوكالة، حيث فوَّضوا أحدهم بالذهاب للمدينة لشراء الطعام، وأعطوه نقودهم من أجل ذلك.

٢٦ ــ كما توحي القصة بكراهية الدَّيْن، وتشير إلى أن الأَوْلى أن يكون الشراء بالنقد، كما يوحي قولهم ﴿فابعثوا أحدكم بورقكم هذه إلى المدينة﴾.

٢٧ ــ يعلمُنا أصحابُ الكهف وجوبَ التمهل والتريُّثِ عند شراء الطعام وغيره، وتحرّي الحلال الطيب، والتخلي عن الحرام الخبيث.

٢٨ ــ قولُهم للذي ذهب للمدينة «فلينظر أيها أزكي طعاماً» يقرر قاعدة قرآنية أساسية حول الطعام، وهي إن الطعام الزاكي هو الحلال فقط، وغيره خبيث منبوذ.

٢٩ ــ وهذه القاعدةُ القرآنيةُ تدل على اهتمام القرآن بالذوق والمزاج الشخصي، فهو يريد من المسلم أن يكون ذوقُه ومزاجُه محكوماً بالشرع وما يقرره من حِلّ وحرمة.

٣٠ ــ وتقف كلمة «وَلْيَتَلَطَّفْ» مَعْلَماً قرآنياً بارزاً، ومنارةً هادية، حول وجوب التلطف والرفق في الحياة، والصِّلات والمعاملات مع الآخرين.

٣١ ــ وقولهم «ولا يُشْعِرَن بكم أحداً» يوحي بأمر آخر، وهو جوازُ ومشروعيةُ التخفي عن الكفار والأعداء، والإسرار بالدعوة والتنظيم، والحرصِ على عدم كشفها للأعداء.

٣٢ ــ ومع حرص أهل الكهف على التخفي، إلا أن الله أعثر عليهم قومهم، وكشَف أمرهم لهم، لحكمة يريدها سبحانه ليريهم دليلاً عملياً على البعث واليوم الآخر.

٣٣ ــ يُعتبر بعثُ أصحاب الكهف من نومهم الذي طال مئات السنين، من أقوى الأدلة العملية الواقعية على البعث واليوم الآخر.

٣٤ ـ تبدو من قول الحاكمين الذين غلبوا على أمرهم «لنتخذن عليهم مسجداً» نبرةُ التكبر والتسلط والاستعلاء، وهي ملازمة لكل الحاكمين، غير الملتزمين بمنهج الله.

٣٥ ـ القرآن قد يعرض بعض الأقوال، ويلمِّح إلى ما يردُّها وينقضها ويبطلها، ويكون هذا في إشارة ولمحة، قد لا يلتفت لها كثيرون، ولكنها لا تخفى على حذاق المتدبرين.

٣٦ ـ رغم اختلاف الناس في عدة أصحاب الكهف، وإيراد أقوال ثلاثة لهم حولها، إلا أن القرآن يقرر إمكانيةَ علم البشر بتلك العدة.

٣٧ ـ الراجح أن أصحاب الكهف كانوا سبعة وثامنهم كلبهم، ويمكن أن نستخرج من القرآن نَفسه أربعة أدلة على ترجيح هذا القول.

٣٨ ـ في القصة واوٌ، هي واو الثمانية وهي في قوله: ﴿وثامنهم كلبهم﴾ وهذه الواو توحي بعدة إيحاءات.

٣٩ ـ يقرر قوله ﴿ولا تستفت فيهم منهم أحداً﴾ قاعدةً قرآنية حول التعامل مع قصص السابقين، وهي النهي الشديد عن استفتاء أو سؤال السابقين عنها، أو أخذ كلامهم حولها.

٤٠ ـ نسيانُ الرسول عليه الصلاة والسلام أن يقول «إن شاء الله» وإيراد نماذج لنسيان أنبياء آخرين في القرآن، دليلٌ على بشرية الرسل، وتعرضهم لعوارض البشرية.

٤١ ـ من حقائق القرآن أن كل شيء في الكونِ والحياةِ وحركةِ الإنسان، إنما يحدث بقدَر الله، ووفْق مشيئته، فلا يقع إلا ما شاء الله.

٤٢ ـ الإنسان يقف أمام الغيب عاجزاً جاهلاً، لأنه لا يعلم الغيبَ إلا الله، ولا يحيط بالغيب إلا الله.

٤٣ ــ تقديرات الإنسان وخططُه وبرامجُه قد تتخلف، ويعجز عن تنفيذها، لأن الله لم يُرد حصولها، وهذا لا يلغي وجوب الأخذ بتلك الأسباب، ثم التوكل على الله.

٤٤ ــ يعلّمنا القرآن أن نعلّق وعودَنا بالمشيئة الإلهية، وأن نستثني عند إبرامنا لتلك الوعود. فنقول: سنفعل هذا الأمر، إن شاء الله.

٤٥ ــ النسيان ملازم للإنسان، ولا يوجَد إنسان لا ينسى، وأحياناً يكون النسيان نعمةً من الله كنسيان المصائب، وأحياناً يكون في الواجبات والفرائض والأوامر، فيكون من الشيطان.

٤٦ ــ يرشدُنا القرآن إلى وجوب ذكر الله عند النسيان، حتى نقضي على وساوس الشيطان ونزغاته، ونُبقي قلوبنا وكياننا مع الله.

٤٧ ــ يقررُ القرآن أن نومة أصحاب الكهف قد طالت، حيث وصلت إلى ثلاثمائة وتسع سنوات.

٤٨ ــ السنوات التسع هي الفرق بين الحسابيْن الشمسي والقمري في مدة لبثهم، وهذا يدل على مصدر القرآن، وأنه من عند الله سبحانه.

٤٩ ــ تحملُ القصةُ أكثرَ من خمسة عشر دليلاً على أن القرآن من عند الله، وليس من تأليف الرسول عليه السلام، وإلا فمن كان يدريه بتلك التفصيلات التي لا يعلمها بشر؟.

٥٠ ــ يُعقِّب القرآن دائماً على قصصه، تعقيباً يعالج مسائل وقضايا في حياة وواقع المسلمين، ويقرر الدروس والدلالات التي توحي بها تلك القصص.

* * *



قِصَّة صَاحِبِ الجَنَّتَيْن

قِصَّة صَاحِبِ الجَنَّتَيْنِ

القصة في العرض القرآني:

قال تعالى: ﴿وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا رَّجُلَيْنِ جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا ﴿٣٢﴾ كِلْتَا ٱلْجَنَّتَيْنِ ءَاتَتْ أُكُلَهَا وَلَمْ تَظْلِم مِّنْهُ شَيْـًٔا وَفَجَّرْنَا خِلَٰلَهُمَا نَهَرًا ﴿٣٣﴾ وَكَانَ لَهُۥ ثَمَرٌ

فَقَالَ لِصَٰحِبِهِۦ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَنَا۠ أَكْثَرُ مِنكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ وَدَخَلَ جَنَّتَهُۥ وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ قَالَ مَآ أَظُنُّ أَن تَبِيدَ هَٰذِهِۦٓ أَبَدًا ﴿٣٥﴾ وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّدِدتُّ إِلَىٰ رَبِّى لَأَجِدَنَّ خَيْرًا مِّنْهَا مُنقَلَبًا ﴿٣٦﴾

قَالَ لَهُۥ صَاحِبُهُۥ وَهُوَ يُحَاوِرُهُۥٓ أَكَفَرْتَ بِٱلَّذِى خَلَقَكَ مِن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ سَوَّىٰكَ رَجُلًا ﴿٣٧﴾ لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٣٨﴾ وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ مَا شَآءَ ٱللَّهُ لَا قُوَّةَ إِلَّا بِٱللَّهِ

إِن تَرَنِ أَنَا۠ أَقَلَّ مِنكَ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٣٩﴾ فَعَسَىٰ رَبِّىٓ أَن يُؤْتِيَنِ خَيْرًا مِّن جَنَّتِكَ وَيُرْسِلَ عَلَيْهَا حُسْبَانًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فَتُصْبِحَ صَعِيدًا زَلَقًا ﴿٤٠﴾ أَوْ يُصْبِحَ مَآؤُهَا غَوْرًا فَلَن تَسْتَطِيعَ لَهُۥ طَلَبًا ﴿٤١﴾

وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِۦ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَىٰ مَآ أَنفَقَ فِيهَا وَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَٰلَيْتَنِى لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّىٓ أَحَدًا ﴿٤٢﴾

وَلَمْ تَكُن لَّهُۥ فِئَةٌ يَنصُرُونَهُۥ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَمَا كَانَ مُنتَصِرًا ﴿٤٣﴾ هُنَالِكَ ٱلْوَلَٰيَةُ لِلَّهِ ٱلْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا ﴿٤٤﴾

وَٱضْرِبْ لَهُم مَّثَلَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ ٱلرِّيَٰحُ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ مُّقْتَدِرًا ﴿٤٥﴾ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴿٤٦﴾

الكلمات الغريبة في الآيات :

١ ـ حففْناهما بنخل	أحطناهما بنخل .
٢ ـ لم تَظلم منه شيئاً	لم تُنقص من ثمرها شيئاً .
٣ ـ أعزُّ نفرا	أقوى أعواناً وعشيرة .
٤ ـ أن تبيد	أن تهلك وتفنى .
٥ ـ منقلباً	مرجعاً .
٦ ـ حُسْباناً	عذاباً كالصواعق .
٧ ـ تصبح صعيداً زلقاً	تصبح تراباً أملس لا نبات فيه .
٨ ـ غَوْراً	يغور في الأرض ويذهب داخلها .
٩ ـ أُحيط بثمره	أُهلكت أمواله .
١٠ ـ خيرٌ عُقْبا	خيرٌ عاقبةً لأوليائه .
١١ ـ هَشيماً	عشباً يابساً مقطَّعاً .
١٢ ـ تذْروه الرياح	تنسِفه وتفرقه في الفضاء .

موجَز القصة من خلال القرآن :

تُقـدِّم لنـا هـذه القصـة نـظرتين مختلفتين للحيـاة ومـا فيهـا من مـظاهـرَ وممتلكات .

نظرةُ رجل مؤمن لم يملك من مـظاهر الـدنيا شيئـاً، ومـع ذلك لم يفقـد منظاره الإيماني وميزانَه الإسلامي ، فنظر بدقة لما في الدنيا، ووزَن ذلك وزْنـاً صحيحاً صائباً .

ونظرةُ رجل كافر، منحَه الله جنتين جميلتين، وبستانين واسعيْن . كـانتا جنتين من أعناب، والأعناب مُحـاطة بـأسراب النخـل، وكان الـزرعُ يُزرع بين الأشجار. وقد أمر الله الجنتين أن تنتجا لِمالكهما الكافر كـل ما فيهمـا من ثمار وأُكُل. فاستجابتا لأمر الله، وقد متا ثمارهما، ولم تبقيا من أُكُلِهما شيئاً .

وفُتن الرجل الكافر بما يملك من الدنيـا ومتاعِهـا، وظنَّ أن هذا هـو كل شيء، ونسي الله واليوم الآخـر، فتاهَ على صاحبه المؤمن، وتكبَّر عليه، واعتبر نفسه أفضلَ منـه عند النـاس وعند الله . فقـال لصاحبـه، وهو يحـاوره ويناقشـه ويجادله ويتيـه عليه : أنـا أكثر منـك مالاً وأعـزُّ نفراً . وذلـك لأنه قـاس مظاهـر الفضل والتفضيل بالمال والمتاع، ورأى أنه مقدَّم عند الناس لماله ومتاعه، فهو أكثر أنصاراً، وأعز جاهاً عندهم .

وذهب إلى جنَّته، ودخلها وهو ظالم لنفسه، مطمـوسٌ على قلبه لكفـره، فظنها دائمة خالدة وأنها هي كل شيء، وأنه ليس هناك بعث ولا قيامـة، وقال : ما أظن أن تبيد هذه أبداً . وما أظن الساعة قائمة .

واستدرك قائلاً : لئن رُددت إلى ربـي لأجدن خيراً منها منقلباً . فإذا كـان هنـاك بعث ونشور، ورُددت إلى ربـي ، فـإنني سأكـون عنده هنـاك في تكـريم وفضل، وسيعطيني هناك خيراً من هذه الجنة . لأنـه أكرمني في الـدنيا ومنحني

هذه الجنة، وبما أنني محَلٌّ لهذا الإكرام والإنعام، فإنه سيعطيني الخير الكثير هناك. هذا إذا رُددت إليه!!

لكنّ صاحبه المؤمن بقي متمسكاً بميزانه ومنظاره الإيمانييْن، ولم تخدعه المظاهر التي يملكها هذا الرجل الغني الكافر، كما أنه لم يضعُف أمامه، ولم يجبن ولم يسكت، بل حاوره بمنطق المسلم الواثق الثابت البصير.

فقال له وهو يحاوره: أكفرتَ بالذي خلقك من تراب ثم من نطفة ثم سواك رجلاً؟ لكن هو الله ربي، ولا أشرك بربي أحداً.

وأرشد صاحبَه إلى معرفة فضل الله، وعدمِ الاغترار بالمظاهر الزائلة، وقال له: لولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله، لا قوّة إلا بالله.

وحذَّره من عاقبة كفره وبطره وبغيه، واغتراره بجنتيه وما فيهما، فإن الله قادر على أن يهلكهما ويدمرهما، ويوقع به نتيجة كفره وبطره، وطالبَه أن يتوقع صاعقة مدمِّرة تدمِّر جنتيه، وتزيل ما فيهما من أعناب ونخيل وزروع، فتصبحَ كل واحدة منهما تراباً أملس أجرد. وأن يتوقع ذهاب النهر الذي بين الجنتين، وأن يغور في باطن الأرض بأمر الله، فهل يستطيع إعادته؟.

وأوقع الله بالكافر الفاجر عاقبةَ كفره وفجوره، وأزالَ عنه نعمته، وأرسل صاعقة مدمرة دمّرت ما في جنتيه، كما توَقَّع صاحبه المؤمن.

وندم الكافر، وقت لم ينفعه الندم، وأصبح يقلب كفيه، وهو حزين لضياع ما أنفق فيها، بعدما ذهب كل ذلك، وأصبحت خاوية على عروشها.

وصار هذا الكافر يتمنى لو كان مؤمناً بالله شاكراً له، ويقول: يا ليتي لم أشرك بربي أحداً.

وبقيتْ قصةُ الرجلين: المؤمن البصير، والكافر الفاجر، بارزةً مَعْلَماً إيمانياً، ومنارةَ ذكرى وعبرة.

وعقَّب عليها القرآن بأن الكافر خسر وهلك، ولمَّا وقع به وبجنتيه عذابُ الله وأمرُه، لم يجد فئة ولا قوة ولا جيشاً ولا حزباً ينصرونه ويحمونه، ويوقِفون عنه عذابَ الله، ولهذا هلك وخسر وما كان منتصراً.

هنالك الولاية لله الحق، فالفائز والسعيد هو من كان الله معه، موفِّقاً ومؤيِّداً وحافظاً وناصراً، وهو الذي يحبه الله، ولو لم يمنحه من مظاهر المتاع الدنيوي الزائل شيئاً، يكفي أن الله وهبه إيماناً ويقيناً وثقة واستعلاء، وسعادةً وأُنساً وراحة. مثل الرجل المؤمن الذي حاور وجادل الرجل الفاجر الكافر.

الدنيا كلها زائلة، وما فيها من متاع ومال وبنين زينةٌ لها، زينةٌ سرعان ما تزول، كما زالت جنتا الرجل الكافر.

والباقيات الصالحات خير عند الله ثواباً وخيرٌ أملاً، كما حصل للرجل المؤمن البصير.

وما على الناس إلا أن يختاروا أيَّ النموذجين: نموذج الرجل المؤمن البصير، أو نموذج الكافر الفاجر البَطِر المغرور.

لكن عليهم أن يتحملوا نتيجة الاختيار، بعدما عرفوا عاقبة الإيمان، وعاقبة الكفر والبغي والغرور.

هي قصة حقيقية لا تمثيلية:

ظن بعض الناظرين في قصة صاحب الجنتيْن أنها قصة رمزية وليست واقعية، وتمثيلية وليست حقيقية، وأن القرآن عرضها مثالاً تمثيلياً للخير والشر، والإيمان والكفر، والإقبالِ على الدنيا والزهد فيها، حيث قدم هذه المفاهيم في نموذجيْن تقريبيين وصورتيْن تمثيليتيْن.

وكلام هؤلاء غير دقيق ولا مقبول. لأن قبوله يُفضي إلى التشكيك في واقعية القصص القرآني، والظنِّ بأنه رمزي تمثيلي، بمعنى أنه لم يكن صدقاً،

بـل كان أساطير، وهـذا هو قـول الكافـرين الذين اتهمـوا القرآن بـأنه أسـاطير الأولين.

المحقِّقـون المنصفون من العلمـاء على أن قصص القـرآن واقعيٌ وليس رمـزياً، وحقيقي وليس تمثيليـاً، بمعنى أن هذا القصص كـان له وجـودٌ واقعي حقيقي في سـالف الزمـان، وأَن أَبطالـه كانـوا أشخاصـاً أحيـاء حقيقيين، وأن أحداثه جرت عملياً على وجه الأرض.

وقصة صاحب الجنتين لا تخرج عن هذا المضمـون. فهي تعرض قصـة رجلين حقيقيين، جـرت بينهمـا الأحـداث التي أشـارت لهـا آيـات القصـة، وكانت أحداثاً حقيقية واقعية.

تفصيلات القصة من المبهمات:

وقـد ينتقل بعض النـاس من واقعية القصـة إلى خطوة أخـرى، فيـطالب بتفصيـلات القصة، ويقـول: قدِّمـوا لنا هـذه التفصيلات، طـالما هي حقيقيـة واقعية.

ونقول: لا يلزم من واقعية القصة الوقوفُ على تفصيلات أحداثها، فهما قضيتان منفصلتان غيرُ متلازمتيْن.

وقعيةُ القصة شيء، وإلمامُنا بتفصيلاتها شيء آخر.

لقـد جـرتْ أحـداثُهـا فيمـا سبق من الـزمـان وشهـدت الأرضُ تلك الأحداث.

لكننا مطالبون بتلقِّي تفصيلات قصص السابقين ـ الواقعية الحقيقية ـ من المصـادر اليقينية الصحيحـة المأمـونة ـ وهي مقصـورة على القـرآن الكـريم، والحـديث النبوي الصحيـح ـ حتى لا نفتـري على السـابقين، ولا نضيف إلى تلك الأحداث إضافات لم تحصل.

فإذا ما توجْهنا إلى المصادر الصحيحة لنبحث فيها عن تفصيلات قصة صاحب الجنتين، فإننا لن نجد عندها إلا ما ورد في القرآن الكريم فقط. ولا توجد إضافات على ذلك في الأحاديث النبوية الصحيحة.

ولهذا نقرر أن تفصيلات القصة من المبهمات التي لا نبحث عن بيانها.

ومن ثم تكون أسئلة مثل هذه لا جواب عليها:

من هما الرجلان اللذان كانا يتحاوران ؟ ما هما اسماهما؟ في أي بلد كانا يعيشان؟ وفي أي زمان وُجِدا؟ وما درجة قرابتهما لبعضهما؟ وما الذي جمع بينهما؟ وأين كانت جنتا الرجل الكافر؟ وما هي تفصيلات زرعهما وأشجارهما؟ وكيف ومتى أرسل الله عليها حُسباناً من السماء؟ وماذا جرى لهما بعد تدمير الجنتين؟.

هذه الأسئلة من المبهمات، ولذلك لا جواب عليها من المصادر الصحيحة، ولهذا لا ننفق طاقتنا المحدودة في بحثها، ولا نضيِّع وقتنا ووقت الآخرين بها. ويكفينا ما عرضه القرآن من القصة ففي ذلك تتحقق العبرة والعظة.

واضرب لهم مثلاً رجلينْ:

لماذا ضرب القرآن لنا مثل الرجلين؟ ولماذا عرض علينا قصة الرجلين؟ ولماذا طلب القرآن من الرسول عليه الصلاة والسلام أن يضرب للناس مثلهما؟ وما هي الحقائق التي تقررها هذه القصة؟.

قصة صاحب الجنتين وصاحِبِه لا تخرج عن الهدف من قصص سورة الكهف، والذي يهدف إلى «تصحيح العقيدة، وتصحيح منهج النظر والفكر. وتصحيح القيم بميزان العقيدة..».

إن القصةَ تُصحح العقيدة، عندما طالب الرجل المؤمن صاحبه بالإيمان بالله وشكره، وحذَّره من عاقبة كفره وبَغْيه.

كما أنها تصحح القيم بميزان العقيدة، حيث تبيِّن عاقبة من اغتر بما يملك من متاع الدنيا، فركَنَ إليه واعتزَّ به، فتبدَّد من أمامه. كما تبيِّن عاقبةَ من اعتَّز بربه ولجأ إليه، وآثر ما عنده، فوجده خيراً ثواباً وخيراً أملاً.

هذان الرجلان، اللذان ضربتْهما سورةُ الكهف مثلاً لنا، عبارة عن نموذجين بشريين، قد يكونان في أيّة بقعة من الأرض، وفي أيّ زمان من التاريخ، ولا تكاد تخلو فترة من هذيْن النموذجيْن. ولذلك يدعونا القرآن إلى ملاحظة ذلك فيما نراه ونلحظه!.

واضْرب لهم مثلاً رجلين: ليس الأمر موجَّهاً لرسول الله ﷺ فقط، بل هو يشمل كلَّ ناظرٍ في القرآن، يحمل واجبَ الدعوةِ إلى الله، ونُصْحِ وتذكيرِ الآخرين. فيطالبه القرآن بضرب الأمثال للسامعين، ليكون هذا أَدْعى إلى استجابَتهم، ويطالبه باللجوء إلى القصص، وسيلةً من أساليب الدعوة.

الله يمنح النعيم الدنيوي للكافر:

نرى في القصة، النعيمَ الماديَّ الدنيوي قد منحه الله للكافر، ومنَّ به عليه. فهو له جنتان من أعناب، محفوفة بنخل، وبينهما زرع، ويجري خلالهما نهر، وكلتا الجنتين آتت أُكُلَها، فكان لصاحبهما ثمر، وشعر بالغِنى والمال والعزة والجاه، ودخل جنته وهو ظالم لنفسه، وقال ما أظن أن تبيدَ هذه أبداً.

أما صاحبُه المؤمن فلم يكن يملك من المتاع الدنيوي شيئاً. ولذلك تاهَ عليه الكافر وقال له: أنا أكثرُ منك مالاً وأعزُّ نفراً، فردَّ عليه: إن ترن أنا أقلَّ منك مالاً وولداً، فعسى ربي أن يُؤتين خيراً من جنتك.

والذي نلحظه من الآيات أن هذا المنحَ للكافر والمنعَ للمؤمن، إنما هو ابتلاء من الله لكلا الرجلين.

إبتُليَ الكافرُ بالنعم الغامرة، فسقط في الامتحان وازداد كفراً.

وابتُليَ المؤمنُ بالمنع من تلك المظاهر المادية، فنجح في الامتحان وازداد إيماناً.

كما نلحظ من ذلك حقيقةً قرآنية إيمانية جازمة: وهي أن المتاعَ الدنيوي الزائل ليس مظهراً للتكريم الرباني، والحرمانَ من هذا المتاع ليس مظهراً للهوان على الله.

إن هذا المتاعَ أهونُ على الله من أن يكون مجالاً للتكريم والهوان، أو المحبة والبغضاء، ولذلك يَهَبُ الله هذا المتاع الزائل للكافرين أكثر مما يمنحه للمسلمين.

وقد ذمّ القرآن قصيري النظر الذين يظنون هذا الظن فقال: ﴿فَأَمّا الإنْسانُ إذا ما ابْتَلاهُ رَبُّه * فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَه * فَيَقول: رَبِّي أَكْرَمَن * وَأَمَّا إذا ما ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فيقول: رَبّي أهانَن. كَلاّ﴾[1].

إن الله يُعطي الدنيا مَن يُحب ومَن لا يُحب، ولكنه لا يعطي الإيمان والدين إلا لمن يُحب فقط.

إسناد الأفعال إلى الله:

نلاحظ في الآية الأولى ملاحظةً نحوية بيانية، ذاتَ دلالةٍ إيمانية عقيدية. قال الله: ﴿جعَلْنا لِأَحدِهِما جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْناب * وَحَفَفْنا هُما بنَخل * وَجَعَلْنا بَيْنَهُمَا زَرعاً﴾.

لقد أُسندت الأفعالُ الثلاثة الماضية إلى الله:

جعلْنا لأحدهما جنتين من أعناب.

(١) سورة الفجر: آيات ١٥ ــ ١٧.

حففْناهما بنخل.
جعلْنا بينهما زرعاً.

وهـذه اللفتة النحـوية البيـانية، تـدلُّنا على أن الله سبحـانه هـو الفـاعـل الحقيقي، والمقدِّر للجنتين وما فيهما من زروع وأشجار وثمار.

إن الآية تجرد صاحب الجنتين الكافـر من أي جهد فيهمـا، مـع أنه قـد يكون هو الذي حَرَث وزرع، وغرس ونمّى، وحفظ وتعاهد. صحيـح أنه فعل هذه الأشياء المادية، فيكون هو سبباً مادياً ظاهرياً.

لكن جهدَه لن يتم إذا لم يُرد الله ذلـك، وعملَه سيضيـع إذا لم يُقدِّر الله ذلك، وما في الجنتين لن ينمو ويثمر، إذا لم يشأ اللَّهُ ذلك.

صاحب الجنتين سبَب والله هو المسبِّب، وهو الذي يحـرث ويزرع والله هو الذي يُقدّر ويشاء. وما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن.

ولـذلك أُسنـدت الأفعـال إلى الله، وجُـرِّد الكـافـرُ من أيِّ جهـد لـه في الجنتين.

وهـذا ما يقـرره القرآن في سـورة الواقعـة: ﴿أفَرَأَيْتُم مـا تَحْرُثـون؟ أأَنْتُمْ تَـزْرَعونَـهُ أَمْ نَحْنُ الزّارِعـون؟ لَوْ نَشـاءُ لَجَعَلْناهُ حُـطاماً فَـظَلْتُمْ تَفَكَّهـون * إِنّـا لَمُغْرَمون * بل نَحْنُ مَحْرومون﴾[1].

ونفهم من إسناد الأفعال إلى الله أمـراً آخر، وهـو تقبيـحُ صنيـعِ صاحب الجنتَيْن، في كفـره وبغيه وبـطره، وبيانُ أنـه لا حَقَّ له في هـذه التصرفـات. فالجنتّان اللتان يختال بسببهما ليس له يَدٌ فيهما. فالله جعلهما له. والله حفَّهما بنخل. والله جعل بينهما زرعاً. والله فجرَّ خلالهما نهراً. وهذا الرجـل بدل أن يشكر الله على هذه النعم، كفرَ به واختال تيهاً وعربد.

---

(١) سورة الواقعة: آيات ٦٣ ــ ٦٧.

لفتة زراعية في تنسيق الجنتين:

هناك نظرة أخرى في الآيات التي عرَضت الجنتين، وهي نظرةٌ فنيةٌ زراعية هندسية تنسيقية هذه المرة.

إن الآيات تقدم لنا صورةً نموذجية فنية، في تنسيق الجنة، وهندسة البستان، وغَرْس الأشجار فيه بطريقة فنية ساحرة رائعة.

إنهما جنتان من أعناب.
حفَّهما الله بنخل.
وجعل بينهما زرعاً.
وفجر خلالهما نهراً.

ونتج عن هذا أن كلتا الجنتين آتَتْ أُكُلها، ولم تظلم منه شيئاً.

ونفهم أن المقصود من هذا التفصيل في هندسة وإنشاء الجنتين ــ على غير المعهود من القرآن في المرورِ السريع على أمثالِ هذه المسائل التفصيلية الثانوية ــ دعوةُ الناظرين في القرآن والمتدبِّرين له، إلى ملاحظة هذه اللَّفتة الهندسية التنسيقية.

إننا عندما نلاحظ هذه اللفتة نحقِّق بعضَ الأمور. منها:

١ ــ التذوقُ الجمالي الفني لآيات القرآن، من حيث إشارتُه إلى هذا البعد الهندسي الزراعي في تنسيق الحدائق والبساتين.

٢ ــ الاقتداءُ بهذا العرض القرآني، وتنسيقُ الحدائق والبساتين على هذا الأساس.

٣ ــ الاستفادةُ من القرآن في ترتيب الأشياء ترتيباً هندسياً فنياً، سواء في عالم الزراعة أو غيرها. فليس المهم هو أداءُ الشيء والقيام بالعمل فقط، بل المهم أداء العمل بعينٍ فنية، وذوقٍ جمالي، ويدٍ مرتِّبة منسِّقة.

أنظر ما أجمل تنسيق وهندسة الجنتين:

أشجار الأعناب المعروشة وغيرُ المعروشة. أسرابُ النخل تحف هذه الأشجار، وتحيط بها وكأنها سورٌ لها. الزروع والحبوب التي تنمو بجانب الأعناب. النهر الجاري خلال الجنتين كلتيهما.

ولا ننسى أن هذا التنسيقَ والترتيبَ الهندسي الجمالي الفني، لم يحقق المتعةَ الجمالية فقط، ولكنَّهُ حقَّقَ نجاحاً زراعياً واقتصادياً. حيث آتت كلتا الجنتين أُكُلها، ولم تظلم منه شيئاً.

إن الترتيبَ والتنسيقَ يقود إلى تحسين الأداء، واستغلال طاقة الأرض في العطاء، والشجر في الإثمار.

فالأرضُ لا تعطيك إلا بمقدار ما تعطيها، والشجرةُ تحتاج منك إلى عناية ورعاية، وجهد وتنسيق، حتى تمنحك ما عندها من ثمر.

هما لم تظلما وصاحبهما ظالم:

وردت إشارتان للظلم في الآيات التي تحدثت عن قصة صاحب الجنتين. مرة منفية، ومرة مثبَتة.

في المرة الأولى نفى القرآن الظلم عن الجنتين، قال: ﴿كِلْتَا الْجَنَّتَيْنِ آتَتْ أُكُلَهَا * وَلَمْ تَظْلِم مِنْهُ شَيْئاً﴾ لقد قدمت الجنتان ما عندهما من ثمار وأُكُل، ولم تُبقِيا منه شيئاً، وعبَّر القرآن عن ذلك بالظلم فقال: ﴿ولَم تظلم منه شيئاً﴾.

وفي المرة الثانية أَثْبت القرآن الظلم لصاحبهما فقال: ﴿وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِه﴾. فهو ظالم، بينما جنتاه غير ظالمتين.

وقد يعجب المتدبر للقرآن من هذا الموقف:

جنة مكوَّنة من زروع وأعناب ونخيل، كانت عادلة، بحيث لم تظلم، ولم تُخْفِ من ثمارها شيئاً. نباتٌ وتراب وجماد ينفي القرآن عنه الظلم!.

وإنسانٌ مكوَّن من عقل وروح، وله مشاعر وعواطف وأفكار، ومع ذلك كان ظالماً في حياته، ودخل هذا الإنسان الظالم جنته غير الظالمة، فأخذ ثمارها التي قدَمْتها له بكرم وسخاء، أخذها بظلم وبغي وبطر!.

عجيبٌ هذا الأمر: نبات كريم مِعْطاء لا يظلم، وإنسان بخيل مغرور ظالم.

ولا ننسى أن القرآن أضاف ظلم الإنسان الكافر لنفسه، فهو ظالم لنفسه: لأنه كفر بالله، فأوردها موارد الهلكة. وهو ظالم لنفسه: لأنه أضاع أمواله. وظالم لنفسه: لأنه خسر جنتيه. وظالم لنفسه: لأنه بدَّل نعمةَ الله كفراً. ولا يظلم الظالم في الحقيقة إلا نفسَه، ولا يحيق المكرُ السيء إلا بأهله.

تصوُّرُ مغرورٍ مخدوع:

صوَّر لنا القرآن الكريم صاحبَ الجنتين الكافر، بصورة عجيبة، وأطلَعَنا على تصرفاته الغريبة، وسجَّل لنا أقواله المنتفشَة، وكشف لنا عن تصوره الباطل المريض.

والذي يجمع تلك التصرفات والأقوال، هو أنها صدرت عن إنسانٍ مغرورٍ ومخدوع، أَعْماه المال والمتاع والمظاهرُ المادية، وأوقَعه ثراؤُه العريض في بطر وتكبر وخيلاء، وغبَّشتْ كلُّ هذه الآفات على تصوره، فلم يدْرِ ماذا يقول، ولا كيف يتصرف، ولا كيف يزن نفسه ويعرف قيمتها.

لقد أثبت له القرآن التصرفاتِ والأقوالَ التالية:

١ ــ دخل جنته وهو ظالم لنفسه.

٢ ــ ظن أن تلك الجنة باقيـة، وأن نعيمَها دائم، ولـذلك ركنَ إليهـا، وقال: ما أظن أن تبيد هذه أبداً.

٣ ــ ونتـج عن ركونه إلى جنته واكتفائِه بما فيها، نسيانُه الدار الآخرة، وإنكارُه قيامَ الساعة، فقال: وما أظن الساعة قائمة.

٤ ــ وإذا كانت هناك ساعة وقيـامة كمـا يقول المؤمنـون، وإذا ما بعث الله هذا الغنيَّ من قبره، وردَّه إليه، فإن الله هناك سيُنعم عليه بمـا هو خيـرٌ من هذه الجنة، فبما أن الله منحه جنَّتين في الـدنيا، فـإنه سيمنحـهُ ما هـو خير في الآخـرة، ــ هذا إذا كـانت هناك آخـرة ــ ولذلـك قـال: ولئن رُدِدْتُ إلى ربـي لأجدن خيراً منها منقلباً.

٥ ــ وقادَه هذا كله إلى أن يتيه على صاحبه المؤمن وهو يحاوره، فقال له: أنا أكثر منك مالاً وأعز نفراً.

ظن أن مجـالَ التفضيلِ هـو كثرة المـال، فهـو لكثـرةِ مـالـه أفضـلُ من صاحبه. وظن أن ميدانَ الاحترام ومجالَ التقديم، هو النَّفَرُ والسلطان والجـاه، وطالما هو يملك ذلك فهو أثقل في ميزانه من صاحبه.

إن الغرورَ يُعمي صاحبَه عن الحقائق، وإن التوجه نحو المتاع الـدنيوي الزائل يُغْشي أبصارَ صاحبه عن الطريق الصحيح المستقيم.

المنطق الإيماني في محاورة المؤمن له:

إذا كنا قد اطَّلَعْنا على منطق التكبر والغرور والبطر والخيلاء عند الرجـل الكافر، فإن القرآن قـدَّم لنا منـطقاً آخـر، وهو منـطق طيب لطيف محبَّب، إنـه منطق الإيمان الذي تجلَّى في محاورة الرجل المؤمن لصاحبه الكافر.

كان هذا الرجلُ المؤمن مجـرَّداً من المظاهـر الماديـة الخادعـة، والمتاع الدنيوي الزائل الزائف، وبقي محتفظاً بإيمانه ويقينه وصفائه.

لقد رأى صاحبه وهو مغرورٌ بما تملَّك، وسمع كلامه وهو يتيه ويتجبر، ويطغى ويبطر، فلم يَخْدع ذلك الموقف هذا الرجل البصير، ولم يَشعر بالضعف أو الذل أو الجبن أمام صاحبه الفاجر، ولم يُقِس نفسه به، ولم يتمنَّ أن يملك مثلَ ما ملك، كما أنه لم يُؤْثِر أن ينسحب من الميدان، وأن ينعزل في زاوية لحمد ربه وشكره.

إنه وقف أمام صاحبه البطِر المغرور، محاوراً مجادلاً، وتكلم معه بجرأةٍ وعزَّةٍ ويقين، وثباتٍ واستعلاء، وخاطبه ناصحاً موضِّحاً مبيِّناً، ودلَّه على الطريق الصحيح، وأرشده إلى سبيل الفضل والتفضيل، وعلَّمه كيف ينظر إلى ما منحه الله من متاع، وكيف يتصرف فيه. ودعاه إلى التواضعِ وحسنِ التصرف، وإلى التعرف على ربه الذي منحه وحفظه ورزقه، وعرَّفهَ بأصله وبدايته قبل أن يصير إلى ما صار إليه.

﴿قالَ لَهُ صاحِبُهُ ـ وَهُوَ يحاوِرُه ـ أَكَفَرْتَ بالذَّي خَلَقَكَ مِنْ تُراب * ثُمَّ مِنْ نُطْفَة * ثُمَّ سَوّاكَ رَجُلاً * لٰكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبّي * وَلاَ أُشْرِكُ بِرَبّي أَحَداً * وَلَوْلاَ إذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ: ما شَاءَ الله * لا قُوَّةَ إلاّ بِالله.

إنْ تَرَنِ أَنا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَولَداً؟ فَعَسَى رَبّي أَنْ يُؤْتِينِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِكَ * وَيُرْسِلَ عَلَيْها حُسْباناً مِنَ السَّماء * فَتُصْبِحَ صَعيداً زَلَقاً أَوْ يُصْبِحَ ماؤُها غَوْراً * فَلَنْ تَسْتَطِيعَ لَهُ طَلَباً﴾.

ونستفيدُ من هذا الرجل المؤمن منطقَه وأسلوبَه في الحوار والجدال، حيث يُعلِّمُنا أن نُحاور الآخرين، وأن نُبطِل شبهاتِهم، وأن نُزيل الغشاوة عن عيونهم، وأن نُصحح لهم تصوَّرهم ونظرتهم، وأن لا يمنعنا ما هم عليه من الجاهِ والمنزلةِ والسلطانِ والنعيم، من محاورتهم.

كما يُعلِّمُنا أن لا نخدع أنفسنا، فنقيس أنفسنا بهم، ونتمنى ما هم عليه، فنحن أقوى وأثبت، وأعزُّ وأفضل، وأغنى وأقرب منهم، طالما أننا نملك الإيمانَ بالله سبحانه.

ما شاء الله لا قوة إلا بالله:

أرشد الرجلُ المؤمن صاحبَه الكافر وهو يحاوره إلى التصرف اللائقِ الصحيح، الذي يشكر فيه ربَّه، ويعمل على دوام نعمة الله عليه. وطالبَه بأن يلجأ إلى الله، وأن يعلِّق الأمر على مشيئته، ويجعله مرهوناً بقدرته، وأن يستمد قوته من قوة الله سبحانه.

قال له: «وَلَوْلَآ إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ: ما شَاءَ اللهُ، لا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ».

وهناك حكمةٌ عظيمة من نطق المؤمن بهذه العبارة الإيمانية، عندما يعجبهُ شيء من ماله أو أهله أو ولده.

إنه يعترف أنه نال ما نال بإرادةِ الله ومشيئتِه، وليس بجهده هو ولا كسْبِه وسعيه. ولهذا يقول: ما شاء الله.

ثم هو يعتقد بأن القوة لا تكون إلا عندما تُستمد من قوة الله، فالله وحده هو القوي القادر القاهر، وهو الذي يَهب الناس القوة، وإذا سلب اللَّهُ إنساناً القوةَ، فلن تنفعه قُوى الأرض كلها، ولن تقْدر على منحه القوة. ولهذا ينطق لسانُه قائلاً: لا قوة إلا بالله.

إن هذه العبارةَ القرآنية الإيمانية، دليلُ على قوة إيمان قائلها، وعلى لجوئه إلى الله، وشعورهِ بفقره إليه وضعْفه بين يديه.

كما أن هذه العبارة تدعو قائلَها إلى التواضع والاعتدال، وتقضي على الفخر والبطر والعلوِّ والتكبر.

وهي تدعو صاحبَها إلى استخدام النعمة التي بين يديه في نفع عباد الله، وفي ما يُقرِّبه من ربه، ويعينُه على ذكره وشكره وحسن عبادته.

وقد وعى الصالحون عن هذه العبارة الإيمانية ما توحي به، ولذلك كانت حركاتُهم وأعمالُهم محكومةً بها، كما كانوا ينطقون بها عندما تعجبهم أموالهم أو أولادهم أو عقاراتهم.

ورد عن عروة بن الزبير رضي الله عنه، أنه كان إذا رأى من ماله شيئاً يُعجبُه، أو دخل حائطاً من حيطانه قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله. وهو بذلك يتأوَّل قول الله تعالى: ﴿وَلَوْلَا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ: مَا شَاءَ اللهُ * لَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللهِ﴾.

وورد عن ابن شهاب الزهري، أنه كان إذا دخل أمواله قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله.

وورد عن الإمام مالك، أنه كان إذا دخل بيته قال: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله. فقال له تلميذُه مُطَرِّف في ذلك: لِمَ تقول هذا؟ فقال لِمُطَرِّف: ألا تسمعُ الله يقول: وَلولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله، لا قوة إلا بالله.

وروى ميسرة قائلاً: رأيتُ على باب وهب بن مُنَبِّه مكتوباً: ما شاء الله وذلك قول الله: ولولا إذ دخلت جنتك قلت: ما شاء الله. لا قوة إلا بالله[1].

علينا أن نجعل هذه العبارة الإيمانية شعاراً دائماً لنا، تعيها قلوبُنا، وتنطق بها ألسنتُنا، ونعيشها في كيانِنا وواقعِنا وحياتنا، حتى تدومَ علينا نِعَمُ الله، وحتى نشكرَ الله عليها.

وأحيط بثمره:

حذّر الرجل المؤمن صاحبَه الكافر من زوال نعمة الله عليه بسبب كفره وبطره، وبيّن له أن الله قد يدّمر له جنتَه التي كان يتباهى بها. وقال له: فعسى ربي أن يؤتين خيراً من جنتك، ويرسلَ عليها حسباناً من السماء، فتصبح صعيداً زلقاً. أو يصبح ماؤها غوراً فلن تستطيع له طلباً.

ولكنَّ صاحبه لم يرتدع ولم يرعَوِ، وبقي على كفره وتكبره وبطره وفجوره.

---

(١) انظر الدر المنثور للسيوطي ٥: ٣٩١.

وأخيراً عامله الله بما يستحقه، وأخذه بأعماله، وأوقعَ به عاقبةَ فجورهِ وبطرهِ وكفرهِ، وأزال عنه نعمته، وأهلك له جنتيْه، وأذهب ما فيهما من أعناب ونخيلَ وزرع، وتبدّد ما فيهما من ثمر، وغار ما فيهما من ماء.

كل هذا عبّر عنه القرآن بقوله: ﴿وأحيط بثمره﴾ والإحاطة هنا تعني الإهلاك والدمار والزوال.

ذهب المتاعُ والمال والنعيم، الذي أمضى عَمره ووقته وجهده فيه، وأنفق ماله وجهدَه في رعايته وتنميته. ذهب هذا كله في لحظة، وصار أثراً وحديثاً.

حتى الفعلُ بني للمجهول، وحُذف فاعله «وأُحيط بثمره».

وهناك بعضُ الحِكَم مِن بناء الفعل للمجهول منها:

١ ــ إن صاحبَ الجنتين لم يعرف الفاعل، بمعنى أنه لم يَعرف السبب في زوال جنتيه، وذهبت به الظنون كل مذهب في تقدير الفاعل.

٢ ــ اختلافُ المراقبين والمشاهدين والمحللين في تقدير الفاعل، حيث سيجعل بعضُهم السبب في العوامل الجوية، وبعضهم يجعله في العوامل الزراعية، وبعضهم في الإنفاق والمال، وبعضهم يُحيل على إهمال صاحِبهما وتقصيره، وغيرِ ذلك. وقليلٌ سيفطن إلى السببِ الإيماني والعاملِ الرباني، ويجعل ذلك في كفره وفسوقه وعصيانه، ولذلك وقع به سوءُ عمله.

٣ ــ نسب القرآن الإنعام إلى الله، وأسند الأفعال في أول القصة إليه ﴿جعلنا لأحدهما جنتين من أعناب وحففناهما بنخل * وجعلنا بينهما زرعاً. . .﴾ ــ وقد بيّنا فيما سبق دلالة هذا الإسناد ــ وذلك ليظهر فضل الله على الإنسان في الفضلِ والتكريمِ والإنعام، فيشكرُ الله ويطيعُه في هذه النعم.

أما هنا فليس من المناسب أن يُسند إذهابُ النعمة، وإزالتُها عن صاحبها إلى الله، مع أن الله حكيم عادل في هذا الإذهاب ــ والله أعلم ــ.

نَدَمُه وخسارَتُه :

فوجىء الرجل الكافر بهلاك ماله، وضياع أعماله، في لحظة عابرة. فشعر بخسارتِه وضلاله، وضياعِ مستقبلِه ومصيره. فندم، ندم ندامةً بالغة، عبّر عنها القرآن بقوله: ﴿وَأُحيطَ بِثَمَره * فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلى ما أَنْفَقَ فيها وَهِيَ خاوِيَةٌ عَلى عُروشِها وَيَقول: يا لَيْتَني لَمْ أُشْرِكْ بِرَبّي أَحداً﴾.

أصبح يقلبِ كفيّه حسرةً وندامة وحيرة.

ندم على ما أنفق فيها وهي خاوية على عروشها.

راجع حساباتِه، ونظر إلى رصيدِه، وجمع نفقاتِه، التي أَنْفَقَها عليها.

وكلمة «ما أنفق فيها» كلمةٌ عامةٌ، شاملةٌ لكل صور الإنفاق المادية والمعنوية.

أنفق عليها الكثيرَ من المال، ومع ذلك ضاع وتبدد.

أنفق عليها من وقته، الذي كان يقضيه فيها ومن أجلها، وأخيراً ذهب وقتُه هباءً وخسارة.

أنفق عليها الكثيرَ من جهده البدني، في مسيره إليها، وتفقُّدِه لها، وجولاتِه خلالها، وها هو جهده يضيع.

أنفق عليها الكثير من مشاريعِه ومخططاتِه وبرامجِه وخبراتِه، وها هي كلُّها أمامه دماراً وهلاكاً وفناء.

أنفق عليها الكثير من أحلامه وخيالاته، وآماله وأمنياته، التي حلم بها، وعاش لها، واعتمد عليها. وها هي تتبدد تحت الحقيقة المُرة الواقعية.

أنفق عليها حياته التي عاشها من أجلها، وعمرَه الذي قضاه فيها ولها، ومالَه الذي رصده لها.

وها هو كل ما أنفقه أمامه، يراه ويتعامل معه. دماراً وخسارة وفناء.

ولـذلك نـدم نـدامـة بـالغـة، وأصبح يقلب كفيّـه، وهـو يسترجـع هـذه النفقات، ويستحضر تلك الخسائر.

فانطلق لسانُه قائلاً: يا ليتني لم أشرك بربـي أحداً.

ما أبلغَها ندامة، وما أفدحَها خسارة، وما أتعسَها حيـاة، و ما أضيعـه من عمر، وما أضله من إنسان.

هـذا الإنسانُ الـذي كان يختـال تيهاً وانتفـاشـاً وبـطراً واستعـلاءً، هـذا الإنسان الذي افتخر على صاحبه المؤمن بماله وجنته، وقال له: أنا أكثرُ منـك مالاً، وأعزُّ نفراً. هذا الإنسانُ الذي نظر إلى جنته فقال عنها: مـا أظن أن تبيد هذه أبداً.

هـذا الإنسان الآن يـرى جنتَّه قـد بادتْ وانتهتْ، فنـدم نـدامـةً عمليـة، تمثلت في تقليبـه لكفيه. ونـدامةً قـولية، تمثلت في قـوله: يـا ليتني لم أشرك بربـي أحداً.

هنالك الوَلاية لله الحق:

عقّب القرآن على خسارة الرجل الكافر، وإهلاك جنتيْه، قائلاً: ﴿هُنالِكَ الوَلايَةُ لِلَّهِ الحَقِّ * هُوَ خَيْرٌ ثَواباً * وَخَيْرٌ عُقْباً﴾.

وهذا التعقيب يقدِّم لنا حقيقةً قـرآنيةً صادقة، وقاعدةً إيمـانية دائمـة، إن الله وحده هو الولي، وإن الولاية لا تكون إلا لله، وإنّ من تولاه الله فهو الفائز، وإن من تخلى عنه الله فهو الخاسر المخـذول. وإن عاقبـةَ الولايـة لله، الفلاحُ والنجاحُ والخير، وإن صاحبَها ينال من الله الثواب الجزيل.

وهـذا الأمر أبـرزُ ما يكـون في قصة الـرجلين، الـرجـلِ المؤمن بـالله، وصاحبِ الذي كفر بالله واعتز بجنتيْه.

المؤمنُ بالله اتخذ الله ولياً، ورغِب بما عنده، واستعلى على متاع الدنيا وزينتها، وقال لصاحبه وهو يحاوره: ﴿لٰكِنَّ هُوَ اللَّهُ رَبِّي * وَلا أُشْرِكُ بِرَبِّي أَحداً * وَلَوْلا إِذْ دَخَلْتَ جَنَّتَكَ قُلْتَ: ما شاءَ الله * لا قُوَّةَ إلاّ بالله * إِنْ تَرَنِ أَنا أَقَلَّ مِنْكَ مالاً وَوَلَداً، فعَسى رَبِّي أَنْ يُؤْتِيَنِ خَيْراً مِنْ جَنَّتِك﴾.

وكانت العاقبةُ الخيِّرة والثوابُ العميم، لهذا الرجل المؤمن، حيث وجد أن الله هو خيرٌ ثواباً وخيرٌ عقباً.

لقد كان مؤمناً بربه، موالياً له، ولذلك كان مفلحاً ناجحاً، وما ذاك إلا لأن الولاية الحَقّة، لا تكون إلا لله الولي الحق.

أما الرجل الكافر فقد والى غيرَ الله، وركن إلى غير الله، واعتزَّ بغير الله، وآثر ما عند غير الله، لقد اعتمد على جنتيه، وركن إليهما، وآثر نعيمهما، واعتز بأهله وماله وجاهه، فماذا نال؟.

ذهب كلُّ ما والاه واعتمد عليه. واعتَّز به وركن إليه، ذهب في لحظات، فأصبح هذا الرجل ضعيفاً عاجزاً مهموماً مخذولاً، نادماً متحسراً، خاسراً ضائعاً «فما كان له من فئة ينصرونه من دون الله، وما كان منتصراً».

ولقد وعى التاريخ كثيراً من النماذج التي تتجلى فيها هذه الحقيقةُ القرآنية والقاعدةُ الإيمانية بارزة، حيث سجّل لنا خسارةَ وذلَّ وضعفَ الذين اتخذوا غير الله ولياً، من أمثال قارون وفرعون.

كما سجّل لنا التاريخ أمثلة إيمانية لمن اتخذوا الله ولياً، فنالوا التوفيقَ والفلاحَ والعزة والسعادة والخير، في الدنيا قبل الآخرة.

ولقد عَرَض القرآن علينا هذيْن النموذجيْن، من أجل أن نختار، ونعرف كيف نختار، ونتحمل عاقبة ذلك الاختيار.

هل نختار الولاية لله؟ ونتوجّه إليه؟ ونرجو ما عنده؟ إنْ فعلْنا ذلك، فلنا

قـدوةٌ بالـرجل المؤمن في القصـة، وسوف نحصـل على ما نـريد، ونـال خير ما نريد.

وكل من اختار ولاية غير الله، واقتدى بالرجل الكـافر صـاحب الجنتيْن، فـلا يلومَنَّ إلا نفسـه، لأنـه سيجـد نفسـه مجـرَّداً من القــوة والمنعـة والجــاه والسلطان، وعندها سيندم يوم لا ينفعه الندم، ويومها ستكون خسـارته لا نهـاية لها.

«هنالك الولاية لله الحق، هـو خير ثواباً وخير عقباً».

مثل الحياة الدنيا:

وبينمـا النفوس متـابِعةٌ للسيـاق القـرآني، وبينمـا هي منفعلةٌ بمـا جـرى للكافر صاحب الجنتين، وبعد أن عـرفت هذه النفـوس حقيقةً أسـاسيةً للحيـاة البشـرية، وهي أن الـولاية الحق لا تكـون إلا لله. في هذه الأجـواء والظلال. يضرب القرآنُ لها مَثَل الحياة الدنيا.

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الحياة الدُّنْيا كَماءٍ أَنْـزَلْناهُ مِنَ السَّمـاء * فَاخْتَلَطَ بِهِ نَباتُ الأَرْض * فَأَصْبَـحَ هَشيماً تَذْروهُ الرِّياح * وكـانَ اللَّهُ عَلى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾.

وقد ضَرَبَ القرآن هذا المثل، تعقيباً على قصـة صاحب الجنتين، حيث دمَّر الله الجنتين في لحظات، وطُويَت صفحةُ وجودهما، بعد أن أمَّل صاحبهما استمرارهما وبقاءَهما، وعدمَ هلاكهما.

الحياة الدنيا كلها ــ في هذا المثَل ــ قصيرةٌ سريعةٌ زائلة. إنها مثْـلُ ماء أنـزله الله من السمـاء في لحـظات، فـاختلط بـه نبـات الأرض في لحـظات، فأصبـح هذا النبات هشيماً تذروه الرياح، في لحظات.

إن هذا المَثَل المضروب، يعرض الحياة الدنيـا في شريطٍ خيـالي قصيرِ

العرض سريعِ النَّبض، متسارعِ الحلقات. وهو نموذج للمشاهد القصيرة السريعة في القرآن.

ها هو الماء نازل من السماء وها هو النبات قد اختلط به ـ ولم يختلط هو بالنبات، من أجل الإسراع في العَرْض ـ وها هو النبات يَيْبَس، ويصبحُ هشيماً يابساً مَحْصوداً مطحوناً، مجموعاً في كومة تَذْروه الرياح، وتحمله معها إلى بعيد.

وقد شاركت «الفاء» التي تفيد الترتيب مع التعقيب الفوري، في سرعة العرض، وتتابع الحلقات.

وحتى نقوم بتأمُّل أعمق، لسرعةِ العرض وتقصيرِ المشهد المعروض للحياة الدنيا، نتذكر مثلاً آخر ضَرَبه القرآن للحياة الدنيا، مَشْهدٌ مطَّولٌ، بطيءُ العْرض، واني الخطوات: إنه في قول الله سبحانه: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ يُزْجِي سَحَاباً * ثُمَّ يُؤَلِّفُ بَيْنَه * ثُمَّ يَجْعَلَهُ رُكاماً * فَترى الوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلالِه * وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ مِنْ جبالٍ فِيها مِنْ بَرَد * فَيُصيبُ بِهِ مَنْ يَشاء * وَيَصْرِفُهُ عَنْ مَنْ يَشاء * يَكادُسَنا بَرْقِهِ يَذْهَبُ بِالأَبْصار﴾[1].

لقد كان المشهدُ المعروضُ للحياة الدنيا في سورة الكهف سريعاً قصيراً، متناسقاً مع جَوِّ المشهد، ومناسباً للسياق الذي عُرِض فيه. حيث جاء في التعقيب على قصة الجنتين اللتيْن اعتمد عليهما صاحبهما، فزالتا في لحظات، وهما جزء من الحياة الدنيا.

فكما أن الجنتين زالتا ودُمِّرتا في لحظات، فكذلك الحياةُ الدنيا تزول في لحظات. وكما خسر صاحب الجنتين فيهما كل شيء، كذلك كلُّ مَنْ رَكَن إلى الدنيا ونسي ربه، يخسر فيها كل شيء، لأنه يركن إلى ظل زائلٍ، ومتاع ذاهب، وخيال خادع.

---

(١) سورة النور: آية ٤٣.

وهل هذا التمثيل لسرعة وقِصَر الحياةِ الدنيا خيالي أو واقعي؟ حقيقي أو مجازي؟.

إنَّه واقعي حقيقي، وله صدقٌ ووجود في الحياة، فماذا تُساوي الدنيا بمجموعها بالقياس إلى الآخرة؟ وماذا يُساوي عمر الإنسان الذي يعيشه فيها؟ ماذا يُساوي بالقياس إلى الدنيا نفسها؟ وماذا يساوي بالقياس إلى حياته في الآخرة؟ إنه لا يكاد يُذكر، إنه قصير قصير، وسريع سريع، فما أقصرها وما أهونها من حياة!.

قال تعالى: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثوا إلاّ ساعَةً مِنَ النَّهارِ يَتَعارفون بَيْنَهُمْ﴾[1].

وقال تعالى: ﴿قالَ كَمْ لَبِثْتُمْ في الأَرْضِ عَدَدَ سنين؟ قالوا: لَبِثْنا يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ فَاسْأَلِ العادِّين * قال: إنْ لَبِثْتُمْ إلاّ قليلاً لَوْ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَعْلَمون﴾[2].

وقال تعالى: ﴿أَلْهاكُمُ التَّكاثُر حَتّى زُرْتُمُ المَقابِر﴾[3].

زينة الحياة الدنيا:

وبعد أن بيَّن القرآنُ قِصَر الحياة الدنيا، وسرعةَ انقضائها وزوالها، بيَّن لنا أنَّ ما فيها إنما هو ظل زائل. فقال: ﴿المالُ والبنونَ زينةُ الحياةِ الدُّنيا﴾.

وهذه كذلك حقيقةٌ قرآنيةٌ قاطعة، فالمالُ والبنونَ ليسا هما كل الحياة الدنيا، ولا هما أهم شيء في الحياة الدنيا، ولكنهما زينةُ الحياة الدنيا. وهذا يعني أن ننظر لهما بهذا المنظار، ونتعامل معهما على هذا الأساس.

---

(١) سورة يونس: آية ٤٥.
(٢) سورة المؤمنون: آيات ١١٢ ــ ١١٤.
(٣) سورة التكاثر: آيات ١ ــ ٢.

كلمـة «زينة» تقـدِّم هذا المعنى، وتُلقي هـذا الـظل، لأن معنى الـزينـة هو الشيء الخارجي، الذي يقدَّم للتزيين والمتعة الفنيـة الجماليـة، ولكنه ليس جزءاً من حقائق الأمر وأساسياته.

قال الإمامُ الراغب في مفرداته عن الزينة: «الزينةُ الحقيقية، مـا لا يَشينُ الإنسانَ في شيء من أحواله، لا في الدنيـا ولا في الآخرة. فـأَما مـا يزينُـه في حالة دون حالة، فهو من وجه شين.

والزينةُ بالقول المجمَل ثلاثٌ:

١ ــ زينةٌ نفسية: كالعِلم والاعتقادات الحسنة.

٢ ــ زينةٌ بدنية: كالقوة وطول القامة.

٣ ــ زينةٌ خارجية: كالمال والجاه»[١].

واعتبـار المال والبنين زينـةَ الحياة الـدنيا، لا يعني إهمـالَهمـا وتـركَهمـا باعتبارهما زينةً للحياة، وقد يَصرفان عن الإيمان بالله، ويُشغلان صاحبَهما عن التوجُّه إلى الله!.

إن المسلم مطالبٌ بالتعامل مـع زينة المال والبنين، وأن تكون نظرتُه لها محكومةً بتوجيهات القرآن وحقائقه.

يتعامل معها على أنها زينةٌ للدنيا، زينةٌ لتجميل الحياة وتحسينها ولحُسن الاستمتاع بها، ولا يعطيها أكبـرَ من هذا الحجم، ولا يجعـل لها أكبـرَ من هذا الدور، لا يجوز أن يعتبر المال والبنين هما كلُّ شيء في الحيـاة، أو أَن يَنْشغل بهما عن الله، أو أن يعتمد عليهما من دون الله.

هما زينة، يتعامل معهمـا كزينـة، وينظر لهمـا كزينـة، ويتصرف معهمـا كـزينـة، وصـدق الله حيث يقـول: ﴿زُيِّنَ لِلنَّـاسِ حُبُّ الشَّهَـواتِ مِنَ النِّسـاءِ

---

(١) المفردات: ٢١٨.

وَالبَنِينَ وَالقَناطِيرِ المُقَنْطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالفِضَّةِ وَالخَيْلِ المُسَوَّمَةِ وَالأَنْعـامِ وَالحَرْثِ * ذٰلِكَ مَتاعُ الحَياةِ الدُّنْيا * وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ المَآبِ﴾[1].

ووصْفُ المال والبنين بالزينة، يُلقي ظلاً آخر مناسباً للجو والسياق الذي وردتْ فيه الآية، ظلَّ فناء الجنتيْن ودمارهما. فالزينـةُ تعني زوال الشيء وفناءه وليس بقاءه وثباتَه واستمرارَه.

وقـد عبَّر القـرآن عنهما في مـوضـع آخر، بـأنهما زهـرة الحياة الـدنيـا. فقال: ﴿وَلا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إلى ما مَتَّعْنا بِهِ أزْواجاً مِنْهُم * زَهْرَةَ الحَيـاةِ الدُّنْيـا * لِنَفْتِنَهُمْ فيه﴾[2].

فالزهرةُ عمرها قصير، إذ سرعان ما تَذوي وتذبل وتموت، والزينة بقاؤهـا قليل، إذ سرعان ما تتلاشى وتزول.

وهكذا المال ظلٌّ زائل، والبنون عاريةٌ مستَرَدَّة.

وكم يخسر الذين يركنون إلى هذا الظل الزائل والعارية المستردَة.

الباقيات الصالحات خير:

وإذا كان المال والبنون زينةَ الحياة الدنيا، فإن القرآن يرشدنا إلى الشيء الثـابت في الحياة، الـذي يستحق أن تُـوجَّـه لـه الاهتمـامـات، وتصـرفَ فيـه الأعمار، وتُنفق فيه الأوقات، قال: ﴿والباقيات الصالحات خير عند ربك ثوابـاً وخير أملاً﴾.

وذِكْر الباقيات الصالحات مقصودٌ، بعد ذكر زينـة الحياة الـدنيا الـزائلة، وفي التعقيب على قصة الجنتيْن المدمَّرتين، وخسارة صاحبهما.

---

(١) سورة آل عمران: آية ١٤.

(٢) سورة طٰه: آية ١٣١.

المال والبنون زينة زائلة، فما هو الباقي؟.

الجنتان الأرضيتان زالتا ودَمِّرتا، فما هو الباقي؟.

إنه الباقيات الصالحات، التي هي خير عند الله ثواباً، حيث يُجزي صاحبُها ثواباً خيِّراً جزيلاً جميلاً. وهي خيرٌ أملاً، أي خيرُ ما يأمل فيها صاحبها، فإذا عقد أملَه عليها فلن يفقد ذلك الأمل، وإذا رجى فيها أمنيته، فلن يخيب فيها رجاؤه.

ما هي الباقيات الصالحات؟.

أورد علماء السلف أقوالاً متقاربةً في بيانها:

فقال ابن عباس وابن جُبَير وغيرُ واحد من السلف: إنها الصلوات الخمس.

ورُوي عن ابن عباس قوله: هي: سبحان الله، والحمد لله، ولا إله إلا الله، والله أكبر.

ورُوي عن عثمان بن عفان قوله: هي سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله، والله أكبر، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

ورُوي عن ابن عباس قوله: هي الكلام الطيب.

ورُوي عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله: هي الأعمال الصالحة كلُّها[١].

فإذا نظرنا في هذه الأقوال فإننا نجدها متقاربة، وليست متعارضة، وأنه يمكن الجمعُ بينها، باعتبارها كلِّها من الباقيات الصالحات. فكل عالِم من

---

(١) انظر ابن كثير ٣: ٨٥ ــ ٨٧ باختصار.

العلماء أشار إلى نموذج منها، وهذه النماذج ــ وغيرها ــ تكوِّن بمجموعها: الباقيات الصالحات.

الباقيات الصالحات هي الأعمال الصالحة، هي الإسلام بعمومه، من شعائر وشرائع وسلوك.

واعتبرها القرآن باقيةً لأنها فعلاً باقية. باقيةٌ في أثرها في حياة صاحبها، وباقيةٌ في تعمُّقها في نفسيته وتصوُّره وكيانه وشخصيته، ثم هي باقيةٌ في المجتمع وأعرافه وعاداته، وهي باقيةٌ لصاحبها في ميزانه يوم القيامة، وباقيةٌ له عندما تؤهِّله ــ بإذن الله ــ للدخول في الجنة، والتنعم الدائم فيها، والخلود الأبدي في جناتها. هذه الباقيات الصالحات التي يجب أن يهتم بها المسلمون، وأن يُقبِلوا عليها، ويُكْثِروا منها.

خلاصة لأهم دلالات القصة:

١ ــ قصةُ صاحب الجنتين قصة حقيقية، حدثتْ في ماضي الزمان، وليست تمثيلية رمزية خيالية.

٢ ــ تفصيلاتُ القصة من المبهمات التي لا يجوز أن نحاول بيانها. ولا نَقْبَل إلا ما ورد في القرآن عنها، لأنه لم يصح فيها شيء عن رسول الله ﷺ.

٣ ــ ضَرْب الأمثال في القرآن يقرِّب المعاني النظرية إلى النفس الإنسانية، ويرسِّخ المعاني التي ضُربت من أجلها الأمثال.

٤ ــ الرجلان المؤمن والكافر في القصة نموذجان بشريان مكروران، قد يوجَدان في أي زمان ومكان.

٥ ــ وجوبُ استفادة الدعاة من أسلوب القرآن في الدعوة والبيان، وذلك بإيراد القصص وضرْب الأمثال.

٦ ـ الله قد يُملي للكافر، فيمنحه الكثيرَ من النِّعم، ويكون هذا للابتلاء والامتحان، وليس دليل محبة الله له ورضاه عنه.

٧ ـ الله قد يبتلي المؤمنَ فيضيِّق عليه في رزقه، ويحجب عنه المتاع الزائل، وهذا لا يدل على بغضه له.

فالمتاع الدنيوي أهونُ على الله من أن يكون مجالاً للتكريم أو الإهانة، وإن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب، ولا يعطي الدين إلا لمن يحب.

٨ ـ اللَّهُ وحده هو الذي يمنح الرزق والنعيم والعطاء، وما الإنسانُ وجهدُه وفكرُه ومشاريعُه وأمواله إلا أسبابٌ مادية ظاهرية.

٩ ـ في القرآن لفتة فنية زراعية إلى طريقة تنسيق الجنات والحدائق والبساتين، وذلك في عرضه لترتيب الزروع والثمار في الجنتين.

١٠ ـ العنايةُ بالأرض، وترتيبُ زراعتها، وتنسيقُ مزروعاتها وأشجارها، يقدِّم متعة فنية، ويؤدي إلى زيادة العطاء والإنتاج فيها.

١١ ـ الأرض لا تظلم ولا تمنع إنتاجها، فتمنح الناس بدون تفريق ولا تمييز، ومع ذلك فالناس الكفار يظلِمون فيكفرون ويمنعون. أفلا يقتدون بالأرض في العطاء؟

١٢ ـ صاحبُ الجنتين الكافر أعماه البطر والغرور عن رؤية الحقائق، فتصرَّف بغرور خادع. وهكذا كل من اغتر بالمظاهر الدنيوية الزائلة.

١٣ ـ من التصورات الضالة عند المغرورين، أن يظنوا أنهم سيكرمهم الله يوم القيامة لأنه أكرمهم في الدنيا، وأن المؤمنين لن يُكرمهم يوم القيامة، لأنه حرمهم من المال والمتاع في الدنيا.

١٤ ـ الإيمان هو صَمام الأمان لصاحبه، فيبقى مُسْتَعلياً بإيمانه، معتّزاً بربه، لا يضعف ولا يذل ولا يجبن أمام أصحاب المتاع المادي، ولا يتمنى أن يكون مثلهم.

١٥ ــ وجوبُ نُصح المغرورين، المخدوعين بما هم عليه من النعيم، وتحذيرِهم من عاقبة ما هم فيه، ومطالبتِهم بشكر الله على فضله، واستعمالِ نعمته في طاعته.

١٦ ــ من أسس التصور الإسلامي أنه لا يكون إلا ما يريده الله، فما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، ولا قوَّة إلا بالله، ومن لم يمنحه الله القوة فلا قوة له.

١٧ ــ «ما شاء الله، لا قوَّة إلا بالله» عبارةٌ إيمانية قرآنية، يقولها صاحبها عندما يُعجبُه شيء من أهله أو ولده أو ماله، وبهذا يشكر الله، ويسعى إلى دوام النعمة، واستعمالِها فيما يرضي ربه.

١٨ ــ عذاب الله واقع بالمغرورين الكافرين، حيث يمحق ما هم فيه من نعيم، وهو جزاء ما قاموا به من ممارسات باطلة.

١٩ ــ قد تختلف تقديرات وتعليلاتُ وتحليلاتُ الناس بشأن ما يصيب الكافرين والمغرورين من كوارث ومصائب، لكنها يجب أن تتفق على كون ذلك من أمر الله عقاباً لأعداء الله، جزاء ما عملوه.

٢٠ ــ عندما تزول النعمة ويُمحق الرزق، يقع الإنسان الكافر المغرور بالحسرة والندم، لكنه يكون وقت لا ينفع الندم.

٢١ ــ عند العذاب والمحنة، يبدو للمغرور صدقُ ما حذَّره منه الصالحون والناصحون. فيتمنى أن لو صدَّقهم، ولكن لا تتحقق تلك الأمنية.

٢٢ ــ الولاية الحقة لا تكون إلا لله، فكل من اعتزَّ بالله وجد عنده ما يريد، وكلُّ مَنْ اعتز بغير الله ذلَّ وخسر، وكل الأولياء عاجزون عن النصر والنفع، وكل الأشياء والقوى والمظاهر والأسباب، عاجزةٌ أمام قدر الله وإرادته وجنوده.

٢٣ ـ إنَّ مَنْ كان مع الله لم يَخْسر شيئاً في الحقيقة، ولو فاتته الدنيا ونعيمُها، وإن من لم يكن مع الله لم يكسب شيئاً، ولو مَلَك كلَّ ما في الدنيا.

٢٤ ـ الحياةُ الدنيا سريعةٌ قصيرة زائلة، فما أخسر الذي يركن إليها ويعتمد عليها، وهذه حقيقة قائمة، فكم سيعيش عليها، وكم سيجمع مما فيها؟ وماذا بعد ذلك؟.

٢٥ [illegible] الدنيا ونعيمها وما فيها هو زينةٌ لها، وهو ضروري لتزيين الح[illegible] في الحياة. لكن لا يجوز أن نجعله

[illegible] حي بِقِصرَها وزوالها، كالزينة

[illegible] الذين يجعلونها كل شيء.

[illegible] يهتم بالأساسيات، فيقدِّم الباقي

[illegible] جل على الآجل، ويُكثر مما ينفعه

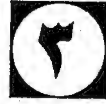
[illegible] يه.

[illegible] الحسنة هي الباقيات الصالحات، فهي

[illegible] في الآمال لصاحبها، خير لأن صاحبها

[illegible]، ويجد الثواب الجزيل الجميل عليها.

* * *



قِصَّةُ مُوسَىٰ مَعَ الخِضْر
عليهما السلام

قِصَّةُ مُوسَىٰ مَعَ الخِضْرِ

«عليهما السلام»

القصة في العرض القرآني :

قال تعالى : ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾

فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا ﴿٦١﴾

فَلَمَّا جَاوَزَا قَالَ لِفَتَىٰهُ ءَاتِنَا غَدَآءَنَا لَقَدْ لَقِينَا مِن سَفَرِنَا هَٰذَا نَصَبًا ﴿٦٢﴾

قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ وَمَآ أَنسَىٰنِيهُ إِلَّا ٱلشَّيْطَٰنُ أَنْ أَذْكُرَهُۥ وَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ عَجَبًا ﴿٦٣﴾

قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِ

فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴿٦٤﴾ فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا ﴿٦٥﴾

قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴿٦٦﴾

قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِىَ صَبْرًا ﴿٦٧﴾ وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَىٰ مَا لَمْ تُحِطْ بِهِۦ خُبْرًا ﴿٦٨﴾

قَالَ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ صَابِرٗا وَلَآ أَعۡصِي لَكَ أَمۡرٗا ﴿٦٩﴾

قَالَ فَإِنِ ٱتَّبَعۡتَنِي فَلَا تَسۡـَٔلۡنِي عَن شَيۡءٍ حَتَّىٰٓ أُحۡدِثَ لَكَ مِنۡهُ ذِكۡرٗا ﴿٧٠﴾

فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَا رَكِبَا فِي ٱلسَّفِينَةِ خَرَقَهَاۖ

قَالَ أَخَرَقۡتَهَا لِتُغۡرِقَ أَهۡلَهَا لَقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـًٔا إِمۡرٗا ﴿٧١﴾

قَالَ أَلَمۡ أَقُلۡ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٢﴾

قَالَ لَا تُؤَاخِذۡنِي بِمَا نَسِيتُ وَلَا تُرۡهِقۡنِي مِنۡ أَمۡرِي عُسۡرٗا ﴿٧٣﴾

فَٱنطَلَقَا

حَتَّىٰٓ إِذَا لَقِيَا غُلَٰمٗا فَقَتَلَهُۥ

قَالَ أَقَتَلۡتَ نَفۡسٗا زَكِيَّةَۢ بِغَيۡرِ نَفۡسٖ لَّقَدۡ جِئۡتَ شَيۡـٔٗا نُّكۡرٗا ﴿٧٤﴾

۞ قَالَ أَلَمۡ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسۡتَطِيعَ مَعِيَ صَبۡرٗا ﴿٧٥﴾

قَالَ إِن سَأَلۡتُكَ عَن شَيۡءِۭ بَعۡدَهَا فَلَا تُصَٰحِبۡنِيۖ قَدۡ بَلَغۡتَ مِن لَّدُنِّي عُذۡرٗا ﴿٧٦﴾

فَٱنطَلَقَا

حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهۡلَ قَرۡيَةٍ ٱسۡتَطۡعَمَآ أَهۡلَهَا فَأَبَوۡاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَارٗا يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُۥۖ

قَالَ لَوۡ شِئۡتَ لَتَّخَذۡتَ عَلَيۡهِ أَجۡرٗا ﴿٧٧﴾

قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيۡنِي وَبَيۡنِكَۚ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأۡوِيلِ مَا لَمۡ تَسۡتَطِع عَّلَيۡهِ صَبۡرًا ﴿٧٨﴾

أَمَّا ٱلسَّفِينَةُ فَكَانَتۡ لِمَسَٰكِينَ يَعۡمَلُونَ فِي ٱلۡبَحۡرِ فَأَرَدتُّ أَنۡ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٞ يَأۡخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصۡبٗا ﴿٧٩﴾

وَأَمَّا ٱلْغُلَٰمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَٰنًا وَكُفْرًا ﴿٨٠﴾
فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْرًا مِّنْهُ زَكَوٰةً وَأَقْرَبَ رُحْمًا ﴿٨١﴾

وَأَمَّا ٱلْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَٰمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِى ٱلْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُۥ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَٰلِحًا فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ ۚ

وَمَا فَعَلْتُهُۥ عَنْ أَمْرِى ۚ

ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْرًا ﴿٨٢﴾ ﴾.

(سورة الكهف: آيات ٦ ـ ٨٢)

القصة في الحديث النبوي:

سوف نتبع المنهجية العلمية التي قررها العلماء، وطالبوا الناظرين في قصص السابقين في القرآن بالتزامها ومراعاتها، وهي وجوبُ اللجوء إلى ما صحَّ من الحديث النبوي عن قصص السابقين، وعدم تجاوزه إلى الأساطير والإسرائيليات والأخبار غير الثابتة.

في قصة موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ نجد أن رسول الله ﷺ قد وضَّح بعض التفصيلات، وأضاف على العرض القرآني إضافات، وقد أورد معظمُ المحدِّثين في كتبهم طرفاً من أحاديث رسول الله ﷺ بهذا الخصوص.

وقد وردت أحاديثُ تلك القصة عند البخاري ومسلم وأبي داود والترمذي والنسائي وابن ماجة وأحمد والحاكم وغيرهم.

كما وردت تفصيلات عن القصة في كتب التاريخ كتاريخ الطبري وابن كثير وابن الأثير وغيرها.

هذا وقد تناول هذه القصة المفسرون أثناء تناولهم آياتها.

ويعنينا هنا تفصيلات القصة، فيما صح من الأحاديث النبوية.

وسنكتفي بإيراد ما اتفق عليه الشيخان البخاري ومسلم عنها.

أورد الإمام البخاري القصة في عدة مواطن من صحيحه: حيث أوردها في عدة أبواب من كتاب العلم، وفي الإجارة، وفي الشروط، وفي بدء الخلق، وفي الأنبياء، وفي التفسير، وفي الأَيْمان والنذور، وفي التوحيد.

أما مسلم فقد أخرجها في كتاب الفضائل، باب فضائل الخضر عليه السلام.

وسوف نورد خلاصة الروايات المذكورة في الصحيحين:

روى البخاري ومسلم عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود عن عبد الله بن عباس رضي الله عنهما: أنه تمارى هو والحُرُّ بْنُ قَيْسِ بْنِ حِصْن الفُزاري في صاحب موسى عليه السلام، فقال ابن عباس: هو الخَضِر.

فمرّ بهما أُبَيُّ بْنُ كعب الأنصاري رضي الله عنه، فدعاه ابن عباس فقال: يا أبا الطُّفَيْل، هلمَّ إلينا. فإني قد تمارَيْت أنا وصاحبي هذا في صاحب موسى الذي سأل السبيلَ إلى لُقِيِّه فهل سمعت رسول الله ﷺ يذكر شأنه؟.

فقال أُبَيّ: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: بينما موسى في مَلَأ من بني إسرائيل، إذْ جاءه رجل، فقال له: هل تعلم أحداً أعلم منك؟.

قال: لا.

فأوحى الله إلى موسى: بل عَبْدُنا الخَضِر.

فسأل موسى السبيل إلى لُقِيِّه، فجعل الله له الحوت آية. وقيل له: إذا افتقدتَ الحوت فارجع، فإنك ستلقاه.

فسار موسى ما شاء الله أن يسير، ثم قال لفتاه: آتنا غداءنا.

فقال فتى موسى حين سأله الغداء: أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت، وما أنسانيهُ إلا الشيطان أن أذكره.

فقال موسى لفتاه: ذلك ما كنا نبغي.

فارتدا على آثارهما قصصاً، فوجدا خضراً. فكان من شأنهما ما قصه الله في كتابه»[1].

ويعتبر ذلك الحديث موجَزاً للقصة، وفيما يلي حديثٌ مطوَّل عند البخاري ومسلم أيضاً.

عن سعيد بن جُبير رضي الله عنه قال: إنّا لَعِنْدَ ابن عباس في بيته، إذ قال: سلوني.

قلت: أَيْ أبا عباس، جعلني الله فداءك. في الكوفة رجل قاص يقال له «نَوْف البِكَالِيّ» يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بني إسرائيل، ليس هو موسى صاحب الخضر عليه السلام!.

فقال: كذب عدوُّ الله!.

سمعت أُبَـيّ بْنَ كعب يقول:

سمعت رسول الله ﷺ يقول: «بينما موسى في قومه يُذكِّرهم بأيام الله ـ وأيامه نعماؤه وبلاؤه ـ فسُئل: أي الناس أعلم؟.

فقال: أنا أعلم!.

فعتب الله عليه، إذ لم يرد العلم إليه.

---

(١) البخاري (٦٠) كتاب الأنبياء (٢٧) باب الخضر مع موسى عليهما السلام، حديث رقم ٣٤٠٠. ومسلم (٤٣) كتاب الفضائل (٤٦) باب فضائل الخضر عليه السلام، حديث رقم ٢٣٨٠.

فأوحى الله إليه: إنّ عبداً من عِبادي بمجْمع البحرين، هو أعلم منك.

قال: موسى: أيْ رب. كيف لي به؟ دُلَّني عليه.

فقيل له: احمل حوتاً مالحاً في مِكْتَل، فحيث تفقد الحوت فهو ثَمَّ.

فانطلَقَ، وانطلَقَ معه فتاه، وهو «يوشع بن نون» فحمل موسى عليه السلام حوتاً في مِكْتل، وانطلق هو وفتاه يمشيان، حتى أتيا الصخرة. فرقد موسى عليه السلام، وفتاه.

فاضطرب الحوت في المكتل، حتى خرج من المكتل، فسقط في البحر. وأمسك الله عنه جَرْيَةَ الماء، حتى كان مثل الطّاق، فكان للحوت سَرَبا، وكان لموسى وفتاه عَجَبا.

فانطلقا بقية يومهما وليلتهما. ونسي صاحب موسى أن يخبره.

فلما أصبح موسى عليه السلام، قال لفتاه: آتنا غداءَنا، لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً، ولم يجد موسى مَسَّاً من النصب، حتى جاوز المكان الذي أُمِر به.

فتذكَّرَ، وقال: أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيت الحوت، وما أنسانيهُ إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً.

قال موسى: ذلك ما كنا نبغي. فارتدا على آثارهما قصصاً، يقصان آثارهما. حتى أَتَيا الصخرة، فكان الحوت.

قال: ههنا وُصِف لي. فذهب يلتمس، فإذا هو بالخضر، مُسَجّى ثوباً، مستلقياً على القفا.

فسلم عليه موسى. فكشف الخضر الثوب عن وجهه، وقال: عليك السلام. أَنّى بأرضك السلام؟.

قال: أنا موسى.

قال: موسى بني إسرائيل؟

قال: نعم.

قال: إنك على علم من علم الله عَلَّمَكَهُ الله، لا أعلمه. وأنا على علم من علم الله علمنيه، لا تعلمه.

قال له موسى: هل أتبعك على أن تعلمني مما عُلِّمت رشداً؟.

قال: إنك لن تستطيع معي صبراً. وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً، شيءٌ أُمِرْتُ به أن أفعله، إذا رأيتَه لم تصبر.

قال: ستجدني إن شاء الله صابراً، ولا أعصي لك أمراً.

قال له الخضر: فإن اتبعْتَني فلا تسألني عن شيء، حتى أُحدث لك منه ذكراً.

قال: نعم.

فانطلق الخضر وموسى يمشيان على ساحل البحر، ليس لهما سفينة، فمرَّت بهما سفينة، فكَلَّماهم أن يحملوهما. فعرفوا الخضر، فحملوهما بغير نَوْل.

فجاء عصفور فوقع على حرف السفينة، فنقر نقرة أو نقرتين في البحر.

فقال الخضر لموسى عليهما السلام: يا موسى: ما نقص علمي وعلمك من علم الله، إلا كنقرة هذا العصفور في البحر!.

فعَمَد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة، فنزعه!.

فقال له موسى: قوم حملونا بغير نَوْل، عمدت إلى سفينتهم، فخرقتها لتغرق أهلها، لقد جئت شيئاً إمراً.

قال: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟.

قال: لا تؤاخِذْني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عُسْراً.

ثم خرجا من السفينة، فبينما هما يمشيان على الساحل، إذا غلام يلعب مع الغلمان، فأخذ الخضر برأسه فاقتلعه بيده، فقتله.

فذُعِر موسى ذَعْرة منكرة، وقال: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً؟.

قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً؟ وهذه أشد من الأولى.

فقال رسول الله ﷺ: رحمة الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجَّل لرأى العجب، ولكنه أخذته من صاحبه ذِمامَة.

قال موسى: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني، قد بلغت من لدني عذراً.

فانطلقا. حتى إذا أتيا أهل قرية لئاماً، فَطافا في المجالس، فاستَطْعَما أهلها فأبَوْا أن يضيفوهما، فوجدا فيها جداراً يريد أن ينقض فأقامه.

قال له موسى: قوم أتيناهم، فلم يُضيِّفونا، ولم يُطعمونا، لو شئتَ لاتخذت عليه أجراً.

قال: هذا فراق بيني وبينك، وأَخَذ بثوبه. وقال: سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً.

أمّا السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر، فأردت أن أعيبها، وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً، فإذا جاء الذي يُسَخِّرها وجدها منخرقة، فتجاوزها، فأصلَحوها بخشبة.

وأما الغلام، فطُبِعَ يوم طبع كافراً. وكان أبواه قد عطفا عليه، فلو أنه

أدرك أرهقهما طغياناً وكفراً، فأردنا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحْماً.

وأما الجدار فكان لغلامين يتيمين في المدينة، وكان تحته كنز لهما، وكان أبوهما صالحاً، فأراد ربك أن يبلُغا أشدَّهما، ويستخرجا كنزهما»(١).

بعض دلالات الأحاديث:

فيما يلي أهمُّ الدلالات التي تُؤْخَذ من الأحاديث وهي الدلالات التي أوردها الإمامُ النووي في شرحه على صحيح مسلم، والإمامُ ابن حجر في فتح الباري.

١ ـ استحباب الرحلة في طلب العلم، ولو بَعُدَتْ المسافة.

٢ ـ استحبابُ الاستكثار من العلم، فإنه مهما حصَّل منه، يبقى جاهلاً الكثير من مسائله.

٣ ـ استحباب تعلُّمِ العالم ممن هو أعلم منه، وسعيهِ إليه.

٤ ـ فضيلة طلب العلم.

٥ ـ جواز التزوُّد بوسائل الزاد وألوان الطعام عند السفر.

٦ ـ الأدب مع العالم وحرمةُ المشايخ وتَرْكُ الاعتراض عليهم.

---

(١) انظر الحديث بطرق وروايات مختلفة عند مسلم والبخاري:
انظر مسلم (٤٣) كتاب الفضائل (٤٦) باب من فضائل الخضر، حديث: ٢٣٨٠.
وانظر البخاري (٣) كتاب العلم (١٩) باب الخروج في طلب العلم، حديث رقم ٧٨
وكتاب العلم (٤٤) باب ما يستحب للعالم، حديث رقم ١٢٢.
و (٦٠) كتاب أحاديث الأنبياء (٢٧) باب حديث الخضر مع موسى، حديث ٣٤٠٠ و٣٤٠١.
و (٦٥) كتاب التفسير (٢) باب وإذ قال موسى لفتاه، حديث ٤٧٢٥، ورقم ٤٧٢٦ ٤٧٢٧.

٧ ــ تأويل ما لا يُفْهم ظاهره من الأقوال والحركات والأفعال.

٨ ــ الوفاءُ بالعهود والاعتذار عند مخالفة العهد.

٩ ــ جواز إجارة السفينة.

١٠ ــ جواز ركوب السفينة والدابة وسكنى الدار ولبس الثوب بغير أجرة، برضى صاحبه.

١١ ــ الحكم بالظاهر، حتى يتبين خلاف الظاهر.

١٢ ــ استحباب أن يبدأ الإنسان بنفسه في الدعاء وغيره من أمور الآخرة. أما حظوظ الدنيا وأمورها فالأَوْلَى الإيثار، وتقديم الغير على النفس.

١٣ ــ جواز خدمة العالم والفاضل، وقضاءِ حاجاته بدون عوض.

١٤ ــ الحث على التواضع في العلم وغيره.

١٥ ــ توجيه العالم إذا سئل: أي الناس أعلم أن يقول: الله أعلم.

١٦ ــ وجوب التسليم لكل ما جاء به الشرع. وإن لم تظهر بعض حكمته للعقول[١].

١٧ ــ جواز التجادل في العلم إذا كان بغير تعنّت.

١٨ ــ وجوب الرجوع إلى أهل العلم عند التنازع.

١٩ ــ العمل بخبر الواحد الصادق[٢].

٢٠ ــ الراجح أن الخضر عليه السلام نبي، لأدلة كثيرة نذكرها فيما بعد إن شاء الله.

---

(١) انظر هذه الأدلة في شرح النووي على مسلم ١٥: ١٣٧ و١٥: ١٤٦ ــ ١٤٧.

(٢) انظر هذه الأدلة في فتح الباري ١: ١٦٩.

٢١ ـ إن الله يفعل في ملكه ما شاء، ويحكم في خلقه بما يشاء.

٢٢ ـ الراجح أن الخضر مات قبل بعثة محمد ﷺ وسنعود إلى هذه المسألة فيما بعد إن شاء الله.

٢٣ ـ جواز قول العالم للناس: سلوني. إذا أَمِن العُجب، أو دعت الضرورة إلى ذلك.

٢٤ ـ كان الحوت ميْتاً مملَّحاً فأحياه الله، وهذا دليل على البعث.

٢٥ ـ إن فتى موسى عليه السلام وخليفتَه في قومه، هو «يوشع بن نون» رضي الله عنه.

٢٦ ـ جواز إطلاق الفتى على التابع.

٢٧ ـ جواز استخدام الحرّ في عمل من الأعمال.

٢٨ ـ وجوب طاعة الخادم لمخدومه.

٢٩ ـ عذر الناسي لأنه لا حيلة له في النسيان.

٣٠ ـ قبول الهبة من غير المسلم.

٣١ ـ جواز إخبار المسلم عما فيه من تعب أو مرض أو فقر.

٣٢ ـ المتوجِّه إلى ربه يعينه الله على رحلته فلا يسرع إليه التعب والجوع، بخلاف المتوجّه إلى غيره.

٣٣ ـ جواز طلب الضيافة، وطلبِ القوت والطعام.

٣٤ ـ قيامُ العذر بالمرة الأولى، وقيام الحجة بالمرة الثانية.

٣٥ ـ حسن الأدب مع الله، وأن لا يُضاف إليه ما يستهجن لفظه[١].

(١) انظر هذه الأدلة في فتح الباري ٨: ٤٠٩ ـ ٤٢٢.

الكلمات الغريبة في الآيات :

١ ـ مَجْمَع البحرين : مكان التقاء البحرين .

٢ ـ أمضِي حُقُبا : أسير سنين طويلة .

٣ ـ سَرَبا : طريقاً نافذاً وممراً .

٤ ـ نَصَبا : تعباً وعناء .

٥ ـ ارتدا على آثارهما قصصا : رجعا في الطريق يقصان آثار أقدامهما .

٦ ـ خُبْرا : علماً ومعرفة .

٨ ـ لا تُرهقني من أمري عُسْرا : لا تحمِّلني مشقة وعسراً .

٩ ـ شيئاً نكراً : شيئاً منكراً .

١٠ ـ وراءهم ملك : أمامهم ملك .

١١ ـ يريد أن ينقض : على وشك السقوط .

١٢ ـ يرهقهما طغياناً : يتعقُبهما بطغيانه .

١٣ ـ زكاة : ديناً وصلاحاً .

١٤ ـ أقرب رُحْماً : رحمة بهما وبراً لهما .

١٥ ـ يبلغا أَشُدَّهما : يكبرا ويصلا لكمال العقل .

فتى موسى : يوشع بن نون :

قال الله : ﴿وَإِذْ قالَ موسى لِفَتاهُ﴾ .

الفتى هو الشَاب في مقتبل العمر . ويطلق الفتى على العبد كما يطلق على التابع .

وفتى موسى هو «يوشع بن نون» رضي الله عنه .

ولا نقول بهذا من عندنا ، وإنما نعتمد في تعيينه على حديث رسول الله ﷺ ، إذ لو لم يحدِّدْه الحديث لما حددناه ، ولأبقيْناه ضمن مبهمات القصة .

لقد سبق أن أوردنا الحديث الذي رواه البخاري ومسلم عن ابن عباس رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ. ومما جاء فيه بشأن فتى موسى قوله «فانطَلَق، وانطلق معه فتاه، وهو «يوشع بن نون» فحمل موسى عليه السلام حوتاً في مكتل، وانطلق هو وفتاه يمشيان».

كان يوشع بن نون فتى لموسى عليه السلام، وتكلم بعض المفسرين عن درجة قرابته لموسى عليه السلام، واختلفوا في ذلك اختلافاً بيِّناً.

كما ذهب بعض المفسرين إلى أنه كان خادماً لموسى، وعبداً له، ورقيقاً عنده، واعتمدوا في ذلك على تعبير القرآن «وإذ قال موسى لفتاه» على أساس إطلاق «الفتى» على الخادمِ العبد.

ونرى أن الأمرَ أيسرُ من ذلك، وأن الآية لا تدل على ما قالوه، ومَنْ قال بأن «الفتى» لا تُطلَق إلا على العبد الخادم؟.

قال الإمام الراغب في المفردات «الفتى: الطَّرِيُّ من الشباب. والأنثى فتاة، والمصدر فَتاء، ويُكَنّى بهما عن العبد والأمة»[١].

إن أَصل استعمال الفتى، هو للشاب الطري في مقتبل العمر، واستعمالُه في العبيد كناية ومجاز.

وها هو القرآن يطلق على إبراهيم الخليل عليه السلام فتى: ﴿قالوا سَمِعْنَا فَتىً يَذْكُرُهُمْ يقالُ لَهُ إبْراهيم﴾[٢].

ولقد كان «يوشع بن نون» في مقتبل الشباب، عندما صحب موسى عليه السلام في هذه الرحلة، كما يبدو من الآية.

---

(١) المفردات: ٣٧٢ ـ ٣٧٣.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٦٠.

وهنـاك لفتة أخـرى من إطلاق كلمـة «فتى» على يوشـع بن نـون. وهي الإشارة إلى طاعةِ يوشـع لنبـي الله موسى عليه السـلام واتباعـه له، وهـو شبيه بطاعة العبد لسيده واتباعـه لـه.

أما إضافـة الفتى لموسى «لفتـاه» فهي إضافـة تكريم وتشـريف ليوشـع، فـلا أفضل من أن يكـون فتى وتابعـاً ومصاحبـاً لنبـي كريم من أولي العـزم من الرسل!.

هل يوشـع بن نون نبـي؟

وقـد ذهـب بعض المفسرين إلى أن «يـوشـع بن نون» نبـيٌ مِن الأنبيـاء، ولعلهم أخذوا هذا عن بني إسرائيل، الذين يقولون بنبوَّته.

ويقـولون إن يـوشـع بن نون قـاد بنـي إسرائـيـل بعـد وفـاة مـوسى عليـه السلام، وأنه دخل بهم فلسطين، وفتـح بهم بيت المقدس.

وهذا لا دليل فيه على نبوَّته رضي الله عنه.

وقـد استشهد آخـرون على نبوة يـوشـع بن نون بـالحـديث الـذي أورده مسلم في صحيحه.

حيث روى عن أبـي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قـال: «غزا نبـيٌ من الأنبياء. فقال لقومه: لا يتبْعني رجلٌ قد ملك بُضْـع امرأة، وهو يريد أن يبنيَ بها، ولَمّا يَبْن، ولا آخر قد بنى بنياناً، ولمّا يرفـع سقفها. ولا آخر قـد اشْترى غنماً أو خلِفات، وهو منْتظر وِلادَها.

فغزا فأدنى للقرية حين صلاة العصر، أو قريباً من ذلك. فقال للشمس: أنت مأمورة، وأنا مأمور. اللهم احْبِسْها عليّ شيئاً.

فحُبست عليه، حتى فتـح الله عليه..»[1].

---

(١) مسلم (٣٢) كتاب الجهاد والسير (١١) باب تحليل الغنائم لهذه الأمة، حديث ١٧٤٧.

وهذا الحديث لا يحدِّد اسم النبـي الذي حبَس الله له الشمس. ولذلـك لا نقدْر على تحديده.

وبالنسبة لنبوّة يوشـع، نرى أن الأَوْلى والأسلم أن نتوقف فيها. فلا نقول بها ولا ننفيها!.

إذا قلنا بنبوته، فقد لا يكون نبياً، وعندها نكون قد أدخْلنا في عِداد الأنبياء ما ليس منهم، وهـذا غير جائز.

وإذا نفيْنا عنه نبـوّته، فقـد يكون نبياً، وبهذا نخـرج من الأنبياء أحـدَهم وهذا غير جائز كذلك.

ولـذلك نـرى أن الأَسْلم لنا، والأَوْفق مـع العلميـة والمنهجية أن نتـوقف فيه.

دور يوشـع في حياة بني إسرائيل:

كل ما يقال عن يوشـع بن نون، إنه هو الذي استلم قيـادة بني إسرائيـل بعد موسى عليه السلام، وكان رجلاً صالحاً مؤمناً تقياً، راعى أحكامَ الله وشريعتَه في الجهاد والقتال. وأنه كان عند بني إسرائيل كما كـان أبو بكـر الصديق رضي الله عنه عند المسلمين.

هذا وتَرْسُم أخبـار بني إسرائيـل أساطيـر مصطنعـة عن يوشـع بن نـون، وبخـاصة حـول قتالـه أعداءَه، وفتحِـه مـدن فلسـطين، مثـل «أريحـا» و «بيت المقدس» وهـذه الأساطير أكاذيب وموضوعات وأباطيل.

وصدَّق أناس من العرب هذه الأكاذيب والأساطيـر الإسرائيليـة، فاتهمـوا يوشـع بالظلم والقسوةِ والتدميرِ والعنفِ والإرهـابِ والإفساد، وكـرهوه وذمّـوه، ونـرى أن يوشـعَ مبّـراً مما يقـولون، ومنـزّه عما يـزعمون، وأنـه عبد صـالـح، ومجاهد عادل، وداعية إلى الله سبحانه.

وقفة مع «نوف البِكاليّ» :

مرّ معنا فيما سبق كلامُ سعيد بن جبير لابن عباس عن نوف البكالي، حيث قال له: «أَيْ أبا عباس: جعلني الله فداءك. في الكوفة رجلٌ قاص، يقال له «نوف البكالي» يزعم أن موسى عليه السلام صاحب بني إسرائيل، ليس هو موسى صاحب الخضر عليه السلام.

فقال ابن عباس: كذب عدو الله.

ثم ساق الحديث.

ولعل الذي دفع «نوف البكالي» لهذا القول أمران:

الأول: هو إستحالة أن يتعلم موسى النبي الرسول من الخضر، وهو دون موسى في المنزلة ـ سواء قلنا بنبوة الخضر أو ولايته.

وسوف نجيب على هذه الشبهة فيما بعد ـ إن شاء الله ـ.

الثاني: أنه أخذ هذا من الإسرائيليات، وفسر بتلك الإسرائيليات كلامَ الله سبحانه.

ولقد كان «نوف» على صلة وثيقة بكعب الأحبار.

فهو «نوف بن فُضالة البكالي». وهو منسوب إلى بني بِكال من حِمْيَر في اليمن.

وكان ابن زوجة «كعب الأحبار»[1].

ولا ننسى أن كعب الأحبار كان يهودياً من يهود اليمن، ثم أسلم في عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه. وللعلماء كثيرُ كلامٍ حول كعب الأحبار وعلمه وأخباره، وأخْذه لها من الإسرائيليات، وتفسيره بها كلامَ الله.

---

(١) انظر فتح الباري ٨ : ٤١٣.

ولعل نوف البكالي أخذ هذه الآراء من زوج أمه كعب الأحبار.

ولذلك نفى اجتماعَ موسى النبي عليه السلام بالخضر، واعتبر ذلك الاجتماع مع شخص آخر من بني إسرائيل، يقال له «موسى».

إن موقف «نوف البكالي» هذا، ناتجٌ عن دخوله القرآن بمقررات سابقة غريبة عن القرآن، وتفسيره القرآن بكلام وأخبار السابقين، وهذا خطأ في المنهج، يقود إلى الخطأ في النتيجة، والخطأ في التفسير.

ولقد كان الصحابة حريصين على الالتزام بالمنهج العلمي الوثيق في فهم القرآن وتفسيره واستخراج دلالاته، وتعليم هذا لتلاميذهم.

وكانوا شديدي الإنكار على كل من خالف ذلك المنهج.

وبدا هذا الإنكار الشديد البالغ في قول ابن عباس عن نوف البكالي: «كذب عدوُّ الله».

وقال ابن حجر في شرحه لعبارة ابن عباس: «وقوله: كذب. وقوله: عدو الله، محمولان على إرادةِ المبالغة في الزجْر، والتنفيرِ عن تصديق تلك المقالة»(١).

لم يكن نَوف كاذباً في الحقيقة، ولا كان عدواً لله، لأنه كان مسلماً صادقاً تقياً.

لكن كلامه يمثل خطأً في منهج تعامله مع القرآن، ولذلك زجره ابن عباس وعنّفه.

---

(١) فتح الباري ٨: ٤١٣.

صاحب موسى هو الخضر:

العبد الصالح الذي سار موسى عليه السلام إليه هو الخضر.

وهو غير مذكور في القرآن. فهو من مبهمات القرآن.

ولكنه مبيّن في الحديث الصحيح، حيث حدد ذلك رسول الله ﷺ. كما رواه عنه البخاري ومسلم وغيرهما.

ولو لم يذكر الحديث الصحيح اسمه، لما حاولنا تبيينه، ولأبقيناه ضمن مبهمات القرآن.

أما عن سبب تسميته بالخضر، فقد روى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «إِنّما سُمِّيَ الخَضِر، لأنه جلس على فروة بيضاء، فإذا هي تَهتزُّ من تحته خضراء»[1].

والفروة البيضاء، قال عنها عبد الرزاق في مصنفه: «الحشيش الأبيض».

وقال عنها إبراهيم الحربي: هي القطعة من الأرض عليها حشيش يابس.

وقال عنها ابن الأعرابي: «هي أرض بيضاء ليس فيها نبات»[2].

والذي يبدو من الحديث أن هذه معجزة من معجزات الخضر عليه السلام ـ على القول الراجح بنبوته ـ.

ويبدو أيضاً أنه جلس على قطعة من الأرض يابسة، وعليها حشيش وعشب يابس، فلما جلس عليها دبَّت فيها الحياة، فاهتّزت تحته لتصبح

---

(١) البخاري (٦٠) كتاب الأنبياء باب (٢٧) حديث الخضر مع موسى عليهما السلام، حديث رقم ٣٤٠٢.

(٢) فتح الباري ٦: ٤٣٣.

خضراء، أي نَبَتَ العشب الأخضر على تلك القطعة، ولهذا سُمّي «الخضر» من الخضرة والاخضرار. وهناك تعليلات أخرى لسبب تسميته بالخضر، لا نلتفت لها، لأنها لم تثبت ولم تُنقَل لنا بحديث صحيح، فنكتفي بهذا الحديث، وفي الصحيح غنية عن الضعيف والموضوع.

مبهمات في حياة الخضر:

أما مَنْ هو الخضر؟ فلا نقول عن ذلك شيئاً.

إن القرآن لم يتحدث لنا عنه إلا من خلال رحلته مع موسى ـ عليهما السلام ـ في سورة الكهف، والحديثُ الصحيح ما زاد على بيان القرآن إلا يسيراً، في الرحلة مع موسى فقط.

أما تفصيلاتُ حياته، ونَسَبه، وأعمالُه قبل الرحلة وبعدها، فهذا لم يُذكر عنه في المصادر الصحيحة شيء.

لا نعرف عن أصله ونسبه شيئاً. ولا نعرف عن بداية أمره وطفولته وشبابه شيئاً. لا نعرف عن القوم الذين عاش معهم، ولا ندري هل كان من بني إسرائيل أم من غيرهم. كما أننا لا نعرف المكان الذي كان يقيم فيه.

وماذا جرى له بعد رحلة موسى إليه؟ لا نعرف عن هذا شيئاً، فالله وحده يعلم أين ذهب بعدما فارق موسى، وأين أقام، وكم عاش بعدها، وأين مات، وكيف مات، وأين دُفن.

كل هذه المسائل، لا جواب عليها عندنا، لأنها لم تُذكر في المصادر الصحيحة اليقينية. صحيح أن الإخباريين والقُصّاص تحدثوا عن هذه المسائل، وحاولوا بيانها، واختلفوا في الإجابة عليها.

لكننا نتوقف أمام كلامهم كله، ونشك فيه، ولا نقول بما قالوا به، لأنهم

أخذوا في ذلك عن المصادر غير الصحيحة، وبخاصة عن الإسرائيليات والأخبار والأساطير والروايات المأخوذة عن بني إسرائيل.

يَسَعُنا في تفصيل حياة الخضر عليه السلام ما وسع الصحابة، ويكفينا ما ورد عنه في القرآن والحديث الصحيح. فلا نحاول تبيين تلك المبهمات.

الراجح أن الخضر نبي:

اختلف العلماء في حقيقة الخضر، هل هو نبي أم ولي؟.

فذهب فريق منهم إلى القول بولايته دون نبوته.

كما قال بولايته بعض الصوفية، وذلك ليستشهدوا على زعْمهم أن الوليَّ أفضلُ من النبي. كما قال أحدهم:

مقام النبوَّة في برزخ   فُوَيْق الرسول ودون الولي

وعلى هذا القول، الوليُّ في أعلى المقامات، ويليه النبي، وأما الرسول فهو في أسفل المنازل تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً!.

أما جمهورُ العلماء من المفسرين والأصوليين والمحدِّثين والمؤرخين، فيقولون بنبوة الخضر.

ويقولون: لا يوجد حديث صحيح ينص على نبوته ويصرح بها.

ولكن سياق قصته مع موسى عليه السلام في القرآن يوحي بنبوته.

الأدلة على نبوته:

والأدلة التي تؤخذ من القصة على نبوته، هي:

١ ـ قوله تعالى: ﴿فَوَجَدا عَبْداً مِنْ عِبادِنا * آتَيْناهُ رَحْمَةً مِنْ عِنْدِنا﴾ وهذه الرحمة هي رحمة النبوة، وأن الله آتاه إياها.

وقد أكد الخضر على رحمة النبوة التي مُنحت له، حيث قال لموسى في تأويل الأحداث التي رآها «رَحْمَةً من ربك» أي فعلتُ الأفعال الثلاثة «رحمة من ربك».

٢ ــ قوله تعالى عنه أيضاً: ﴿وَعَلَّمْناهُ مِنْ لَدُنّا عِلْماً﴾ فقد أطلعه الله على علم بعض الأمور، وأخبره بخفايا بعض الأشياء.

والعلم اللَّدُنّي في هذه الآية هو النبوة، وليس كما يفهمه منه بعض غلاة الصوفية، من أنه علِم الباطن عن طريق الإلهام.

٣ ــ قول موسى له: ﴿هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمني مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً﴾ فلو لم يكن نبياً، لما طلب موسى أن يتعلم منه، ولما خاطبه بهذا الأسلوب، ولمَا رجاه هذا الرجاء، ولمَا استسلم له هذا الاستسلام، حيث جرى بينهما هذا الحوار: «هَلْ أَتَّبِعُكَ على أَنْ تُعَلِّمنِي مِمّا عُلِّمْتَ رُشْداً. قال: إنَّكَ لَنْ تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً. وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْرا. قال: سَتَجُدني إنْ شاءَ اللَّهُ صابِراً، وَلا أَعْصي لَكَ أَمْراً. قال: فَإنِ اتَّبَعْتَني فَلا تَسْأَلْني عَنْ شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً. فَانْطَلَقا».

٤ ــ لو لم يكن نبياً لكان غيرَ معصوم، وهذا معناه احتمال الخطأ في بعض أفعاله، فكيف يتبعه ويتعلم منه نبيٌّ معصوم، وإذا أخطأ في فعل ما، فكيف يَقْتدي به النبي المعصوم. فاتّباعُ موسى له وتعلمُه منه وطاعتُه له، دَلَّ على عصمة الخضر في أفعاله، ولا عصمة إلا للأنبياء.

٥ ــ إقدام الخضر على قتل الغلام دلَّ على نبوته، لأن قتْل النفس لا يجوز إلا بالحق، ولو لم يكن نبياً لما علم كفر الغلام، وبخاصة أن موسى النبي الذي معه لم يعلم كفر الغلام. ثم تعليلُ الخضر لموسى ــ عليهما السلام ــ بأنه قتله لكفره. يدل على أن الله أخبره بكفره، وأمره بقتله.

٦ ـ قول الخضر لموسى ـ عليهما السلام ـ بعدما فسر له الأفعال التي قام بها: «وما فعلته عن أمري» أي لم أقم بهذه الأفعال عن أمري الشخصي، وإنما أمرني بها الله سبحانه، وهذا الأمر الرباني عن طريق الوحي.

٧ ـ عتَبُ الله على موسى عليه السلام، عندما قال: أنا أعلم الناس. فقال له: «إن عبداً بمجمع البحرين هو أعلم منك». فالخضر أعلم من موسى في تلك المسائل، ولا يمكن أن يكون الولي أعلم من النبي.

٨ ـ قول الخضر لموسى: إني على علم من الله، علَّمْنيه اللَّهُ، لا تعلمه أنت. وأنت على علم من علم الله، علَّمكه الله، لا أعلمه أنا[1].

منكرُ نبوَّته لا يَكْفر:

عندما ننظر في أدلة الجمهور على نبوّة الخضر، نجد أنها اجتهادية وليست نصية، بمعنى أن القرآن لم يصرح بنبوته، ولم ينص عليها.

ولا يعني هذا أن الأدلة غير صحيحة، بل أن القرآن يشير إليها ويوحي بها. وبما أن الأدلة على نبوته اجتهادية ظنية، فنبوَّتُه غيرُ مجمع عليها بين العلماء، وإنما هي موضع اجتهاد.

وطالما أن الأمر مختلفَ فيه، وهو ظني اجتهادي، لذلك فإن مُنكرَ نبوة الخضر لا يكون كافراً، وإنما يكون مخالفاً لجمهور العلماء، وقد يكون قوله هو الصحيح،.

وهذا بخلاف من أنكرَ نبوة نبي نصَّ القرآنُ أو الحديث على نبوته فإنه يكون كافراً. كمن أنكر نبوة إلياس أو يونس أو سليمان ـ عليهم السلام ـ.

---

(١) انظر هذه الأدلة في البداية والنهاية لابن كثير ١: ٣٢٨.

مناقشة الذين قالوا بحياة الخضر بيننا :

ذهب فريقٌ من المسلمين إلى أن الخضر حي، وأنه شرب من «عين الحياة» التي مَنْ شرب منها لا يموت، إلا قُرب قيام الساعة، وأن الخضر أدرك محمداً ﷺ، وأنه ما زال حياً حتى الآن، وسيبقى حياً حتى قيام الساعة.

ويبنون على حياته كثيراً من الروايات والحكايات والأقاويل والخرافات والأساطير، ويزعمون مقابلَته لرسول الله ﷺ، ومقابلته لأبي بكر وعمر وعلي وعمر بن عبد العزيز، ولقاءَه مع كثير من الزُّهّاد والعُبّاد والمتصوفين، وأنه يجوب الفيافيَ والقِفارَ والأماكنَ المهجورة، ويظهر على عابدين يُعلِّمهم ويطعمهم ويكلمهم..

وأكثرُ الناس رواية للأساطير والأقاويل والحكايات حول حياته هم الصوفيون.

وممن قال بحياة الخضر عليه السلام، بعد رسول الله ﷺ، من العلماء الإمامُ النووي، والإمامُ ابن الصّلاح، والسُّهيلي وغيرهم.

قال النووي: «قال الأكثرون من العلماء: هو حي، موجود بيننا، وذلك متَّفق عليه عند الصوفية، وأهل الصلاح والمعرفة. وحكاياتهم في رؤيتهِ والاجتماعِ به والأخذِ عنه، وسؤالِه وجوابِه، ووجودِه في المواضع الشريفة، ومواطنِ الخير، أكثرُ من أن تُحْصر، وأشهر من أن تُذْكَر.

وقال الشيخ أبو عمرو بن الصلاح في فتاويه: هو حيٌّ عند جماهير العلماء والصالحين، والعامةُ معهم في ذلك، وإنما شذّ بإنكاره بعض المحدِّثين»[1].

---

(١) تهذيب الأسماء واللغات ١ : ١٧٦ ـ ١٧٧.

ورغم أن هذا الفريق من العلماء اعتمدوا على أحاديث وأقاويل وروايات، إلا أنه لم يصح منها شيء، فكل هذه الروايات ما بين الضعيف والموضوع، ولم تَصِلْ واحدة لمرتبة الصحيح.

ولذلك نقل ابن حجر عن أبي الخطاب بن دحية في رِده على السُّهيلي ــ والسهيلي ممن يقول بحياة الخضر بعد البعثة ــ: «الطرقُ التي أَشار إليها، لم يصح منها شيء، ولا ثبت اجتماعُ الخضر مع أحد من الأنبياء، إلا مع موسى عليه السلام كما قص الله خبرهما.

وجميعُ ما ورد في حياته لا يصح منها شيء باتفاق أهل النقل. وإنما يَذكر ذلك من يروي الخبر ولا يذكر علته، إمّا لكونه لا يعرفها، وإِمّا لوضوحها عند أهل الحديث.

وأمّا ما جاء عن المشايخ فهو مما يُتعجب منه، كيف يجوز لعاقل أن يلقى شخصاً لا يعرفه فيقول له: أنا فلان. فيصدقه»[1].

وقال الإمام ابن كثير في تاريخه بعد أن أورد روايات وأقوالاً عن حياته الآن: «وهذه الروايات والحكايات هي عمدةُ من ذهب إلى حياته إلى اليوم.

وكلٌّ من الأحاديث المرفوعة ضعيفة جداً، لا يقوم بمثلها حجة في الدين. والحكايات لا يخلو أكثرها من ضعف في الإسناد.

وقصاراها أنها صحيحة إلى من ليس بمعصوم، من صحابيٍّ وغيرِه، لأنه يجوز عليه الخطأ».

ثم قال ابن كثير: «وقد تصدّى الشيخ أبو الفرج بن الجوزي رحمه الله

(١) الزَّهْرُ النَّضر في نبأ الخضر للإمام ابن حجر العسقلاني ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ٢ : ٢٠٣.

في كتابه «عجالة المنتظر في شرح حالة الخضر» للأحاديث الواردة في ذلك من المرفوعات، فبيَّنَ أنها موضوعات. ومن الآثار عن الصحابة والتابعين فَمَن بعدهم، فبيَّن ضعفَ أسانيدها ببيان أحوالها وجهالة رجالها، وقد أجاد في ذلك، وأحسن الانتقاد»[1].

الراجح موت الخضر قبل البعثة:

المحقِّقون من العلماء على أن الخضر عليه السلام عاش حياته، ومات قبل بعثة رسول الله ﷺ.

ويرون أن مقدار حياته التي عاشها لا يعلمها إلا الله، كما أنَّ وقْتَ موته وكيفيتِهِ ومكانه لا يعلمه إلا الله، لعدم وجود أحاديث صحيحة تبيّن ذلك.

وهم يرفضون أقوال غير المحققين في طولِ حياته، واستمرارِها حتى قبيل قيام الساعة، لعدم وجودِ أدلة صحيحة مقبولة على ذلك.

وممن ذهب إلى موت الخضر قبل البعثة، البخاريُّ وإبراهيم الحربي وابن الجوزي وابن كثير، ومال إلى هذا الرأي ابن حجر العسقلاني في كتابه «الزهر النضر في نبأ الخضر».

وأورد هؤلاء العلماء أدلة على هذا الرأي، ذكر الإمام ابن كثير في البداية والنهاية خلاصتها.

ومن الأدلة على موته قبل البعثة:

١ ـ قوله تعالى ﴿وَمَا جَعَلْنا لِبَشَرٍ مِنْ قَبْلِكَ الخُلْد * أَفَإِنْ مِتَّ فَهُمُ الخالِدون؟﴾[2] حيث تقرر الآية أنه لا يُخَلَّدُ أَيُّ بشر على وجه الأرض،

---

(١) البداية والنهاية ١ : ٣٣٤.

(٢) سورة الأنبياء: آية ٣٤.

والخضرُ من جملة البشر، ولهذا هو داخِل ضمن مفهوم الآية، ولا يوجد حديث صحيح يخصص الخضر، ويستثنيه من عدم الخلود في الدنيا.

٢ ـ قوله تعالى ﴿وَإِذ أَخَذَ اللَّهُ ميثاقَ النَّبِيِّين * لَما آتَيْتُكُمْ مِنْ كِتابٍ وَحِكْمَة * ثُمَّ جاءَكُم رَسولٌ مُصَدِّقٌ لِما مَعَكُمْ * لَتُؤْمِنُنَّ بِهِ وَلَتَنْصُرُنَّه * قال: أَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلى ذَلِكُم إِصْري * قالوا أَقْرَرْنا * قال فَاشْهَدوا وَأَنا مَعَكُمْ مِنَ الشَّاهِدين﴾(١).

وقال ابن عباس في معنى الآية: ما بعث الله نبياً إلا أخذ عليه الميثاق، لَئِن بُعث محمد وهو حي، ليؤمِنَن به ولينصرَنّه، وأَمَره أن يأخذ على أمته الميثاق، لئن بُعث محمد وهم أحياء، ليؤمُنن به ولينصرنُه.

فالخضر إما أن يكون نبياً أو ولياً، وعلى كلا الأمرين هو مطالبَ أن يؤمن بمحمد ﷺ، فهل حصل أن جاء إليه وأسلم على يديه وبايعه واتبعه؟.

٣ ـ طالما أن الراجح أن الخضر نبي، فلو كان حياً زمن رسول الله ﷺ، لكان أشرفُ أحواله أن يأتي إلى الرسول عليه السلام، وأن يكون معه. ولم يفعل الخضر ذلك. لأنه كان ميْتاً تحت التراب.

٤ ـ لم يُنقل بحديث صحيح اجتماعُ الخضر برسول الله ﷺ، ولا صلاتُه خلفه، ولا جهادُه معه في الغزوات، ولو كان حياً لفعل.

٥ ـ إن الرسول ﷺ دعا الله في غزوة بدر أن ينصر المسلمين، فقال: «اللهم إنْ تهلك هذه العصابة فلن تُعْبَد في الأرض» وكان مع تلك العصابة أبو بكر وعمر وخيار الصحابة، كما كان معهم جبريل ومعه خيار الملائكة، فلو كان الخضر حياً لكان مَقامه مع تلك العصابة من أشرف مقاماته.

---

(١) سورة آل عمران: آية ٨١.

٦ ـ قد يدّعي بعضهم بأن الخضر كان موجوداً مع رسول الله عليه السلام في تلك المواطن، ولكن أحداً من الناس لم يشاهده، ولكن هذا الادعاءَ باطلٌ ومرفوض، لأن هذا من التوهم والتخيل والادعاء، وإثباته يحتاج إلى دليل صحيح.

٧ ـ ما هي الحكمة من اختفاء الخضر، وذهابه إلى الجبال والمغاور والكهوف والبراري؟ ولماذا لا يعيش مع الناس، ويصلّي معهم الجمَع والجماعات؟ وهل يليق بنبي كريم هذه التصرفات.

٨ ـ لو كان حياً لكان مطالَباً بنشر العلم وتعليمِ الناس، وتبليغهم أحاديثَ رسول الله ﷺ، وتمييز صحيحها من ضعيفها، وطيبها من خبيثها، وكان مطالَباً بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. وهذا لم يحصل.

٩ ـ ما رواه مسلم عن عبد الله بن عمر رضي الله عنهما قال: صلى بنا رسول الله ذاتَ ليلة صلاة العشاء، في آخر حياته، فلما سلَّم قام فقال: «أَرَأَيْتُكُمْ ليلتَكُم هذه، فإن على رأس مائةٍ سنة منها، لا يبقى ممن هو على ظهر الأرض أحد.

قال ابن عمر: فَوَهَلَ الناس [أي أخطأوا وغلطوا] في مقالة رسول الله ﷺ تلك، فيما يتحدثون من هذه الأحاديث عن مائة سنة، وإنما قال رسول الله ﷺ «لا يبقى ممن هو اليوم على ظهر الأرض أحد. يريد بذلك أن ينخرم ذلك القَرْن»[1].

وروى مسلم عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال: «سمعتُ النبي ﷺ يقول قبل أن يموت بشهر: «تسألوني عن الساعة؟ وإنما علمُها عند الله. وأقسمُ بالله، ما على الأرض من نفس منفوسة، تأتي عليها مائةُ سنة»[2].

---

(١) مسلم (٤٤) كتاب فضائل الصحابة (٥٣) باب قوله ﷺ. حديث رقم ٢٥٣٧.

(٢) مسلم نفس الكتاب والباب، حديث رقم ٢٥٣٨.

فلو قلنا بحياة الخضر حتى بعثة رسول الله ﷺ ـ وهذا غير صحيح ـ لزم أن يموت خلال مائة سنة من تاريخ النطق بذلك الحديث.

بعد هذه الأدلة نقرر أن الخضر عليه السلام ليس حياً الآن، وأنه مات قبل بعثة رسول الله ﷺ بمدة لا يعلمها إلا الله وحده سبحانه.

ولهذا ندعو إلى طرْح كل الروايات والأخبار والأقوال، التي تَرْسم حول الخضر أباطيل وأساطير لا حقيقة لها.

حكاية العلم اللدنّي:

أشار القرآن الكريم إلى أن الخضر عليه السلام قد علَّمه الله علماً من لدنْه، فقال: ﴿آتيناه رحمة من عندنا * وعلمناه من لدنّا علماً﴾ وهذا العلم الذي عند الخضر لم يعلمه موسى عليه السلام. ولهذا جاءه ليتعلم منه.

لكن بعض المسلمين، وقفوا أمام هذه العبارة «وعلمناه من لدنّا علماً» واستخرجوا منها «حكاية العلم اللدنيّ» واستدلوا بها على أشياء وأشياء، وجعلوها عنواناً لمزاعم وأباطيل.

لقد استدل بهذه العبارة، الصوفيةُ في تفريقهم بين «العلم الشرعي والعلم اللدنيّ» وبين «الظاهر والباطن» وبين «الشريعة والحقيقة» قال الإمام الألوسي: «والآية عندهم أصل في إثبات العلم اللدني، وشاع إطلاقُ علمِ الحقيقة والعلم الباطن عليه»[1].

والمفسرون الصوفيون يتكلمون كلاماً عجيباً في العلم اللدني والتفريق بين الحقيقة والشريعة والظاهر والباطن، ويخلطون ويخبطون في تفسير هذه الآيات وغيرها.

---

(١) روح المعاني ١٦: ٣٣٠.

قطعة من تفسير المُهايِمي:

قال علي بن إبراهيم المُهايِمي في تفسيره «تبصيرُ الرّحمن وتيسيرُ المنّان» عندما فسر هذه الآية:

﴿فوجدا عبداً﴾: لا يُكْتَنَه غايةُ كمالِه لكونه «من عبادنا» مظاهر عَظَمَتنا إذْ ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾ وهو التجلّي الشهودي من غير فناء «و» لذلك «علمناه» بلا واسطة بشرٍ ومَلَك «من لدنا علماً» جليلاً، لا يُعطَى كثيراً من الأنبياء، قال له موسى الذي هو متبوعُ يوشع وسائر بني إسرائيل «هل أتبعك» في علومك، مرتقِياً عن علومي «عَلى أَنْ تُعَلِّمنِ» وإن كنتُ لا أتعلم من بشر، بل من الله أو ملائكته «مما علِّمتَ» من ربك «رُشْداً» فوق هداية أهل الظاهر، كمعرفة أسرار الحق في بعض الأفعال التي يظهر قُبحها «قال» إن هذا العلم ليس مما يظهر حسنه بأدنى النظر، بل منه ما يظهر في الصور القبيحة، التي يبادر أهلُ الظاهر إلى الإنكار عليها، وهو مانع عن الاطلاع على محاسنها، وتَرْكُ الإنكار عليها يحتاج إلى صبر عظيم. قال: «إنك لن تستطيع» وإن كنت «معي» متأثراً عني «صبراً» بوجه من الوجوه «وكيف تصبر على ما» ظهر قبحه، مع أنك «لم تحط به خبراً» تعرف به حسنَه الماحيةِ قبحَه «قال» موسى: إني وإن كنت من أهل الظاهر الذين لا صبر لهم إلى تتبع البواطن «ستجدني إن شاء الله صابراً» بالتغلُّب على طبعي من اقتدائي بك وتأثري عنك، كيف وفي تركه عصيانك «و» إذا اتبعتُك «لا أعصي لك أمراً» وإن رأيتُ فيه طاعةَ الله في الظاهر لكنه معصية في الحقيقة، لأن اعتقاد القبح فيمن زكاه طعن على الله. ولما كان هذا الكلامُ كالرد عليه في قوله: إنك لن تستطيع معي صبراً، لم يجد الصبر وإن راعى الاستثناء.

قال ««فإن اتبعتني» في علومي «فلا تسألني عن شيء» فضلاً عن الإنكار عليه، فهذا العلم ليس بطريق السؤال والجواب، بل بطريق الفَيْض، فلا بد

من انتظاره، ولا بد من الصبر «حتى أحدث لـك» في قلبك ولـو بطريق الفيض ولو مـع اللسان «منه ذكراً» يذكر به ما كمن فيه»[1].

وقـد أطلنا في ذكـر هذه القـطعة، من كـلام المُهايمي، بـاعتباره يمثـل مدرسة التفسير الصوفـي للقرآن، ومن المؤمنين بحكاية العلم اللدني، والتفرقة بين الظاهر والباطن، والشريعة والحقيقة.

وعند إمعان النظر في كلامه، نرى كيف يذهب بالمعنى القـرآني بعيداً، بل كيف يُحرِّف المعنى القرآني تحريفاً، ويُحوِّل الجملة القـرآنية لتشهـد على فهمه الصوفي الباطني للعلم اللدني والفيض الإلهامي.

قطعة من تفسير إسماعيل حقي:

وننتقل من كلام المُهايِمي، إلى كلام مفسِّر آخر من أقـطاب الصوفيـة، ألا هو إسماعيل حقي البُروسَوي، الذي ألَّف تفسيراً، أسماه «روح البيان».

فعندما فسّر آيات قصة موسى مـع الخضر، وعندما وصل إلى هذه الآية: ﴿وعلمنـاهُ من لدنـا علماً﴾ تحـدث عن العلم اللدنيّ. فقال: «إنمـا قـال «من لـدُنـا» مـع أن العلوم كلهـا من لـدنــه، لأن بعضهـا بــواسـطة تعليم الخلق، فلا يسمى ذلك علماً لدنياً.

بـل العلم اللدنيّ هـو الـذي ينـزِّلـه في القلب من غيـر واسـطة أحـد، ولا سبب مألوف من الخارج».

وقـال: «واعلم أن كل علم يعلِّمُـه الله تعـالى عبـاده، ويمكن للعبـاد أن يتعلموا ذلك العلم من غيـر الله تعالى فـإنه ليس من جملة العلم اللدني، لأنـه يمكن أن يُتعلَّم من لدن غيره»[1].

---

(١) تبصير الرحمن وتيسير المنان للمهايمي ١: ٤٥١ ـ ٤٥٢.

(٢) تفسير روح البيان لإسماعيل حقي ٥: ٢٧٠.

وقال: «من لدنّا» أي من مقام أحدية ذاتِنا ومرتبتها. ولذا خَصَّ كبارُ الصوفية في اصطلاحاتهم لفظَ العلم اللدني بهذا العلم الباطني الحاصل بمحض تعليم الله تعالى، من لدنه بغير واسطة عبارة.

ولذلك قال بعضهم:

تعلّمناهُ بلا حرف وصوت قرأناهُ بلا سهو وفَوْت

يعني بطريق الفيض الإلهي والإلهام الرباني، لا بطريق التعليم اللفظي والتدريس القولي، ولكوْن مقام العلم الظاهري من مقام العلم الباطني بمنزلة الظاهر من الباطن، حيث يتعلق العلم الظاهري بظواهر الشريعة وصورها، والعلم الباطني بمنزلة الباب من البيت»[1].

نقضُ دعاوى الصوفية في العلم اللدنيّ:

وقف القرطبي يردُّ على دعاوى الصوفية في العلم اللدني. فقال:

«قال شيخُنا الإمام أبو العباس: ذهب قوم من زنادقة الباطنية إلى سلوك طريق، تلزم منه هذه الأحكام الشرعية. فقالوا: هذه الأحكام الشرعية العامة إنما يُحْكم بها على الأغبياء والعامة، وأما الأولياء وأهل الخصوص فلا يحتاجون لهذه النصوص، بل إنما يُراد منهم ما يقع في قلوبهم، ويُحكم عليهم بما يغلب عليهم من خواطرهم.

وقالوا: وذلك لصفاء قلوبهم عن الأكدار، وخلوِّها عن الأغيار، فتتجلى لهم العلوم الإلهية، والحقائق الربانية، فيقفون على أسرار الكائنات، ويعلمون أحكام الجزئيات، فيستغنون بها عن أحكام الشرائع الكليات، كما اتفق للخضر، فإنه استغنى بما تجلّى له من العلوم، عما كان عند موسى من تلك الفهوم. وقد جاء فيما ينقلون: إستفت قلبَك وإن أفتاك المفتون.

---

(١) روح البيان لحقي ٥: ٢٧٢.

قال شيخنا رضي الله عنه: وهذا القول زندقةٌ وكفر، يُقتل قائله ولا يستتاب، لأنه إنكارُ ما علم من الشرائع، فإن الله تعالى قد أجرى سنته، وأنفذ حكمته بأن أحكامه لا تُعلم إلا بواسطة رسله، السُّفراء بينه وبين خلقه.

وعلى الجملة فقد حصل العلمُ القطعي، واليقينُ الضروري، وإجماعُ السلف والخلف على أن لا طريق لمعرفة أحكام الله تعالى إلا من جهة الرسل.

فَمَن قال: إن هناك طريقاً آخر يُعرف بها أمرُه ونهيُه غير الرسل، بحيث يُستغنى عن الرسل فهو كافر، يُقتل ولا يُستتاب، ولا يحتاج معه إلى سؤال وجواب.

ثم هو قول بإثباتِ أنبياءٍ بعد نبينا محمد عليه الصلاة والسلام، وبيانُ ذلك: أن من قال يأخذ عن قلبه، وأن ما يقع فيه فهو حكم الله، وأنه يعمل بمقتضاه، وأنه لا يحتاج معه إلى كتاب وسنة، فقد أثبت لنفسه خاصة النبوة، فإن هذا نحوٌ مما قاله رسول الله ﷺ: «إن روح القدس نفث في روعي»[1].

كما نقض مزاعمَهم حول العلمِ اللدنيّ والفيضِ والإلهام، الإمام الشنقيطي في تفسيره «أضواء البيان» فَقال:

«إن الرحمة والعلم اللدنيّ اللذيْن امتن الله بهما على الخضر هما النبوة والوحي، لأن الخضر قال لموسى «وما فعلته عن أمري» وأمرُ الله لا يُعرف إلا عن طريق الوحي، ولا طريق له إلا بالوحي، والله حصره بالوحي في قوله: ﴿قل: إنما أنذركم بالوحي﴾[2].

---

(١) تفسير القرطبي ١١: ٤٠ ـ ٤١ باختصار..

(٢) سورة الأنبياء: آية ٤٥.

وقال: «إن المقرر في الأصول أن الإلهام من الأولياء لا يجوز الاستدلال به على شيء لعدم العصمة.

وما يزعمه بعض الصوفية من جواز العمل بالإلهام في حق الملهَم دون غيره، باطل لا يعوَّل عليه، لعدم اعتضاده بدليل. وغيرُ المعصوم لا ثقة بخواطره، لأنه لا يأمن دسيسة الشيطان، وقد ضُمنت الهداية في اتّباع الشرائع، ولم تُضمن في اتباع الخواطر والإلهامات»[1].

وقال: «وبذلك تعلم أن ما يدعيه كثيرٌ من الجهلة المدّعين التصوف، من أن لهم ولأشياخهم طريقاً باطنة توافق الحق عند الله، ولو كانت مخالفة لظاهر الشرع، كمخالفة ما فعله الخضر لظاهر العلم الذي عند موسى، زندقةٌ وذريعةٌ إلى الانحلال بالكلية من دين الإسلام، بدعوى أن الحق في أمور باطنة تخالف ظاهرة»[2].

أما الآلوسي فقد نقل في تفسيره ـ في معرض رده على العلم اللدنيّ ونقْضِ دعوى مخالفة الشريعةِ للحقيقة ـ أقوالاً لعلماء صالحين، يعتبرهم الصوفيون مشايخَهم وعلماءَهم:

نَقَل عن عبد القادر الجيلاني قوله: «جميع الأولياء لا يَستمدون إلا من كلامِ الله تعالى، وكلامِ رسوله ﷺ، ولا يعملون إلا بظاهرهما.

ونقل عن سيد الطائفة الجنيد: الطرقُ كلها مسدودة، إلا على من اقتفى أثر الرسول ﷺ.

ونقل قولَ الجنيد أيضاً: «من لم يَحفظ القرآن، ولم يَكتب الحديث، لا يُقتدى به في هذا العلم، لأن عِلمنا مقيّد بالكتاب والسنة.

(١) أضواء البيان ٤ : ١٥٩ باختصار.

(٢) المرجع السابق ٤ : ١٦٠.

وقال السقطي: من ادّعى باطنَ علم ينقضُه ظاهرُ حكْم فهو غالط.

وقال أبو الحسين النوري: من رأيته يدّعي مع الله حالة تخرجه عن حد العلم الشرعي فلا تَقْرَبْه، ومن رأيته يدَّعي حالةً لا يشهد لها حفظٌ ظاهر فاتهمْه على دينه.

وقال أبو سعيد الخراز: كل فيضٍ باطن يخالفُه ظاهر فهو باطل.

وقال أبو العباس الدينوري: لُسان الظاهر لا يغير حكم الباطن.

وقال أبو حامد الغزالي: من قال إن الباطن يخالف الظاهر فهو إلى الكفر أقرب منه إلى الإيمان»[1].

بعد هذه الأقوال لبعض علمائنا نخرج بنتيجة قاطعة هي:

العلم اللدني الذي أشارت له الآية، الذي علَّمه الله للخضر عليه السلام، هو علم النبوة والوحي. وأما مزاعم الصوفية ودعاويهم على العلم اللدنّي - بمفهومهم - فهو أباطيل، وأضاليل، مخالفة لشريعة الإسلام وهدي القرآن.

مبهمات في قصة موسى مع الخضر:

في قصة موسى مع الخضر مبهماتٌ كثيرة، لم يَرد عليها بيان في القرآن الكريم ولا في الحديث النبوي الصحيح.

وقد حاول كثير من السابقين تبيينَ هذه المبهمات، وتحديد أماكنها وأزمانها وأشخاصها، ونقلوا في ذلك عن الإسرائيليات وأخبارِ الماضين غير الموثوقة، وغير اليقينية، وغير الصادقة، وأوردوا أقوالاً كثيرة في تحديد تلك المبهمات،واختلفوا فيها اختلافاً بيّناً عريضاً.

---

(١) روح المعاني للآلوسي ١٦: ١٩.

وهـذه المبهمـات يجب أن نبقيهـا على إبهـامهـا، لأننـا لا نملك دليـلاً صحيحاً مقبولاً على بيانها.

من هذه المبهمات:

١ ـ الـوقتُ الذي جـرتْ به أحـداث القصة، هـل كـان مـوسى عليـه السلام مـع قومه في مصر، أم بعد خروجهم منهـا؟ وهل كـانوا في سينـاء، أم قبيل دخولهم فلسطين؟.

٢ ـ مـوقـع مجمـع البحـرين، حيث يَحتمـل عـدة احتمـالات، فقـد يكونان البحـر المتوسط والبحـر الأحمر، وقـد يكونـان البحر الأحمـر والمحيط الهنـدي، وقد يكـونان البحـر المتوسط والمحيط الأطلسي، وقـد يكونـان غيـر ذلك.

٣ ـ مكــان الصخـرة الــذي أوى فيـه مــوسى مـع فتـاه، واسمُ تلك الصخرة، واسمُ عين الماء عندها.

٤ ـ المكان الذي وجدا فيه الخضر.

٥ ـ المكان الذي ركب فيه موسى مـع الخضر السفينة، والبحـر الذي أبحرت السفينة فيه.

٦ ـ أسماء المساكين أصحاب السفينة.

٧ ـ اسم الغلام الذي قتله الخضر، واسم والديه ومكان إقامتهما.

٨ ـ اسم القـريـة التي وصـلا إليهـا، واستـطعمـا أهلهـا، فـأبـوا أن يضيفوهما.

٩ ـ كيفية إقامة الخضر للجدار.

١٠ ـ اسم الملك الظالم الذي كان يأخذ كل سفينة غصباً.

١١ ـ اسما الغلامين اليتيمين صاحبي الكنز، واسم أبيهما.

١٢ ـ قصة الكنز الذي لهما، ومكونات الكنز الذي كان تحت الجدار.

١٣ ـ مصير يوشع بن نون بعدما سار موسى مع الخضر. هل سار معهما؟ أم عاد لقومه؟ أم انتظرهما عند مجمع البحرين؟.

١٤ ـ أين فارق الخضر موسى عليهما السلام؟ والوجهة التي توجه إليها؟.

١٥ ـ كيفية عودة موسى إلى قومه.

كل هذه المسائل من المبهمات، لا نُتعب أنفسنا في بحثها وتبيينها، وكلُّ كلام في تبيينها غيرُ علمي ولا منهجي ولا دقيق، وهو إلى الخطأ أقرب منه إلى الصواب، بل غالبه خطأ وليس صواباً، ويستحيل فصل الخطأ عن الصواب، فكل قول في تبيينها احتمال الخطأ فيه أكثر نسبةً من احتمال الصواب.

ولذلك ندعو إلى إبقائِها على إبهامها، وإلغاءِ كل الأقوال في تبيينها، ولو وردت في كتب التفسير والقصص والتاريخ.

مفاجآت في قصة موسى مع الخضر:

في قصة موسى مع الخضر الكثيرُ من الغموض، الغموض الذي كان يواجهه موسى عليه السلام. كما أن في القصة مفاجآت، فاجأت موسى عليه السلام فأدهشته. ومن هذه المفاجآت ما بينتْه القصة، ومن هذا الغموض ما كشفته القصة، ومنها ما بقي مفاجئاً غامضاً.

من هذه المفاجآت:

١ ــ خروج الحوت من المكتل إلى البحر، وذلك أن الله أمر موسى عليه السلام أن يَحمل معه حوتاً مشوياً مملَّحاً في المكتل، وحيثما يفقد الحوت فسيجد الخضر. فنام موسى وفتاه، والحوت في المكتل مملّح ميْت مشويّ. ولكن جاءته نقطة ماء من عين الحياة، فدبَّتْ فيه الحياة، وأعاد الله له الروح، فخرج من المكتل، وذهب إلى البحر. فكيف يحصل هذا؟ حوت مملح مشوي ميت يعود للحياة من جديد، إنها مفاجأة مذهلة لموسى وفتاه، كما أنها مفاجأة مذهلة لكل قارىء لآيات القصة.

وهذه المعجزة الربانية أقوى دليل على قدرة الله المطلقة، حيث هو على كل شيء قدير، وهو فعّال لما يريد، وهو الذي يحيي ويميت. كما أن هذه المعجزة تُساق دليلاً على البعث، فالله الذي بعث الحوت المشويَّ المملَّح حياً، قادر على بعث الناس يوم القيامة.

٢ ــ إن الحوت عندما دبَّت فيه الحياة، وسار في البحر «اتخذ سبيله في البحر سرباً» ومعنى هذه الآية أن الله أمسك جرية الماء عن الحوت، فكان شبيهاً بالسَّرَب وهو الطريق، يعني كان هناك ممراً واضحاً لا يمر فيه الماء خلف الحوت. بحيث لو سار أحد في ذلك السرب الواضح والطريق البيِّن لوصل إلى مكان الحوت. وهذا ما فعله موسى عليه السلام مع فتاه.

٣ ــ لما عاد موسى وفتاه إلى مكانهما الأول الذي فَقَدا فيه الحوت، فوجئا بمفاجأة، حيث وجدا الخضر عليه السلام، مستلقياً على قفاه، مغطًّى بثوب، فلمّا سلَّم موسى عليه، كشف الخضر الثوب عن نفسه، ورد عليه السلام. لقد جاء الخضر من المجهول الغامض، فلم يدْرِ موسى ولا فتاه ــ ولم ندر نحن الذين نتابع القصة ــ من أين جاء الخضر، ولا أين كان يعيش، كلُّ ما عندنا أننا فوجئنا به في ذلك المكان كما فوجىء به موسى عليه السلام.

٤ ــ فاجأ الخضرُ موسى عليهما السلام، عندما طلب منه موسى

مرافقته ليتعلم منه، فاجأه بقوله: «إنك لن تستطيع معي صبراً». وهذا ما حصل من سياق القصة، حيث لم يستطع موسى معه صبراً.

٥ ـ مفاجأة الخضر لموسى عندما ركبا في السفينة بغير أجرة، إذ عمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة، فاقتلعه وخرق السفينة، مما حمل موسى على الاعتراض والإنكار.

٦ ـ مفاجأة أخرى من الخضر لموسى ـ عليهما السلام ـ عندما أقبل على غلام يلعب مع الغلمان فقتله، بغير ذنب عمله، فأنكر عليه موسى.

٧ ـ مفاجأة أهل القرية لموسى ـ ولنا ـ حيث عاملوهما ببخْل عجيب، إذ أبوا أن يضيفوهما رغم طلبهما منهم الطعام.

٨ ـ مفاجأة الخضر لموسى عليهما السلام، عندما وجدا جداراً يريد أن ينقض فأقامه، مما جعل موسى يطلب منه أخذ الأجرة على فعله، لأن أصحاب القرية البخلاء لا يستحقون المعروف.

٩ ـ المفاجأة البالغة المدهشة لموسى عليه السلام ـ ولنا نحن الذين نتابع القصة ـ هي كشف الخضر الغموض عن أعماله الثلاثة التي عملها، وإزالته الإبهام عنها، وتعليله لها، وبيانه أن ما قام به إنما هو حق وخير وصواب. ولكن كشْفَه وتعليلَه جاء مفاجأة.

١٠ ـ المفاجأة في الإخبار عن الملك الظالم الغاصب، الذي كان ينتظر المساكين ليأخذ سفينتهم لو لم يخرقها الخضر.

١١ ـ المفاجأة في الإخبار عن مستقبل الغلام الذي قتله الخضر، بأنه لو بقي حتى يكبر لكان كافراً، وأن الله يريد أن يبدلهما غلاماً، خيراً منه زكاة وأقرب رحماً.

١٢ ــ المفاجأة بإخبارنا عن وجود كنز لليتيمين تحت الجدار، حيث بَنى الخضر الجدار إلى حين يكبر الغلامان، فيستخرجا الكنز.

١٣ ــ المفاجأة بذهاب الخضر إلى حيث لا ندري، ولعل موسى عليه السلام ما كان يدري، لقد ترك الخضر موسى عليه السلام تحت تأثير الدهش والمفاجأة والاستغراب عندما كشف له حقيقة أعماله الثلاثة، ثم فارقه وذهب إلى المجهول.

لقد جاء الخضر في القصة من المجهول، وبعد القصة ذهب الخضر إلى المجهول، فلا نعرف من أين جاء، ولا ندري أين ذهب، ولا كلام عن الخضر ــ في القرآن والحديث ــ غير ما ورد هنا.

إن قصة الخضر مع موسى هي قصة المجهول، وقصة الغموض، وقصة المفاجآت، وقصة الدهش والاستغراب.

وإننا كلما نقرأ القصة، نُصاب بالدهشة والاستغراب، ونتأثر بما فيها من مفاجآت مثيرة ــ رغم معرفتنا المسبقة بحقيقة الأحداث وسر المفاجآت ــ.

الرحلة في طلب العلم:

ماذا قال موسى لفتاه يوشع بن نون؟

قال له «لا أبرح حتى أبلغ مجمع البحرين أو أمضي حقباً».

يعني لا أبرح سائراً، ولن أتوقف عن السير حتى أصل إلى مجمع البحرين ــ أي مكان التقائهما واجتماعهما ــ وهو المكان الذي أخبر الله موسى أنه سيجد الخضر عنده.

فإن لم يصل مجمع البحرين، سيستمرُ في سيره، ويمضي في طريقه، ولو استمرت رحلته سنين طويلة، وحُقُباً مديدة.

ونأخذ من كلام موسى عليه السلام: الـرحلة في طلب العلم، والحرص عليها، والتصميم على تجاوز كل العقبات التي تحول دونها.

ولقد ضرب العلماء المسلمون نمـاذج رفيعة رائعـة في الرحلة في طلب العلم، وتحملّوا في ذلك ما تحملّوا، وصبـروا على ما واجهـوه في الطريق من شدائد ومصاعب ومشقات.

لقد ألف الإمام الخطيب البغدادي في القـرن الخامس كتـاباً سجـل فيه أشهـر الذين ارتحلوا إلى بـلاد أخـرى من أجـل طلب حـديث واحـد فقط من أحاديث رسول الله ﷺ، وسماه «الرحلة في طلب الحديث» وطبعه أخيراً محقَّقاً الدكتور نور الدين عتر.

وفي أيامنا جمع الشيـخ عبد الفتاح أبو غدة في كتاب لطيف له، نماذج من ارتحـال العلماء المسلمين وصبـرهم على مـا يـلاقـونـه في سبيله. وسمـاه «صفْحات من صبر العلماء على شدائد العلم والتحصيل».

قال موسى لفتاه «لا أبرح حتى أبلـغ مجمـع البحرين أو أمضي حقباً».

والحقب جميـع حِقبة.

واختلف العلماء في تقدير الحقبة، ما بين ستين وثمانين ومائة عام.

لكن الراجـح في معنى الحقبة ما ذكره الـراغب «والصحيح: أن الحقبـة مدةٌ من الزمان مبهَمَة»[1].

وهـذا المعنى وارد في كلام مـوسى عليه السـلام لفتاه «أو أمضي حقبـاً» فهو لم يحدد مـدة معينة لسيـره، بل جعلهـا مبهمة، سـوف يبقى مسافـراً حتى يلتقي بالخضر.

---

(١) المفردات: ١٢٦.

وهـذا المعنى وارد في الكلمة الثـانية وهي «أحقـاب» حيث قال الله عن الكفـار في جهنم: ﴿لابثين فيها أحقـاباً﴾[1] وهي مـدة مبهمة لا نهـايـة لهـا، إذ هم مخلَّدون في جهنم، والعياذ بالله.

نسيا حوتهما:

نسبَ القرآن النسيانَ إليهمـا في قولـه: ﴿فلما بلغـا مجمـع بينهما نسيـا حوتهما﴾ مـع أن الذي نسي في الحقيقة هو فتاه يوشـع بن نون وحـده. وذلك أن موسى طلب من فتاه حمل الحوت في مكتل، وقال له: عندما تفقد الحوت فأخبرني، فلما سارا ووصلا الصخرة، وضعا المكتل قـريباً من العين، ونـاما. فـوصل إلى الحـوت قطرات من المـاء فدبت فيـه الحياة، فخـرج من المكتـل واتخذ سبيله في البحر سرباً.

ولما استيقظا تابعا سيرهما، ولما أحسا بـالتعب، وطلب موسى من فتـاه الطعام تذكر الحوت.

فـالـذي نسي هـو الفتى، وليس مـوسى. فلمـاذا نسب القـرآن النسيـان إليهما؟.

يبدو أن في هذا حكمتين:

الأولى: أنه ذكرهما من باب «التغليب» كما تقول: الأبوان للأب والأم، والعمران لأبـي بكر وعمر. فطالما أنهما رفيقان في السفر، فهما مشترِكـان في الرحلة وما يحدث فيها، ومنه النسيان.

الثانية: أن عاقبةَ النسيان ونتيجتَه واقعةٌ بهما، وليس بالفتى وحده، حيث نتـج عن النسيان للإثنين طولُ الرحلة والنصب والتعب والجوع.

---

(١) سورة النبأ: آية ٢٣.

آتنا غداءنا :

لما سارا وجاوزا مجمع بينهما، أحسَّا بالنصب والجوع، فقال موسى لفتاه: «آتنا غداءنا. لقد لقينا من سفرنا هذا نَصَبا».

وعند إمعان النظر في الآية نستخرج منها ما يلي:

١ ــ جواز بل وجوب حمل الزاد والطعام للرحلة والسفر، وأنّ هذا لا ينافي التوكلَ على الله، بل هو من باب التوكل، لأنه أخْذٌ بالأسباب التي أمرَنا الله بها، وهناك قوم من المغفَّلين المخدوعين، لا يتزودون بالزاد بزعم تعارضه مع التوكل، وهم متواكلون معطِّلون للأسباب التي أوجب الله مراعاتها والالتزام بها.

٢ ــ جواز استخدام الآخرين، وطلبِ إحضار الطعام منهم: إذ طلب موسى من فتاه أن يقدم له الغداء «آتنا غداءنا» مع أن الأَوْلى أن لا يطلب المسلم من أحد شيئاً ــ رغم جوازه ــ.

٣ ــ جواز أن يخبر الإنسان بما يجده في نفسه من جوع ونصب وتعب، وأن هذا لا ينافي الإيمان بالله والاستسلام لأمره والتوكل عليه. فموسى يقول لفتاه: «لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً».

٤ ــ إن موسى لم يشعر بالجوع ولم يجد التعب إلا بعد ما جاوز مجمع البحرين المكانَ المتفق عليه. كما جاء في الحديث المذكور سابقاً «ولم يجد موسى مسّاً من النصب، حتى جاوز المكان الذي أُمر به».

وكأن الإحساس بالنصب والتعب شبه عقوبة على النسيان.

وما أنسانيهُ إلا الشيطان :

لما طلب موسى عليه السلام من فتاه الطعام، تذكر الفتى الحوتَ المشوي المملَّح الذي ذهب في البحر حياً، حيث كان موسى قد طلب منه

أن يخبره عندما يفقد الحوت، فلما استيقظا من النوم ولم يجد الفتى الحوتَ نسي إخبار موسى بفقده، فسارا وقطعا مسافة طويلة حتى شعرا بالتعب.

فلما قال له موسى: «آتنا غداءنا لقد لقينا من سفرنا هذا نصباً».

أجابه يوشع قائلاً: «أرأيتَ إذ أوينا إلى الصخرة، فإني نسيتُ الحوت، وما أنسانيهُ إلا الشيطان أن أذكره».

عرض عليه أن يرجعا إلى الصخرة التي ناما عندها، والتي فقد عندها الحوت، ونسي تذكير موسى به. واعترف بأنه نسي الحوت هناك. ونسب النسيان إلى الشيطان، وقال: «فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره».

وأولُ ما يواجهنا ضم الهاء «أنسانيهُ» فما هي الحكمة من ضمها؟.

قال ابن زنجلة في حجة القراءات: «قرأ حفصٌ عن عاصم: «وما أَنسانيهُ» بضم الهاء على أصل الكلمة، وأصلُها الضم.

وإنما عدل عن كسر الهاء إلى الضم، لمّا رأى الكسرات من «أنسانيهِ» وكانت الهاء أصلها الضم، رأى العدول إلى الضم ليكون أخف على اللسان من الاستمرار على الكسرات.

ومَنْ كسر الهاء فلمجاورة الياء قبلها، كما تقول: فيه، وعليه»[1].

نلاحظ أن يوشع بن نون، نسب النسيان إلى نفسه أولاً حيث قال: «فإني نسيت الحوت».

ثم نسب الإنساء إلى الشيطان حيث قال: «وما أنسانيهُ إلا الشيطان» ولا تعارض بين النسبتيْن.

---

(١) حجة القراءات لابن زنجلة: ٤٢٢.

إن يوشع لم يتنصّل من النسيان، ولم يتبرأ منه، بل اعترف به، ونسبه له «إني نسيت الحوت».

التاء هي الفاعل، والتاء تعود على يوشع، يعني أنا الذي قمت بفعل النسيان، أنا الذي نسيت.

وبعدما اعترف بالنسيان ونسبه إليه، بيّن من هو الذي جعله ينسى، ومن هو الذي قام بإنسائه، إنه الشيطان، فقال: «وما أنسانيه إلا الشيطان».

إن الشيطان هنا هو الفاعل، وإن يوشع هو المفعول به ــ الهاء هي المفعول به وهي تعود على يوشع ــ.

ونلاحظ أنهما فعلان لا فعلاً واحداً.

الأول: نسي الثلاثي، وقد نسبه يوشع إلى نفسه.

الثاني: أنسى الرباعي، وقد نسبه إلى الشيطان، وأنسى يُنسب لمن يقوم بعملية النسيان، أي لمن يجعل غيره ينسى.

وهذه حقيقة، فإن الشيطان هو الذي يوقعُ الإنسان في النسيان، وهو الذي يحمله على النسيان ويجعله ينسى، يجعله ينسى ربه، ويجعله ينسى دينه، ويجعله ينسى واجبه، وذلك حتى يسهل عليه السيطرة عليه، والاستحواذ على قلبه.

إن الشيطان لا يتمكن إلا من الإنسان عندما ينسى، أما المسلم اليقظ المبصر فإن الشيطان لا سبيل له إليه. قال تعالى: ﴿إِنَّ الذينَ اتَّقَوْا إذا مَسَّهُمْ طائِفٌ مِنَ الشَّيْطانِ تَذَكَّروا فَإِذا هُمْ مُبْصِرون * وَإِخْوانُهُمْ يَمُدُّونَهُمْ في الغَيِّ * ثُمَّ لا يُقْصِرون﴾[1].

---

(١) سورة الأعراف: آيات ٢٠١ ــ ٢٠٢.

إن الشيطان هو وراء كل نسيان، هو الذي جعل الناس ينسون، أنت تنسى والشيطان هو الذي ينسيك، وأنا أنسى والشيطان هو الذي ينسيني.

«فإني نسيت الحوت، وما أنسانيه إلا الشيطان أن أذكره».

سرباً وعجباً:

عبَّر القرآن عن ذهاب الحوت في البحر بتعبيرين.

قال أَوَّلًا: «نسيا حوتهما، فاتخذ سبيله في البحر سرباً».

وقال بعدها: «فإني نسيت الحوت، وما أنسانيهُ إلا الشيطان أن أذكره، واتخذ سبيله في البحر عجباً».

ومعنى سَربا: أن الحوت لما سار في البحر، منع الله الماء أن يلتئم ويلتقي خلفه، فكان وراءه ممراً فارغاً من الماء على وجه الماء، وكان مثل الطاق، كما ذكر رسول الله ﷺ: «وأمسك الله عنه جرية الماء، حتى كان مثل الطاق».

ومعنى عجباً: أنَّ بعْثَ الحياة فيه ـ وهو الحوت المشوي المملح الموضوع في مكتل ـ وخروجَه من مكتله، وذهابَه في البحر، وحبسَ الماء خلفه، كل هذه المعجزات تدعو للعَجَب والتعجب من البشر. ولذلك عجب منها موسى عليه السلام وفتاه.

بقي أن نبيِّن الحكمة من اختلاف التعبير عن نفس الحادثة. فلماذا قال مرة «سرباً» وقال مرة أخرى «عجباً»؟.

الجواب في حديث رسول الله ﷺ، حيث قال: «فكان للحوت سرباً، ولموسى وفتاه عجباً».

فَسِرُّ اختلاف التعبير، هو الناحيةُ التي لحظها التعبير القرآني، والزاويةُ التي نظر للقصة من خلالها.

فهو في المرة الأولى كان ينظر للحادثة من زاوية الحوت، ويلحظ حركة الحوت في البحر، فقال: ﴿واتخذ سبيله في البحر سرباً﴾.

أما في المرة الثانية فكان ينظر للحادثة من زاوية موسى عليه السلام وفتاه، ويلحظ أثر حركة الحوت على نفسية وشعور موسى وفتاه، ولا شك أنهما سيَعْجَبان من حركة الحوت، ولذلك قال: «واتخذ سبيله في البحر عجباً».

ونشير هنا إلى أن العجب الذي أثارته حركة الحوت وبعثه، ليس مبعثه الإنكار والاستغراب، لأن موسى عليه السلام وفتاه، يؤمنان بقدرة الله على البعث وصنع المعجزات، وإنما مبعثه هو دهشةُ المفاجأة، والانفعالُ بها.

وأنّى بأرضك السلام؟:

لما أخبر يوشعُ موسى عليه السلام بنسيانه للحوت، وعرض عليه العودة إلى الصخرة، قال له موسى: «ذلك ما كنا نبغي».

فرجعا في طريقهما، وصارا يقصّان آثار سيرهما، يتبعان مواضع خطْوِهما، «فارتدا على آثرهما قصصاً».

ويمكن أن نأخذ من ذلك إشارة إلى أهمية قص الأثر وكيفيته، وجوازه.

ولما وصلا مجمع البحرين، وأَوَيا إلى الصخرة هناك، وجدا «عبداً من عبادنا» وكما قال رسول الله ﷺ: «فإذا هو بالخضر، مَسجَّى ثوباً، مستلقياً على القفا».

فسلم عليه موسى فكشف الخضر عن وجهه الثوب، وقال: وعليك السلام.

واستغرب الخضر رجلاً يسلم عليه في تلك البلاد، فسأله «وأنّى بأرضك السلام؟».

وتساؤل الخضر عليه السلام يحتاج إلى وقفة:

كأن الخضر عليه السلام يستغرب أن يسمع أحداً في تلك البلاد يطرح السلام، ربما لعدم وجود مؤمنين في ذلك المكان، وما كان يعلم بسير موسى إليه.

لكننا نفهم من تساؤل الخضر أمراً أبعد وأنفذ وأعمق.

كأنه يقصد الأرض كلها، فيشير إلى أن السلام لا يمكن أن يتحقق على وجه الأرض، بل لا بد أن يبقى الخلاف والنزاع والصراع والدفع يعم وجه الأرض، وإن التاريخ يخبرنا أنه ما تكاد تخلو فترة من فترات التاريخ من حروب تنشب هنا وهناك على سطح الأرض.

وإن هذه الحروب تزداد كثرةً وحِدَّة وتوسُّعاً، وانتشاراً في هذا العصر، وأيُّ قارىء للصحف والمجلات، لا تكاد تقع عينه إلا على أنباء الصراع والقتال، وأي مستمع لوسائل الإعلام المسموعة والمرئية لا يكاد يطرق أذنه إلا أخبار الصراع والقتال.

وهذا ما يوحي به قوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً واحِدَة، وَلا يَزالونَ مُخْتَلِفين، إلاَّ مَنْ رَحِمَ رَبُّك * وَلِـذلِكَ خَلَقَهُم﴾[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْض﴾[2] وهذا المعنى يوحي به تساؤلُ الخضر «وأنّى بأرضك السلام»، وأنّى: كلمة للاستبعاد، أي أنه يستبعد تحقق السلام على وجه هذه الأرض.

---

(١) سورة هود: آيات ١١٨ ــ ١١٩.

(٢) سورة البقرة: آية ٢٥١.

عبداً من عبادنا:

وصف القرآن الخضر بقوله ﴿فوجدا عبداً من عبادنا﴾.

ووصْفه بالعبودية لله لا يعني نفي النبوة عنه، ولا منافاة بين الوصفين. فقد رجحنا فيما سبق أنه نبي.

إن العبودية أبرزُ مظاهر النبوة، فالأنبياء أكثر الناس عبودية لله، لأنهم أعرف الناس بمقام الله وما يجب له سبحانه، وأكثرُ الناس شكراً لله على نِعَمه.

وقد وصف الله أنبياء كراماً بالعبودية. كما في قوله عن نوح عليه السلام: ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نوحٍ إِنَّهُ كانَ عَبْداً شَكوراً﴾[1].

وكما في قوله تعالى عن رسول الله ﷺ: «سُبْحانَ الذّي أَسْرى بِعَبْدِهِ لَيْلاً﴾[2].

ونشير إلى أن القرآن يستعمل ــ غالباً ــ كلمة «عباد» للمؤمنين بالله. و «عبيد» للكافرين بالله.

بين الرحمة والعلم:

بيَّن القرآن ما أنعم الله به على الخضر بقوله: ﴿آتيناه رحمة من عندنا * وعلَّمناه من لدّنا علماً﴾.

ومن لطائف هذه العبارة أن الرحمة تُؤْتى إيتاء من الله للعبد، وذلك لأنها فيض من الله، يغمر الشخص، فيجعله يعيش في سعادة وهناء.

أما العلم فإنه يعلَّم من الله تعليماً، لأنه يحتاج إلى جهدٍ وتعلُّمٍ وكسبٍ

---

(١) سورة الإسراء: آية ٣.

(٢) سورة الإسراء: آية ١.

وسعي. وإذا لم يتفاعل الإنسان مع العلم، ولم يسعَ إلى تحصيله، لم يَكتسب منه شيئاً.

كذلك من لطائف هذه العبارة، جَعْلُها الرحمة من عند الله «رحمة من عندنا» أما العلم هنا فإنه من لدن الله ﴿وعلَّمْناهُ من لدنّا علماً﴾.

لقد فرقت العبارة بين «عند» و«لدن».

قال الإمام الراغب الأصفهاني: «لَدُنْ: أخصُّ من عِنْد، لأنه يدل على ابتداء نهاية، نحو: أقمت عنده من لدن طلوع الشمس إلى غروبها. فيوضع لدن موضع نهاية الفعل.

وقد يوضَعَ موضِع عند فيما حكى، يقال: أَصَبْتُ عنده مالاً، ولدنه مالاً.

قال بعضهم: لدن أبلغ من عند وأخص»[1].

فعلى كلام الراغب لدن أخص من عند وأبلغ. فلماذا عبّر عن العلم بها؟

إذا ما نظرنا في الرحمة والعلم، نجد أن الرحمة أعم من العلم. فالرحمة من الله شاملة لكل المخلوقات، فلا حياة لها إلاّ برحمة الله، كما أن الرحمة شاملة لبني البشر، مسلمين وكافرين، ولولا رحمة الله لما عاشوا.

أما العلم فإن الله لا يمنحه لكل المخلوقات، كما أنه لا يمنحه لكل الناس، وبخاصة إذا كان العلم علماً لدنّياً خاصاً، مثل العلم الذي علمه الله للخضر عليه السلام.

---

(١) المفردات للراغب: ٤٤٩.

فنظراً لعموم الرحمة، عبَّر عنها بكلمة «عند» العامة، ونظراً لخصوصية العلم، عبّر عنها بكلمة «لدن» الخاصة ــ والله أعلم ــ.

ونفهم من التعبير عن علم الخضر بأنه من لدن الله، إيحاءً لموسى عليه السلام، بأن أفعال الخضر صحيحة وصائبة، لأنها ناتجة عن علم لدنّي من الله سبحانه.

لكننا نحب أن نقف عند الحكمة من تقديم الرحمة على العلم ﴿آتيناه رحمة من عندنا * وعلمناه من لدنّا علماً﴾.

فما هي الصلة بين الرحمة والعلم؟ ولماذا قُدِّمت الرحمة على العلم؟.

إن الرحمة هي الأساس الذي يسبق العلم، وهي الجو والبيئة المناسبة، لنفع العلم وخيره وبركته، فإذا نُزِعت الرحمة من العلم، وإذا لم تسبق العلمَ، ولم تكن تمهيداً وأساساً له، كان العلم شراً وخراباً وتدميراً.

ولهذا المعنى قُدمت على العلم.

كان علم الخضر ممزوجاً بالرحمة، وكانت الرحمة أرضية مناسبة له، تفاعل معها، ونما من خلالها، فكان علمه نافعاً خيِّراً مباركاً، بعلمه هذا حفظ السفينة من المصادَرة، وبعلمه أراح الوالدَيْن من ابنهما الكافر، رجاء أن يعوضهما الله عنه بآخر مؤمن، وبعلمه بنى الجدار للغلامين اليتيمين وحفظ لهما كنزهما.

وهو فعل هذا لأنه مرحوم بعلمه، فكان علمه مرحوماً كذلك، وكان الآخرون مرحومين بعلمه أيضاً.

وقل مثل هذا في علوم المسلمين، حيث كانت علومهم المختلفة ممزوجةً بالرحمة، متفاعلةً معها، فنفعت المسلمين، ونفعت معهم الآخرين.

أما العلم إذا نُزعت منه الرحمة، وإذا لم تسبقه الرحمة، وإذا لم يتفاعل معها، فإنه يكون علماً ضاراً شريراً سيّئاً مدمّراً مخّرباً قذراً، وهذا أبرز ما يكون انطباقاً على علوم الغربيين المعاصرة.

عندهم علم، وعندهم تقدم علمي، وقد بلغوا فيه مستويات لم يصلها خيال من سبقهم، وتشعّبتْ علومهم وتنوعتْ، وما تركت مجالاً من مجالات الحياة.

لكن هذه العلوم والمخترعات والصناعات والاكتشافات، كانت وبالاً على أصحابها وعلى الآخرين، واستُخدمت في التخريب والتدمير والبغي والفساد والعدوان. وازدادت البشرية بتلك العلوم شقاء وحسرة، وعُقَداً وأمراضاً وخسارة. ومَن كان في شك من هذا فليخبرنا: هل الأسلحة الذرية والنووية والالكترونية، لنفع العالم أم لضُره؟ وهل أنقذتْ القنابل الذرية مدينتي «هيروشيما» و «نجازاكي» أم دمّرتهما؟ وماذا فعلت الأسلحة المتقدمة الجرثومية في الحرب العالمية؟ وماذا تفعل قنابل «النابالم» والقنابل «العنقودية» و «الفوسفورية» في الضحايا؟ وماذا تفعل الأسلحة الكيميائية في الحروب؟ وكم في المخازن السرية عند الدول المجرمة، من أسلحة فتاكة تتضمن جراثيم وميكروبات أوبئة فتاكة، مثل السرطان والكوليرا، وأخيراً «الأيدز» الذي جهَّزوه في المعامل، لينشروه على الخصوم عندما يحاربونهم!.

إن الأسلحة الحديثة الكيميائية والجرثومية، تمثل أقذر وأَخَسَّ وأَحَطَّ ما وصل إليه العلم الإنساني المدمّر، نتيجة لذكائه الشيطاني الأسود الحاقد.

في ضوء هذا البيان ندرك طرفاً من حكمة تقديم الرحمة على العلم في قوله: ﴿آتيناه رحمة من عندنا * وعلمناه من لدنا علماً﴾.

وفي ضوء هذا البيان ندرك أهمية مزج العلم بالرحمة، وإضفاءِ العنصر الأخلاقي عليه، ليكون نافعاً خيّراً مباركاً مرحوماً.

الأدب في طلب العلم :

لما قابل موسى الخضرَ ـ عليهما السلام ـ قال له الخضر: إنك على علم من علم الله علَّمكه الله، لا أعلمه. وأنا على علم من علم الله، علمنيه، لا تعلمه.

فقال له موسى: هل أتبعك على أن تعلمن مما علمت رشداً؟.

ونأخذ من كلام الخضر لموسى أنه لا أحد يحيط بالعلم، ولا يلمُّ به كلِّه، فها هو موسى النبيُّ الكريم عليه السلام لا يعلم بعض الأمور، كما أن الخضر عليه السلام ـ وهو النبي الكريم أيضاً ـ لا يعلم بعض الأمور، وكلٌّ منهما علَّمه الله علماً، لم يعلِّمه للآخر.

وأراد الخضر أن يُقرِّب هذا المعنى لموسى، فلما ركبا في السفينة، جاء عصفورٌ فوقع على حرْف السفينة، فنقر بمنقاره نقرة أو نقرتين من ماء البحر، فقال الخضر لموسى عليهما السلام: يا موسى، ما نقص علمي وعلمك من علم الله، إلا كنقرة هذا العصفور من ماء البحر!.

كل علوم البشر قليلةٌ بالقياس إلى علم الله، ولهذا قال الله تعالى: ﴿وَما أُوتيتُمْ مِنَ العِلْمِ إلَّا قليلاً﴾(1).

وقال القائل:

فقل لمَن يدَّعي في العلم معرفةً حفظت شيئاً وغابتْ عنك أشياءُ

أما قولُ موسى له: «هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلى أَنْ تُعَلِّمَنِ مما عُلِّمْتَ رُشْداً؟».

فنأخذ منه أمرين اثنين:

الأمر الأول: الأدب في طلب العلم، واللطف في التعبير ومخاطبةِ

(1) سورة الإسراء: آية ٨٥.

العالم، حيث قال لـه: «هل أتبعـك؟» بهذا العـرض الرقيق، وهـذا الاستفهام الاسترحامي اللطيف.

ثم أنا أتبعك، فأنا تابـع لك، ولستُ نِدًّاً لك، ولا متعالِماً عليك.

واتبـاعي لك بهـدف، ورحلتي إليك ومعـك بهدف، هـو أن أتعلم منك «على أن تعلمن مما علمت».

عندما يُطْلَب العلم مـع الأدب يكون خيِّراً ونافعـاً، وعندمـا يُطْلَب العلم بدون أدب يكون ضرراً على صاحبه وعلى الآخرين.

بعضُ طلبـة العلم يفقـدون أدب الـطلب، فـإذا قـرأ المـرء منهم مسألـة أو مسألتين، وحفظ حديثاً أو حديثين، ظن نفسه عالماً مجتهداً، يجب أن يُشار إليه بالبنان. «فيتعالمُ» على العلماء، ويظهر على حسابهم، فيعمـل على ذمِّهم وانتقاصهم.

ومن يُحْرم أدب الطلب يُحْرم العلم، ويحرم الخير كله.

ومن أجـود الكتب في أدب الطلب «تَـذْكِرَة السَّـامِـع والمتكلم في آداب العالم والمتعلم» لابن جماعة.

الأمر الثاني: هو الهدف من طلب العلم والتعلم، وهو تحصيل الـرُّشْد، «على أن تعلمن مما علمت رشداً».

«رُشْدا» في الجملة: إعرابها تمييز.

والتمييز هو ما يُميِّز الشيء.

ويجب أن نـوظِّف النحو أداةَ ووسيلة لاستخـراج بعض لفتـات ودلالات التركيب البياني القرآني.

إن مـوسى عليـه السـلام يكشف بكلمـة «رُشْـدا» عن هـدفـه من طلب

العلم، إنه يريد أن يتعلم الرشد، يتعلم ليكون راشداً رشيداً، يتعلم العلم النافع الصحيح الذي يوجِد عنده الرشد، ويجعله يتعامل مع الناس برشد، ويعيش بينهم برشد.

بعض طلبة العلم يجعلون التعلم بحد ذاته غاية وأملاً، يريدون أن يتعلموا ليتعلموا، فيرفعوا شعار «التعلُّم للتعلُّم والعلم للعلم».

ويعلمهم موسى أن يكون طلبُ العلم والتعلم وسيلةً إلى غاية شريفة، وهي: الحصول على الرشد وتحقيقه.

ثم إننا نرى بعض طلبة العلم يتعلمون العلم الذي يوصِل للشر والضرر، أو يدفع للأخلاق القبيحة، والصفاتِ السيئة، أو يتعلمون العلوم التافهة الهزيلة المرذولة، ويضيِّعون فيها الكثير من الأموال والأوقات والمواهب والقدرات والطاقات.

وإلا فقل لي بالله عليك، أَيُّ رُشْد في تعلم الموسيقى والغناء؟ وفي تعلم الرقص والرسم والنحت والتمثيل؟.

العلم النافع هو الذي يُنتج الرشد، فيكون شجرة طيبة مباركة، يثمر الثمار الطيبة النافعة، ويقود إلى العمل وحسن التصرف.

لن تستطيع معي صبراً:

رد الخضر عليه السلام على طلب موسى بقوله: «إنك لن تستطيع معي صبراً».

لقد أخبر موسى بأنه لن يصبر على مصاحبتِه والسير معه. وعبَّر عن ذلك بعدم الاستطاعة.

هناك فرق بين قوله: «إنك لن تصبر معي»، وبين قوله: «لن تستطيع معي صبراً»،في العبارة الأولى نفي للصبر فقط.

وفي العبارة الثانية بيانُ أنه سيبذل جهده في الصبر، وسيُصَبِّر نفسه على الصبر، ومع هذا لن يستطيع.

لقد أكَّد الخضر هذا الأمر لموسى بعدة توكيدات:

إن: التي هي حرف توكيد ونصب.

لن: التي تفيد النفي المطلقَ المؤكَّد المؤبَّد.

تستطيع: الاستطاعة هي المنفية، وليس الصبر، إنه سوف يحاول ويجاهد نفسه، ويبذل كل جهده في أن يصبر، ومع هذا كله فلن يستطيع.

معي: وذكر هذه الكلمة يوحي بأنه سيعجز عن الصبر معه، وفي هذا تطمين ـ مع ما فيه من التحدّي ـ فهو لا يريد أن يطعن في قدرة موسى وطاقته على الصبر والاحتمال.

إنه قد يصبر مع غير الخضر، أما عجزه عن الصبر فسيكون فقط مع الخضر.

من التفسير النفسي: وكيف تصبر؟:

ويبدو أن موسى عليه السلام أُصيبَ بالدهشة والاستغراب، إذ كيف يجزم الخضر هذا الجزم، ويؤكده بتلك المؤكَّدات؟ومَنْ أدراه أن موسى سيبذل جهده في الصبر وسيعجز عنه؟.

فقدَّم له الخضر تعليلاً لذلك بقوله: «وكيف تصبر على ما لم تُحط به خُبْراً؟».

وفي الحديث أن الخضر قال له: وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً؟ شيءٌ أمرتُ به أن أفعله، إذا رأيتَه لم تصبر».

إن موسى لن يصبر لأنه سيرى أفعالاً وتصرفاتٍ للخضر، في ظاهرها

غريبة، وهو لا يعرف حقيقتها، ولذلك سينكِر عليه تلك الأفعال، ولن يصبر على السير معه.

ويشير قول الخضر «وكيف تصبر على ما لم تحط به خبراً» إلى صفة من صفات النفس الإنسانية. ولذلك يجب أن ننظر فيه على ضوء علم النفس التحليلي الصائب، لنستخرج بعض أبعادِه من باب التفسير النفسي للآيات ذات الأبعاد النفسية.

إن الله قد فطرَ النفسَ الإنسانية على حب الاستطلاع، فالإنسان يحب أَن يعرفَ ما يدور حوله، وأن يتعرف على ما يراه ويسمعه، ولذلك يُكْثر من الأسئلة والاستفسارات، ليكتسب علوماً ومعارف جديدة.

فإذا ما رأى أشياءَ لم يفهمها، فإنه يسارع إلى الإنكار والاعتراض، أو على الأقل يطلب التوضيح والبيان.

إن طبيعة الإنسان أن لا يسير هكذا، مُلْغياً عقله وفكره، ولذلك لا يَصْبِر على ما لم يفهمه، ولا يسكت على ما لم يستوعبه.

وهذا ما عرفه الخضر من طبيعة النفس الإنسانية، ولذلك قال لموسى عليه السلام: شيءٌ أُمِرْتُ به، إذا رأيتَه أنت لم تصبر.

لم تصبر عليه لأن نفسك لم تقف على حقيقته، وعقلك لم يستوعبْه، لأنك لم تحط به خُبراً، فتظنه أمراً يدعو إلى الإنكار.

من آداب الصحبة والسفر:

تعهَّد موسى عليه السلام للخضر، بأنه سيكون صابراً «قال ستجدني إن شاء الله صابراً. ولا أَعْصِي لك أمراً».

فطلب منه الخضر الالتزامَ بوسيلة لتحقيق هذا. قال: فَإِنِ اتَّبَعْتَني، فَلا تَسْأَلْني عَنْ شَيْءٍ، حَتّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكراً».

طلب منه أن لا يسأله عن شيء، وأن لا يعترض على شيء، وأن ينتظر الخبر والبيان والتفصيل من الخضر.

وكأنَّ الخضر بهذا يمهد للرحلة، ويوحي لموسى بأنه سيرى مفاجآت وأحداثاً وأموراً، قد يراها باطلة أو منكرة ـ حسب الظاهر ـ فلا يعترضْ ولا يتكلم فيها، بل ينتظر البيان من الخضر، بدون أن يسأله عنها.

وعندما نُمعن النظر فيما جرى بين النبييْن الكريميْن، فإننا نجده يشير إلى آداب الصحبة في السفر، ويوحي بالطريقة الصحيحة الكفيلة بقضاء الرحلة وإتمام السفر بتعاون وانسجام، وإبعاد الخلاف والنزاع بين المسافرين.

فموسى عليه السلام يعدُ بالصبر ويستعينُ بالله لتحقيقه.

والصبر مرتبط بالسفر ارتباطاً وثيقاً، لأنه لا بد منه للسفر، فسفر بدون صبر، خلاف ونزاع وشقاء.

إن السفر قطعة من العذاب، وإن المسافر يكون قلِقاً تعباً منهَكاً، متوتَر الأعصاب، سريعَ الغضب والانفعال.

ولذلك يستعين المسافر الصالح على ما يجده من ذلك الصبر.

قال موسى: «ستجدني إن شاء الله صابراً».

ومن آداب الصحبة في السفر الطاعة لأمير الرحلة «ولا أَعصي لك أمراً».

في السفر لا بد من أمير ليطاع، ولا بد من ترتيب الأمور وتنظيمها، وتوزيع الأدوار والأعمال والواجبات، لا بد من تنفيذ الأوامر وإيجاد المطلوبات. ومن آداب السفر أن لا يكثر الاخوان المسافرون من الاعتراض والإنكار وإثارة المشكلات «قال فإن اتبعتني فلا تسألني عن شيء حتى أحدث لك منه ذكراً».

الخضر والسفينة:

اتفق موسى مع الخضر ـ عليهما السلام ـ على أن يصحبه في الرحلة، ليتعلم منه، على شرط أن لا يسأله عن شيء، حتى يخبره عنه الخضر.

وانطلقا.

سارا على شاطىء البحر، وأرادا أن يركبا سفينة، فمرَّت بهما سفينة، فاستوقفاها، وركبا فيها، وعرف أهل السفينة الخضر، فأركبوهما بغير أجرة ـ بغير نَوْل كما في الحديث ـ.

ومعرفةُ أهل السفينة للخضر، دليل على أن الخضر كان معروفاً لأهل تلك المنطقة، وكانت له صِلاتٌ اجتماعية، ومعرفةٌ بالآخرين، ولم يكن منعزلاً عنهم، معتزلاً في الكهوف والجبال.

وبينما هما في السفينة، جاء عصفور وأخذ من ماء البحر قطرة بمنقاره.

وأراد الخضر أن يقدِّم مسألة علميّة إلى موسى ويوضِّح له الأمر عن طريق المنطق البرهاني، واستخدام وسائل الإيضاح.

قال له: أتدري كم أخذ العصفور من ماء البحر.

فأجاب موسى: وماذا أخذ؟ إنه لم يأخذ إلا نقطة ماء.

فقال الخضر: ما علمي وعلمُك بالقياس إلى علم الله إلا كما أخذ العصفور من ماء البحر!.

وبينما هما في السفينة، عمد الخضر إلى لوح من ألواح السفينة فاقتلعه، وعجب موسى من الأمر، وتساءل عن الموضوع، ووازنه في نفسه، فلم يجد له معنى. إنه يقود إلى إغراق السفينة وأهلها، وإنه إفساد للسفينة وخرْق لها، وهذا الفعل لا يليق مع الناس الآخرين، فكيف مع هؤلاء أصحاب السفينة الذين أكرموهما؟ أهكذا يقابَل الإكرام والإحسان؟.

لذلك نسي موسى عهدَه مع الخضر، واعترض عليه قائلاً: أخرقْتَها لتغرق أهلها؟ لقد جئت شيئاً إمراً؟.

فذكَّره بما قال له: ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً؟.

واعتذر موسى عن اعتراضه واعترف بنسيانه، وقال له: لا تؤاخذني بما نسيت، ولا ترهقني من أمري عسراً.

وعندما ننظر في هذه المسألة فسنستخرج منها بعض اللطائف:

١ ــ إن الأنبياء قد ينسون، ونسيانهم لا ينافي العصمة، قال الله لرسوله ﷺ: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ إذا نَسيت﴾[1] وقال الله عن آدم عليه السلام: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنا إلى آدَمَ مِنْ قَبْلُ فَنَسِيَ * وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْماً﴾[2].

ونسيان الأنبياء من عوارض البشرية، فهم بشر، والنسيان ملازمٌ لبني الإنسان.

وهذا النسيان ليس من الشيطان، لأنه لا سلطان للشيطان على الأنبياء.

وأنت تجد الفرق شاسعاً بين قول يوشع بن نون «فإنّي نسيت الحوت، وما أنسانيهُ إلا الشيطان أن أذكره».

وبين قول موسى «لا تؤاخذني بما نسيت».

فهناك أسند النسيان إلى الشيطان، بينما موسى أسند النسيان إلى نفسه.

٢ ــ إنكارُ ما يراه الإنسان المسلم مخالفاً للشرع، وعدم السكوت عنه، كما فعل موسى في إنكاره على الخضر فعله.

---

(١) سورة الكهف: آية ٢٤.

(٢) سورة طه: آية ١١٥.

٣ ــ رؤية المنكر ــ حسب الظاهر ــ أنْسَتْ موسى عهده الذي قطعه على نفسه، وهذا من حساسيته تجاهه، ورفضه النفسي له.

٤ ــ خرْق السفينة هو خلع ألواحها. وقد فرَّق العلماء بين الخرق وبين الخلق.

فَالخلْق إيجاد الشيء على سبيل الإصلاح والتقويم، كما في خلق الله للسموات والأرض والإنسان. فخلقُ اللَّهِ لهذه الأشياء على سبيل الإصلاح والتربية والتقويم.

وقد جمعتْ آية بين الكلمتين: الخلْق والخرْق.

وهي ﴿وَجَعَلوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الجِنّ * وَخَلَقَهُمْ * وَخَرَقوا لَهُ بَنينَ وَبَناتٍ بِغَيْرِ عِلْم﴾[1].

وحروف الكلمتين واجتماعها يوحي بالظلِّ الطيب لكل منهما.

فكلمة «خَلَق» مكونة من ثلاثة أحرف، أوسطها «اللام» وعندما ننظر في وظيفة اللام في الكلمة، نرى أنها قامت بدور الإصلاح، حيث كانت توصيلاً، وصَّلت بين الخاء والقاف.

أما كلمة «خَرَق» فأوسطها الراء، وهذه الراء توحي بمعنى الخرق وهو الإفساد والتفريق. لأنها فصلت بين الحرفين الخاء والقاف!.

٥ ــ لتغرق: هذه اللام لام العاقبة، وليست لام التعليل. لأن عاقبة ونتيجة خرق السفينة هي إغراق أهلها.

وفي قوله لتغرق أهلها إشارة إلى تكريم الإنسان وتقديمه على المادة والآلة، فالإنسان هو الأكرم والأفضل، وهذا ردُ على الشيوعية التي تفضِّل

---

(١) سورة الأنعام: آية ١٠٠.

المادة على الإنسان. كما أن في قوله لتغرق أهلها إشارةٌ إلى عظم الأمر، لأنه سيؤول إلى إغراق أهل السفينة، ولذلك اعترض عليه.

ولما فسر الخضر لموسى سرّ الأمر قال له: ﴿أَمَا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمساكينَ يَعْمَلونَ في البَحْرِ * فَأَرَدْتُ أَنْ أَعيبَها * وكَانَ وراءَهُمْ مَلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفينَةٍ غَصْباً﴾.

وفي تعليل الخضر للأمر نستخرج ما يلي:

١ ـ إن المساكين يملكون سفينة، وهذا دليل على أن المسكين قد يملك بعض المال أو المتاع، ولكنه لا يكفيه لقضاء حاجاته. أما الفقير فهو الذي لا يملك شيئاً.

٢ ـ كلمة «وراء» معناها أمام. يعني أن أمامهم ملك ظالم، كلما مرَّت به سفينة صالحة، يأخذها غصباً ونهباً، ويصادرها ويستولي عليها. وما كان موسى ولا غيره يعلمون بذلك، بينما أعلمَ اللَّهُ الخضر بذلك، وأوحى إليه أن يخرق السفينة ليحافظ عليها.

٣ ـ ونفهم من تصرف الخضر، أن الملك ما كان يأخذ إلا السفينة الصالحة.

٤ ـ وفعْلُ الملك يدل على شيء عجيب، لأن الأصل في وظيفته أن يحافظ على الرعية بأشخاصهم وممتلكاتهم وأموالهم، وأن يكون حامياً لها، وأن يمنع كل من يعتدي عليها، أما أن يتحول هذا المَلِك إلى قاطع طريق، وأنْ يستغلّ منصبه وجيشه ورجاله لتحقيق ذلك الأمر، فهي المصيبة العظمى، والطامَّةُ الكبرى.

٥ ـ عند فساد الحكام، لا ينقذ الناس إلا الدعاة والمصلحين، حيث يكونون هم الأمل والمنقذون، الذين يقفون في وجه الظلم والفساد والطغيان، كما فعل الخضر.

٦ ـ وهناك لفتة لطيفة، وهي: إن الخضر حافَظَ على السفينة عن طريق خرقها، فقد يستدعي الإصلاحُ الشاملُ القيامَ ببعض الفساد الجزئي، وقد يختلط الإصلاح ببعض الإفساد، فإذا كان الأمر كذلك، فإن المصلح يجد نفسه مضطراً لذلك.

إن الإسلام يوجبُ إقامة الحدود للحفاظ على الأمة والدين والأخلاق، فقتْلُ القاتل ورجْمُ الزاني وقطْعُ السارق، في ظاهره إفساد وإزهاق للأرواح، لكنه ضروري للحصول على الإصلاح.

الخضر وقتل الغلام:

إعتذر موسى للخضر عليه السلام عن نسيانه.

وانطلقا.

وخرجا من السفينة. وسارا على شاطىء البحر، فوجدا مجموعة من الغلمان يلعبون معاً، فنظر الخضر إلى غلام منهم، حدث صغير، فأقبل عليه ففتل رأسه فقتله. ومات الغلام بين يديه.

ودهش موسى مما رأى وتعجب، واستغرب كيف يُقبِل الخضر النبي على غلام صغير لم يرتكب خطأ ولا جريمة، فيقتله.

لذلك توجّه إلى الخضر منكراً فعله: قال: أقتلت نفساً زكية بغير نفس؟ لقد جئت شيئاً نكراً».

هنا ذكَّر الخضر موسى عليه السلام بما قال له من قبل، قال: ألم أقل لك إنك لن تستطيع معي صبراً».

وكأن الخضر يذكِّر موسى بأنه يتوقع منه الاعتراض والإنكار، لأنه سيرى منه أشياء لا تُقْبَل، عندما ينظر إليها نظرة ظاهرية خارجية.

وشعر موسى بتعجُّله في الإنكار، وعدم صبره على ما قطعه على نفسه، وخجل من كثرة تعجله وإنكاره ولوم وعتب الخضر عليه. فقال له: إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني. قد بلغت من لدنّي عذراً.

وعندما علّل الخضر لموسى فعله مع الغلام وقتله له. قال له: «وَأَمّا الغُلامُ فَكانَ أَبَواهُ مُؤْمِنَيْن، فَخَشينا أَنْ يُرْهِقَهُما طُغْياناً وَكُفْراً. فَأَرَدْنا أَنْ يُبْدِلَهُما رَبُّهُما خَيْراً مِنْهُ زَكاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً».

ونقف وقفة سريعة نستخرج بعض اللفتات من هذه الآيات:

١ ـ قتل الخضر للغلام الصغير في ظاهره أمر يدعو للإنكار، ولذلك أنكره موسى عليه السلام. وإنكارُ موسى لذلك الفعل دعوةٌ لنا إلى إنكار المنكر، والجهر بالإنكار.

٢ ـ قول موسى للخضر «أقتلت نفساً زكية بغير نفس» فيه دلالة على القتل المشروع شرعاً، وهو قتل النفس بالنفس، وذلك أن موسى أنكر قتل الغلام لأنه لا يستحق القتل إذ أنه لم يَقْتل شخصاً آخر ليُقْتل به.

ومعروف أن الكتاب والسنة صريحان على القصاص وقتل النفس بالنفس. لكن معرفة موسى عليه السلام بذلك، دليلٌ على أن حكم الله في التوراة هو القتل قصاصاً.

وهذا ما أشار إليه القرآن بصراحة. وذلك في قوله: ﴿وَكَتَبْنا عَلَيْهِمْ فِيها أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْس * وَالعَيْنَ بالعَيْن * وَالأَنْفَ بِالأَنْف * والأُذُنَ بِالأُذُن * وَالسِّنَّ بِالسِّنّ * وَالجُروحَ قِصاصْ﴾[1].

كتبنا عليهم: يعني على بني إسرائيل.

---

(١) سورة المائدة: آية ٤٥.

فيها: يعني في التوراة.

ماذا كتب عليهم فيها: القصاص: النفس بالنفس. . . الخ.

وفي هذا دلالةٌ أخرى على اتفاق الكتب السماوية في كثير من الأحكام والتشريعات.

٣ ـ فرَّق موسى في اعتراضه على فعل الخضر. فعندما خرق السفينة قال له: «لقد جئت شيئاً إمراً» بينما قال هنا: «لقد جئت شيئاً نُكْراً».

إمراً: فظيعاً.
نكراً: يدعو للإنكار لنكارته.

«نكراً» أَبلغ في الإنكار من «إمراً». وكأنها مرحلة ثانية في الإنكار، أشدُّ من المرحلة الأولى. وما ذلك إلا للفعلين الصادرين. فأيهما ـ في ظاهره ـ أفظع؟ خرْق السفينة أم قتل الغلام؟ لا شك أن قتل الغلام أفظع. لذلك عبّر عنه بكلمة أبلغ في الإنكار.

٤ ـ كلمة «نكراً» تعني أن الفعل يدعو للإنكار من قِبَل الناس، لأنه خطأ وباطل من حيث الظاهر.

لكن هل قتْل الغلام في الحقيقة خطأ؟ كلا. بل هو صواب. وخاصة بعدما بيّن لنا الخضر سرّ الغيب الذي أخبره الله به، وهو أنه لو كبر لكان كافراً.

ولهذا المعنى وردت كلمة «نكراً» وليس «منكراً».

والفرق بين «النُّكْر» و «المُنْكر» في السياق القرآني.

أنّ النكر: هو ما يظنه الناس باطلاً يستحق الإنكار. بينما هو حق وصواب في ميزان الله وحكمه.

أما المنكر: فهو المرفوض والباطل والخطأ في ميزان الله، وإنْ رضيه بعض الناس وقبلوه.

وأساس اعتبار الأمر معروفاً أو منكراً، هو تقريرُ الإسلام، وبيانُ الكتاب أو السنة، وليس رضى الناس أو عدم رضاهم[1].

٥ ــ قال الخضر لموسى «ألم أقل لك إنَّك لن تستطيع معي صبراً» بينما قال له لما اعترض على خرقه السفينة «ألم أقل إنك لن تستطيع معي صبراً». فنلاحظ هنا أنه زاد كلمة «لك» وهذه الزيادة للتأكيد.

أكّد له ما قاله له عندما التقيا. ذلك لأن موسى أنكر الإنكار الثاني، فكأنَّ الخضر يقوله له: ألم أقل لك، لك أنت.

إنني أعرف أنك لن تصبر معي، وأنك ستعترض، لقد قلتُ ذلك لك. لك أنت.

٦ ــ شعور موسى بالحياء من اعتراضه على الخضر، ولذلك قال له: إنْ سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني. وفي هذا تعجُّلٌ من موسى عليه السلام.

ولذلك قال رسول الله ﷺ: «رَحْمَةُ الله علينا وعلى موسى، لولا أنه عجَّل لرأى العجب، ولكن أخذته من صاحبه ذِمامَة».

وفي هذا تصريح بأنه لو استمر معه لرأى أشياء عجيبة، وقدم لنا تلك العجائب، وأمتعنا بها.

ولكنه استحيى من اعتراضاته، والذمامة هي الحياء.

---

(١) انظر كتابنا «لطائف قرآنية».

٧ ــ بيَّن الخضر أن الذي دفعه إلى قتل الغلام، هو إيمانُ أبويْه، وكفْرُه فيما لو بقي حتى يكبر، فهما مؤمنان، ومع ذلك أنجبا ولداً غيرَ مؤمن. وهذا يدل على أن الصالح قد يكون له أبناءٌ غيرُ صالحين، وقد يكونون كافرين. ولا يعني هذا أن يُقصر الأب الصالح في نصح أبنائه، وتربيتهم وتوجيههم وتقويمهم، فهذا واجب عليه، وهو مقصِّر آثم إن لم يقم به.

لكنه قد يقوم بهذا، وقد يبذل جهده في هذا، ومع ذلك قد لا يستجيب أحد أبنائه له. وقد يختار طريقاً غير طريق أبيه، فيكون كافراً أو عاصياً. فإذا فعل الابن ذلك فإن الأب قد يعجز عن صَرْفه عنه. ولا يُلام في ذلك.

إن الأب مطالبَ بدعوة ابنه ونصحه، ولكنه غيرُ مطالب بقذف الإيمان في قلبه، وجعْله فيه، لأنه لا يملك ذلك، فهو بيد الله وحده.

٨ ــ إن الأب الصالح لا يرضى ولا يقبل أن يكون أحد أبنائه كافراً أو فاجراً عاصياً. بل سيتألم ويحزن ويتعذب. وهذا ما يشير إليه قول الخضر «فخشينا أن يرهقهما طغياناً وكفراً».

يرهقهما بطغيانه وكفره، أي يزعجهما ويتعبهما ويقلقهما ويحزنهما.

وكم يحزن الأب ويتألم ويتعذب ويقلق، عندما يشذ ابنه عن الحق، ويرفض دعوة الخير، ويتمنى لو لم ينجب ذلك الابن، لكن ماذا يفعل، وقد ابتلاه الله بذلك، ولو جاز له قتلُهُ لقتَلَه!!.

إن الأب الصالح يحب أن يكون ابنه خيْراً منه، وأكثرَ منه صلاحاً وعبادة، ويسعى إلى ذلك، ويوجِّه ابنه إليه. وكم تُسرُّ عينه وتنشرح نفسه عندما يرى ذلك. وبالمقابل كم يشعر بالخسارة والألم، والإرهاق والتعب المستمر إنْ رفض ابنه ذلك.

٩ ــ أحياناً يكون موتُ الابن الضال راحةً لوالديْه، وفرجاً لهما. كما

قال الخضر «فأردْنا أن يُبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رُحْماً» فإذا مات ذلك الضال فيَطلبُ الوالدان من الله العوض، ويسألان الله أن يبدلهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً.

إن العبرة ليست بعدد الأبناء، بل العبرةُ بما عليه هؤلاء الأبناء من طاعة وعبادة، وحسنِ معاملة، ورفعةِ خلق، وبرٍّ بالوالدين. فواحد أو اثنان من الأبناء يتصفون بهذه الفضائل، خيرٌ من ستة أو عشرة لا يتصفون بها.

١٠ ــ نشير إلى أنه لا يجوز لأحدنا أن يقتدي بالخضر في هذا الفعل. لا يجوز لشخص أن يقتل غلاماً، بحجة أنه يعرف أنه سيكفر إن كبر. إن الله هو الذي أخبر الخضر بذلك، وكشف له عن مستقبل الغلام، لأن مستقبله من الغيب، ولا يعلم الغيب إلا الله، والله يكشف منه ما شاء لمن شاء من رسله.

أما الناس الآخرون من غير الرسل، فإنهم لا يعلمون الغيب. فَمَنْ أدرى هذا الشخص بأن الغلام الذي أمامه سيكون كافراً؟ ولا وحي بعد رسول الله ﷺ؟.

الخضر والجدار والكنز:

قَبِل الخضر اعتذار موسى عليهما السلام.

وانطلقا.

وبقيتْ واحدة لموسى عليه السلام. فإذا ما اعترض على أمر ما فما عليه إلا أن يفارق الخضر. أليس هذا ما قاله له: «إن سألتك عن شيء بعدها فلا تصاحبني».

وهكذا كان!.

حيث مرّا على قرية بخيلة ﴿إسْتَطْعَما أَهْلَها * فَأَبَوْا أَنْ يُضَيِّفوهُما * فَوَجَدا فيها جِداراً يُريدُ أَنْ يَنْقَضَّ فَأَقامه﴾.

فتعجب موسى من ذلك، واعتبر أن أهل القرية لا يستحقون هذا المعروف الجميل فاعترض على ذلك، وقال للخضر: «لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً». فأعلن له الخضر فراقه له: «قالَ هـٰذا فِراقُ بَيْني وَبَيْنِك».

ولما بيَّن له الحكمة من بناء الجدار قال له: «وَأَمَّا الجِدارُ فَكانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ في المدينة، وكَانَ تَحْتَهُ كَنْزٌ لَهُمَا، وكَانَ أَبوهُما صالِحاً، فَأَرادَ رَبُّكَ أَنْ يَبْلَغا أَشُدَّهُما، وَيَسْتَخْرِجا كَنْزَهُما. رَحْمَةً مِنْ رَبِّك».

ونستخرج من هذه الآيات هذه اللفتات:

١ ــ أهل القرية بخلاء، وصَلُوا الغاية في البخل. إذ مرّ بهم رجلان غريبان لا يملكان الطعام. فالأصل أن يكرمهما أهل القرية بتقديم الطعام لهما، بدون أن يطلبا منهم ذلك.

ولكنهم لم يفعلوا. مما اضطر الخضر وموسى أن يَسْتَطْعِما، أولئك الناس، وأن يطلبا منهم الطعام ليأكلاه. ولكنهم لشدة بُخْلهم رفضوا تقديم الطعام، وأبوا أن يضيفوهما.

٢ ــ وجدا فيها جداراً يريد أن ينقضّ. أي أن الجدار على وشك السقوط. واللطيف في التعبير القرآني أنه نسب الإرادة للجدار.

وقد قال بعض العلماء: إن هذا من باب المجاز في القرآن. وإلاّ فإنّ الجدار ــ وهو الجامد الأصم ــ لا إرادة له، لأن الإرادة من صفات الأحياء. والراجح أن الأمر ليس من باب المجاز، بل من باب الحقيقة! فكل مخلوق له إرادة، ولو كان نباتاً أو جماداً. ولكن هـذه الإرادة قطعاً ليست كإرادة البشر أو باقي الأحياء!.

ثم من قال بأن الجدار ميت؟ إن فيه حياة، تليق به وتكون بمستواه، وهي قطعاً ليست كحياة الأحياء.

فيه حياة ليست كحياة الأحياء. ومن ثَمَّ له إرادة، ليست كإرادة الأحياء.
ونلاحظ أن هذه العبارة «جداراً يريد أن ينقض» فيه تصوير فني رائع، وفيه تشخيصٌ للجدار، حيث جعل له صفة من صفات الأحياء ـ وهي الإرادة ـ وعندما نمعن النظر في الصورة، نكاد نرى الجدار يهم بالسقوط، ويوشك على الوقوع، لولا إصلاح الخضر له.

٣ ـ إقامةُ الخضر للجدار دون أن يطلب أحد منه ذلك، ودون أن يتفق مع أحد على أُجرة، يوحي بأن المسلم راغبٌ في فعل الخير، حريص على تقديم المساعدة للآخرين، ولو لم يطلبوا منه ذلك، إن المسلم خَيِّرٌ فاعِلٌ معطاءٌ نشيط اجتماعي.

كما يوحي أيضاً بأن فعل الخير لا يحتاج إلى إذن، فطالما أن أمام المسلم فرصة للخير والمساعدة، فلْينتهزْها ولْيقم بها.

ويوحي أيضاً بجواز العمل الخيري التطوعي، بدون اتفاق، وبدون أجر أو انتظار مكافأة.

ولا بد للمسلم أن يُعوّد نفسه على هذا، وأن يكون باراً بالآخرين نافعاً لهم.

٤ ـ كان الخضر على حق في إصلاح الجدار وبنائه، لأن الله أعلمه بوجود كنز تحت الجدار، فلو سقط الجدار، ورأى أهلُ القرية البخلاءُ الكنزَ لاستولوا عليه.

٥ ـ كان الكنز لغلامين يتيمين في المدينة، وكانا صغيرين، فلو كُشف الكنز لعجزا عن أخذه واسترداده من بين أهل القرية، ولذلك بنى الخضر الجدار إلى أن يكبرا.

٦ ـ يدل قوله «وكان أبوهما صالحاً» على أن صلاح الآباء له أثر على

حفظ الأبناء وصلاحهم. فبصلاح الأب ساق الله الخضر ليبني الجدار للغلامين.

والقرآن يوحي بهذا. كما في قوله تعالى: ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعافاً * خافوا عَلَيْهِمْ * فَلْيَتَّقوا اللَّهَ * وَلْيَقُولوا قَوْلاً سَديداً﴾[1].

٧ ـ إخفاء الرجل الصالح للمال تحت الجدار، يدل على جواز كنز المال، وتوفيره، وإدِّخاره لوقت الحاجة، بل الأَوْلى للمسلم أن يدّخر جزءاً من ماله للمفاجآت والطوارىء، وهذا لا يتناقض مع التوكل على الله.

رحمة من ربك:

بعد أن كشف الخضر لموسى سرَّ أفعاله الثلاثة، وبيَّن له حقيقتها، عرَف موسى أن الخضر على حق في ما فعل، وأيقن أن المصلحة هي في ما قام به.

وأخبره الخضر بأن هذه الأفعال الثلاثة ليست في الحقيقة منه، وإنما هي من أمر الله.

وعقَّب الخضر على أفعاله بأنها رحمة من الله، ولذلك قال له: «رحمة من ربك».

وذكْرُ الرحمة الربانية هنا له دلالته وإيحاؤه، كما أنه مرتبط في أول القصة، عندما أخبر الله عن الخضر ﴿آتيناه رحمة من عندنا * وعلَّمناه من لدنا علماً﴾.

فأفعال الخضر الثلاثة مسبوقة برحمة الله ﴿رحمة من عندنا﴾.

ومختومة بالرحمة الربانية ﴿رحمة من ربك﴾.

---

(١) سورة النساء: آية ٩.

وهذا يعني أنها مظهر من مظاهر رحمة الله.

فخرْق السفينة رحمة من الله لأصحابها المساكين، لأنها بهذا الخرق سلمت من مصادرة الملك الظالم. ولو لم تُخرق لصودرت.

وقتْل الغلام رحمة من الله لوالديه، حيث سيعوضهما خيراً منه، ولو لم يُقتل لأرهقهما طغياناً وكفراً.

وبناء الجدار رحمة من الله، لأنه به يُحفظ كنز الغلاميْن اليتيميْن في المدينة، ولو لم يُبن الجدار، لانكشف الكنز وسلبه البخلاء في القرية.

والمهم أن هذه الرحمة الربانية في التصرفات الثلاثة، قد لا تكون مفهومة عند المراقبين، الذين ينظرون للفعل من الظاهر، بل قد يبدو التصرف الذي يحققها مستنكَراً لأول وهلة، كما أنكر موسى على الخضر تصرفاته. وهذا يعني أن الرحمة قد تكون في صورة عكس ما يراها الناس، وعكس ما يتوقعونها. وبهذه المناسبة نقرر أن كل أفعال الله بالمؤمن هي رحمة منه له. إن الله يرحم المؤمن عندما يمنحه النعمة، كما أنه يرحمه عندما يبتليه بالنقمة، فالمؤمن مرحوم في السراء، ومرحوم في الضراء، مرحوم في كل ما يصيبه من قدر الله، على شرط أن يعرف هذه الحقيقة، وأن يلحظ الرحمة الربانية الغامرة في كل ما يصيبه.

وفي موضوع الخضر عليه السلام كانت الرحمة الأولى ﴿آتيناه رحمة من عندنا﴾ من باب التعريف به. بينما كانت الرحمة الثانية ﴿رحمة من ربك﴾ من باب التعليل لأعماله، أَوْ قل: الرحمةُ الثانية عبارة عن تفسير عملي وتطبيق واقعي ومظهر خارجي للرحمة الأولى.

وما فعلتُه عن أمري:

اعترف الخضر لموسى بأن هـذه الأفعال الثـلاثة التي قـام بها ليست من عنده، ولا باختياره واجتهاده، إنما هي بأمر الله ﴿وما فعلته عن أمري﴾.

وقد أخذنا من هذه العبارة دلالةً على نبـوة الخضر عليـه السلام، فـذلك ليس عن أمره واجتهاده، بل بأمر الله ووحيه إليه.

ويمكننا أن نقرن بينه وبين قوله: ﴿وعلَّمناه من لدَّنا علماً﴾ فكانت هـذه التصرفات الثلاثة مظهر خارجي لعلم الله اللدنّي الذي علّمه له.

فمِنْ صُوَر علم الله له، أنه عرّفه بحقيقة ما يراه أمامه من أحداث، وتلك الحقيقة تخالف الصورة الظاهرية لها. وفيها تكمن المصلحة.

وكأن تصرفات الخضر تدعونا إلى أن نُعدِّل نظرتنا إلى مـا نراه أمـامنا من مظاهر وأشكـال، وأحداث وتصـرفات. فبعضُنـا تكون نـظرته قصيـرة قاصـرة، لا ترى إلا ما برز من تلك الأحداث، وتعتبرها هي كل شيء فيها.

إننـا مطالَبـون أن تكون نـظرتنا لتلك الأحـداث أعمقَ وأنفـذَ وأدق، وأن لا تخدعنا الصورة الظاهرية عن محاولة الوصول لكُنْهِ الشيء وحقيقته.

فكثيرة هي المظاهر الخادعة، وكثيراً ما يغشاها تزويـر وزخرف وتمـويه، وكثيـرون يُخدَعـون بها. لكن المؤمن عميقُ النـظرة، صادقُ التحليـل، صائبُ التقويم.

التأويل في القصة:

نقف وقفة أمام التأويل في قصة موسى مـع الخضر.

فعنـدما أعلن الخضـر عن مفارقتـه لموسى قـال له: «سـأنبئـك بتـأويـل ما لم تستطـع عليه صبراً».

أي سأخبرك عن حقيقة ما رأيتَه من التصرفات والأفعال.

ولما أخبره بذلك، وكشف له عن الحقيقة، قال له: «ذٰلِـكَ تَأْويـلُ ما لَمْ تَسْطِـعْ عَلَيْهِ صَبْراً».

وهذا يقودنا إلى معرفة معنى «التأويل» في الاصطلاح القرآني.

قال عنه الإمام الراغب الأصفهاني: «التأويـلُ من الأَوْل. أي الرجـوعُ إلى الأصل. ومنه المُـوْئِل للموضـع الذي يُرجَـع إليه.

وذلك هو ردُّ الشيء إلى الغاية المرادَة منه علماً كان أو فعلاً»[1].

وكلمة «تأويل» في كل استعمالاتها في السياق القرآني لا تخرج عن هذا المعنى. فقد وردت سبـع عشرة مـرة في القرآن. منهـا ثماني مـرات في سورة يوسف.

ولعل الحكمة من ورودها في سورة يـوسف بهذا العـدد، هي أنَّ صُلبَ السورة وموضـوعَها هـو التأويـل. حيث بدأت بـذكر رؤيـا يوسف عليـه السلام وهـو صغير. وأخبـره والده يعقـوب عليه السـلام بأن الله سـوف يعلِّمه تـأويـل الأحـاديث ﴿وَكَذٰلِـكَ يَجْتَبيكَ رَبُّـكَ ويُعَلِّمُكَ مِنْ تَـأْويلِ الأَحـاديث﴾[2] ولمـا تحققت رؤيـا يوسف عمليـاً، ولما تم تـأويلها واقعياً، ولما دخـل عليـه أبـوَاهُ وإخوته، قال يوسف لأبيه ـ عليـه السلام ـ ﴿هـٰذَا تَأْويـلُ رُؤْيايَ مِنْ قَبْـل * قَدْ جَعَلَها رَبّـي حَقاً﴾[3].

التـأويلُ هـو بيان مـرجـع الشيء وحقيقته، وتحـويل الخبـر إلى واقـع، والنـظرية إلى تـطبيق، والصورة إلى شيء مـادي، فـرؤيـا يـوسف بقيتْ رؤيـا منامية، لكنها لما تحققت في عالم الواقـع صارت تأويلاً، فتأويلُها هو تحقيقُها ووقوعُها.

---

(١) المفردات في غريب القرآن: ٣١.

(٢) سورة يوسف: آية ٦.

(٣) سورة يوسف: آية ١٠٠.

وكذلك ما عندنا في قصة موسى مع الخضر.

قال له: ﴿سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِعْ عَلَيْهِ صَبْراً﴾ أي سأنبئك بحقيقة ما رأيتَ من أحداث، أنبئكَ بحقيقة ذلك الذي أنكرتَ عليَّ فيه، حتى تعرف أن الحقَّ والصوابَ فيما فعلت.

ولما فسَّر له الأشياء، وأوّل له ما رأى، وبيّن له الحقيقة التي كانت مخفيّة عنه قال له: «ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً». أي هذه حقيقة ما رأيتَ من الأحداث.

فالتأويل إذن هو بيان الحقيقة والمرجع والمصير والنهاية، أو قل: هو وقوع الأمر كما أُخبر عنه، وحصول صورته الظاهرية الخارجية العملية، وتحويل الخبر إلى واقع، والنظريةِ إلى تطبيق.

«تستطع . . وتسطع»:

من اللطائف في هذه القصة، إثباتُ التاء في «تستطع» أولاً، ثم حذفُها من نفس الكلمة ثانياً «تسطع».

قال الخضر لموسى عليه السلام قبل أن يفسر له الأحداث التي رآها «سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً».

ولما أخبره عن ذلك، حذف التاء من الكلمة، فقال له: «ذلك تأويل ما لم تسطع عليه صبراً».

فلماذا حَذَف التاءَ من الكلمة عند ورودها مرة أخرى؟.

هذه التاء المحذوفة يمكن أن نسميها «تاء الخفة»، والالتفات إلى الحكمة من حذفها يكون من باب التفسير النفسي للآيات، أو تفسيرها وفق حقائق علم النفس التحليلي.

إثباتُها أولاً يوافق الحالة النفسية التي كـان يعيشها مـوسى عليه السـلام، حيث كانت الأفعالُ الثلاثة ثقيلةً على نفسه، لا يعرف حكمتهـا، ولهذا ذُكـرت التاء لتثقِّل الكلمة حتى تكون موافقة لثقل نفسية موسى.

فلما عرف حقيقة الحوادث زال الثقلُ النفسي عنه، وخف حمله النفسي لها، فحُذفت التاء تخفيفاً، ولتوافق خفةُ الكلمة الخفةَ النفسية التي فيها موسى بعد التفسير ـ والله أعلم ـ.

أردت . أردنا . أراد ربك:

ومن لـطائف التعبير القـرآني عن القصة، مـا قالـه الخضر لمـوسى عليه السـلام وهـو يعلِّل لـه الأفعـال التي قـام بهـا. حيث عبّـر عن الإرادة بثـلاث حالات.

عن خرْقه السفينة قال: «فأردتُ أن أعيبها».

وعن قتله الغلام ورغبته في مجيء غلام صالـح بدله، قـال: «فأردْنـا أن يبدلهما ربهما خيراً منه زكاة وأقرب رحماً».

وعن بنائه الجدار لحفظ الكنز إلى أن يكبر الغلامان اليتيمان قال: «فأراد ربك أن يبلغا أشدهما، ويستخرجا كنزهما».

فجاءت الإرادة في هذه الصور: أردت . أردنا . أراد ربك.

حيث أسند الفعل المـاضي أول مرة إلى الخضـر «أردت». وأسند نفس الفعل في المرة الثانية إلى الله وإلى الخضر «فأردنا».

أما في المرة الثالثة، فقد أسند الفعل نفسه إلى الله وحده «فأراد ربك».

وإذا حاولنا تسجيلَ ما يبدو لنا من حكمة حول ذلك. نقول:

١ ـ هنـاك تدرُّجٌ في المـرات الثلاث، حيث يتـرقى في كـل مـرة إلى

صورة أخرى. فنسب الإرادة إلى نفسه أولاً. ثم نسبها إليه وإلى الله ثانياً، وأخيراً نسبها إلى الله وحده.

٢ ـ الاختلاف في النسبة حسب الحالة التي يتحدث عنها. ويتفق مع الأدب مع الله، ومع إيحاءات الإيمان وتقريراته.

أسند الإرادة إلى نفسه أولاً، لأن خرق السفينة أمرٌ غير مقبول، وهو تخريب ـ حسب الظاهر ـ ولعله لهذا المعنى، لا يليق أن تسند هذه الإرادة إلى الله.

كذلك لاحِظْ ما هو المراد؟ «أردتُ أن أعيبَها» أن الإرادة هي عيب السفينة. وعيبُها تخريبُها بخرقها وقلعِ لوح منها، ولذلك لا يليق أن تُسند هذه الإرادة إلى الله. لا يليق أن يقال «أراد ربك أن يعيبها».

ومن هذا القبيل أدب إبراهيم عليه السلام في إخباره عن الله، عندما قال: ﴿الذّي خَلَقَني فَهُوَ يَهْدِين * وَالذّي هُوَ يُطْعِمُني وَيَسْقين * وَإِذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفين * وَالذّي يُميتُني ثُمَّ يُحْيين﴾[1] حيث أسند كلَّ الأفعال إلى الله، إلا المرض فإنه أسنده إلى نفسه، ونسبه إليه.

أما في المرة الثانية، فإن الأنسب هو إسنادُ الإرادة إلى الله وإلى الخضر.

أُسندت الإرادة إلى الخضر، باعتباره هو السبب في قتل الغلام، والذي قام بذلك القتل. لماذا قتله؟ لأنه يريد أن يُعوضِّهما الله من هو خير منه، إذن للخضر إرادة في ذلك العوض.

---

(١) سورة الشعراء: آيات ٧٨ ـ ٨١.

لكن هـل الخضر يقـدر على تحقيق هذه الإرادة؟ الجـواب بالنفي، لأن تحقيقَها إنما هو بيد الله، وحده ـ سبحانه ـ.

حتى الأب والأم، يـريدان إنجـابَ الـولـد، ولكنهمـا غيـرُ قـادريْن على تحقيق هذه الإرادة في عالم الواقـع. فما عليهما إلا الأخذ بالأسباب والالتقـاء والمعاشرة، أَما تقدير الولد وحياته فهذا عند الله وحده سبحانه.

ونـظراً لهذا المعنى، أسنـد الإرادة ـ في بُعْدهـا الثاني هنـا ـ إلى الله، على اعتبار أن الله وحده هـو القادر على تحقيق ذلـك، وجعْل المـولود يخـرج إلى عالم الوجود والحياة.

ولذلك أسند الإرادة إلى الخضر بذلك الاعتبار، كما أسندها إلى الله بهذا الاعتبار.

أما في المرة الثالثة فإن الإرادة أُسندت إلى الله وحـده، والسيـاق يحدد أنها لا تُنسب إلا إلى الله وحده، لأنـه لا يقدر على تحقيق الإرادة فيهـا إلا الله وحده.

هما غلامان صغيران يتيمان. لكن مَنْ يضمن لهما أن يعيشـا حتى يكبرا ويبلغا أشدَّهما، ليستخرجـا كنزهمـا؟ لا أحد يقـدر على ذلك ولا أن يضمنـه، لأن المستقبل بيد الله وحده، والعمر بيد الله وحده.

ولذلك قال «فأراد ربك أن يبلغا أشدهما، ويستخرجا كنزهما» وطالما أن الله يريد ذلك، فإنه سيقـع لا محالـة، لأن ما أراده الله فـلا بد أن يكـون. والله أعلم.

* * *



قِصَّة ذِي القَرْنَيْنِ

قِصَّة ذِي القَرْنَيْن

القصة في العرض القرآني :

قال تعالى : ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾

إِنَّا مَكَّنَّا لَهُۥ فِى ٱلْأَرْضِ وَءَاتَيْنَٰهُ مِن كُلِّ شَىْءٍ سَبَبًا ﴿٨٤﴾ فَأَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٥﴾

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَغْرِبَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَغْرُبُ فِى عَيْنٍ حَمِئَةٍ وَوَجَدَ عِندَهَا قَوْمًا ۗ

قُلْنَا يَٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِمَّآ أَن تُعَذِّبَ وَإِمَّآ أَن تَتَّخِذَ فِيهِمْ حُسْنًا ﴿٨٦﴾

قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُۥ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِۦ فَيُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا نُّكْرًا ﴿٨٧﴾ وَأَمَّا مَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُۥ جَزَآءً ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَسَنَقُولُ لَهُۥ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴿٨٨﴾

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٨٩﴾

حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ مَطْلِعَ ٱلشَّمْسِ وَجَدَهَا تَطْلُعُ عَلَىٰ قَوْمٍ لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا ﴿٩٠﴾

كَذَٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِمَا لَدَيْهِ خُبْرًا ﴿٩١﴾

ثُمَّ أَتْبَعَ سَبَبًا ﴿٩٢﴾

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ بَيْنَ ٱلسَّدَّيْنِ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لَّا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلًا ﴿٩٣﴾ قَالُوا۟ يَـٰذَا ٱلْقَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ مُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰٓ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾

قَالَ مَا مَكَّنِّى فِيهِ رَبِّى خَيْرٌ فَأَعِينُونِى بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ ءَاتُونِى زُبَرَ ٱلْحَدِيدِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ ٱلصَّدَفَيْنِ قَالَ ٱنفُخُوا۟ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَعَلَهُۥ نَارًا قَالَ ءَاتُونِىٓ أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا ﴿٩٦﴾ فَمَا ٱسْطَـٰعُوٓا۟ أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا ٱسْتَطَـٰعُوا۟ لَهُۥ نَقْبًا ﴿٩٧﴾

قَالَ هَـٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّى ۖ فَإِذَا جَآءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُۥ دَكَّآءَ ۖ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا ﴿٩٨﴾﴾[1].

تفسير كلمات الآيات :

سأتلو عليكم منه ذِكْراً	: سأخبركم عنه بآيات من القرآن.
مكّنّا له	: أعطيناه سلطاناً عظيماً.
آتيناه من كل شيء سبباً	: يسَّرْنا له أسباب الحكم والفتح.
فأَتْبَعَ سبباً	: استفاد من تلك الأسباب، وسلك طريقاً يوصله للمغرب.
تغرب في عين حمئة	: وذلك حسب ما يراها الناظر لها من بعيد.
عين حمئة	: عين ماءٍ مختلطة بالطين الأسود.
قلنا يا ذا القرنين	: إما إلهاماً من الله، أو عن طريق نبي معه في الجيش، والأول أرجح.
من ظلم	: الظلم هنا معناه الكفر.
عذاباً نُكْراً	: عذاباً فظيعاً منكراً حسب ما يبدو للناس.
ثم أَتْبَعَ سبباً	: سار الرحلة الثانية باتجاه الشرق.

(١) سورة الكهف: آيات ٨٣ ـ ٩٨.

لم نجعل لهم من دونها ستراً	: لا يسترها عنهم تل ولا جبل ولا شيء.
أحطنا بما لديه خُبراً	: أحطنا به علماً.
ثم أَتْبَعَ سبباً	: سار الرحلة الثالثة باتجاه الشمال.
بين السَّدَّين	: بين الجبلين العاليين.
لا يكادون يفقهون قولاً	: لتخلفهم يصعب التفاهم معهم.
يأجوج ومأجوج	: اسمان لقبيلتين تسكنان أواسط آسيا.
نجعل لك خرجاً	: نعطيك مالاً معيناً.
بيننا وبينهم سداً	: حاجزاً منيعاً فلا يَصِلون إلينا.
أعينوني بقوة	: ساعدوني بالأيدي العاملة.
بينكم وبينهم ردماً	: حاجزاً حصيناً منيعاً.
آتوني زُبَرَ الحديد	: قطع الحديد الكبيرة.
ساوى بين الصدفين	: وصل الحديد بين قمتي الجبلين العاليين.
قال انفخوا	: أَشعِلوا النار تحت الحديد.
أُفرغ عليه قطرا	: أضع فوق الحديد المصهور نحاساً مُذاباً ليختلط به.
ما اسطاعوا أن يظهروه	: عجزوا عن الصعود على ظهر السد.
ما استطاعوا له نقباً	: عجزوا عن نقضه وخرقه.
هذا رحمةٌ من ربي	: يحجز عنكم يأجوج ومأجوج بإذن ربي.
إذا جاء وعد ربي	: عندما يريد الله تدمير السد.
جعله دكّاء	: نقضه ودكّه وسوّاه بالأرض.

إشكالاتٌ في قصة ذي القرنين:

هناك إشكالاتٌ تُثار حول قصة ذي القرنين ورحلاته والسّد الذي بناه، ويأجوج ومأجوج.

وهـذه الإشكالات تـدخـل في تفصيـلات أحـداث القصـة، وتبحث في مبهماتها، ومنها:

١ ـــ مَنْ هو ذو القرنين، وما هي شخصيته، وما هي حياته.

٢ ـــ الـزمن الذي عـاش فيه، والـدولة التي حكمهـا، والحـروب التي خاضها، والبلاد التي فتحها.

٣ ـــ رحلتُه الأولى باتجاه الغرب، وتحديد المنـطقة التي وصـل إليها، وتحديد المكان ذي العين الحمئة، وكيف وجد الشمس تغرب فيها.

٤ ـــ رحلته الثانية نحو الشـرق، والبلاد التي قـطعها، و المكـان الذي وصل إليه، وكيف وجد الشمس تطلـع عليهم. وكيف لم يجعـل لهم من دونها ستراً.

٥ ـــ المنـطقة التي وصلهـا في رحلته الثـالثة نحـو الشمال. وتحـديـد منطقة بين السدين بالضبط، وتحديد جنس أهلها المتخلفين.

٦ ـــ أصـل يأجـوج ومأجـوج، وتـاريخهم، ومنـاطق سكنهم وإقـامتهم بالضبط.

٧ ـــ تفصيلات وكيفية بناء السد، وطوله وعرضه وارتفاعه.

٨ ـــ هل دُمِّر السد وخرج منه يأجوج ومأجـوج، أم بقي موجـوداً، وأنه لن يُنقض، ولن يخرجوا منه إلا قبيل قيام الساعة.

٩ ـــ معنى قول ذي القرنين «فإذا جاء وعد ربـي جعله دكاء».

١٠ ـــ هل خروج جنكيـز خان وهـولاكو هـو حلقة من حلقـات خروج يأجوج ومأجوج؟.

إلى غير ذلك من التساؤلات، التي تثيرها هذه الإشكالات.

تفصيلات قصة ذي القرنين لُغْزٌ محيِّر:

وقف المؤرخون والمفسرون جميعاً أمام قصة ذي القرنين، وكثيرٌ منهم حاولوا بيان ما فيها من مبهمَات، وتحديد تفصيلاتها التاريخية والواقعية. وأوردوا في ذلك أقوالاً كثيرة، غالبُها مأخوذ من الإسرائيليات وأخبارِ أهل الكتاب، وفيه خرافات وأساطير وأقاويل وأباطيل.

وقد نتج عن ذلك تشعُّبُ البحث في تفصيلات القصة، والاختلافُ الشديد بين المؤرخين والمفسرين فيها، وجدالُهم ونقاشهم حولها.

وبعض الكُتَّاب أفردوا كتباً، خصصوها للبحث في التفصيلات، وتحديد مكان وزمان وأحداث أبطال القصة ووقائعها.

من هذه الكتب:

١ ـ ذو القرنين وسَدُّ الصين لمحمد راغب الطبّاخ. أستاذ التاريخ والحديث في الكلية الشرعية بحلب، وقد طبع الكتاب ١٩٤٩م.

٢ ـ يسألونك عن ذي القرنين. لأبي الكلام آزاد. أولُ وزير معارف للهند بعد استقلالها. وكتب له مقدمة طويلة مملّة. الشيخ أحمد حسن الباقوري. وصدر عن دار الشعب بالقاهرة عام ١٩٧٢م.

٣ ـ مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: قصة ذي القرنين. للدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر. طباعة دار الشروق عام ١٩٨١م.

٤ ـ ذو القرنين: القائد الفاتح والحاكم الصالح. لمحمد خير رمضان يوسف. طباعة دار القلم، عام ١٤٠٦ ـ ١٩٨٦. وهو أحدث تلك الكتب، وأكثرها جمعاً وتحقيقاً، ولدى مطالعة كتاب محمد خير يوسف، نزداد يقيناً بأن قصة ذي القرنين فعلاً لغزٌ محيّر.

وقد ذَكَر في مقدمة الكتاب بأنه لما فكَّر في بحث قصة ذي القرنين، استشار عالماً ثقة، فقال له:

ما رأيك يا أستاذ أن أكتب بحثاً عن ذي القرنين؟.

قال: لا تفعل!.

فاستغرب وقال: لماذا؟.

فأجابه العالم: لأنك لن تصل إلى نتيجة»[1].

لكنه سار في بحثه، وجمع وحَلَّل وناقش، وألّف كتاباً كبيراً.

ولكنه لم يستطع تحديدَ شخصية ذي القرنين، الذي هو صُلْب البحث، وكأنه لم يصل في شأنه إلى نتيجة مقبولة، متفقة مع البحث العلمي المنهجي الموضوعي.

فعلاً: إن قصةَ ذي القرنين لغزٌ محير.

ذو القرنين في الأحاديث الصحيحة:

وبما أن قصته لغزٌ محير، فعلينا أن نبحث عنها في المصادر اليقينية، الصحيحة، التي لا يتطرق إليها شك أو تحريف، ولن يكون هذا إلا للمصدريْن الأساسييْن: الكتاب والسنة.

أمَّا في الكتاب الكريم فلا يوجد ذِكْر لذي القرنين إلا في سورة الكهف، وهي الآيات التي نتحدث عنها، وليس فيها تفصيلات عنه، ولا إجابات على الأسئلة التي توجَّه إلى قصته.

وأما في الأحاديث، فلا توجَد أحاديث صحيحة عن رسول الله ﷺ تتحدث عن ذي القرنين، ولا عن رحلاته الثلاث، ولا عن تعيين اسمه، أو تحديد زمنه.

---

(١) ذو القرنين لمحمد خير يوسف: ٩.

وبما أن هذيْن المصدريْن لم يتحدثا بالتفصيل عنه، فكيف نعرف نحن تفصيلات حياته، ومن هو ذلك الشخص الذي يستطيع أن يقول شيئاً عن أحداث ماضية وأشخاص ماضين، أصبحوا من غيب الماضي وأصبح الحديث عنهم من باب القول في الغيب؟ أيُّ شخص يستطيع أن يقول عن تلك الغيوب التي سكت عنها القرآن الكريم والحديث الصحيح والصحابة الكرام؟ لذلك فنحن مطالَبون، في نظرنا في قصة ذي القرنين، أن نَبقى مع إيحاء الآيات القرآنية، وأن نقف عند دلالة الأحاديث النبوية الصحيحة وأن نسكت عما سكتا عنه.

قلنا إن الأحاديث الصحيحة لم تتحدث عنه.

لكن الإمام البخاري تحدث عن الآيات التي أشارت إليه في كتاب الأنبياء وقبل حديثه عن إبراهيم عليه السلام.

ورتَّبَ أبواب كتابه «أحاديث الأنبياء» من جامعه الصحيح كما يلي:

١ ــ باب خلق آدم وذريته.

٢ ــ باب الأرواح جنود مجندة.

٣ ــ باب قول الله ﴿ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾.

٤ ــ باب ﴿وإن إلياس لمن الصالحين﴾.

٥ ــ باب ذكر إدريس عليه السلام.

٦ ــ باب قول الله: ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾.

٧ ــ باب قصة يأجوج ومأجوج.

٨ ــ باب قول الله ﴿واتخذ الله إبراهيم خليلاً﴾[1].

إلى آخر أبواب الكتاب.

---

(١) انظر صحيح البخاري، طبعة محمد علي صبيح ٢: ١٥٩ ــ ١٦٩.

مناقشة البخاري وابن حجر :

وقد فهم الإمامُ ابن حجر من ترتيب البخاري المذكور أن البخاري يرى أن ذا القرنين كان قبل إبراهيم عليه السلام، أو معاصراً له.

قال ابن حجر في الفتح : «وفي إيراد المصنف ترجمة ذي القرنين قبل إبراهيم إشارةٌ إلى توهين قَوْل من زَعَمَ أنه الإسكندر اليوناني، لأن الإسكندر كان قريباً من عيسى عليه السلام، وبيْن زمن إبراهيم وعيسى أكثر من ألفي سنة»[1].

صحيح أن الإسكندر ليس هو ذو القرنين، لكن لا يوجد دليل صحيح على أن ذا القرنين كان قبل إبراهيم عليه السلام أو معاصراً له.

وترتيبُ الإمام البخاري المذكور، وذِكْرُ ذي القرنين قبل إبراهيم، ليس توقيفياً، بل هو اجتهادي حسب ما قاده له اجتهاده، وليس عليه حديث صحيح ولذلك نحن مضطرون إلى عدم القول به، لأنه من باب القول في غيب الماضين بدون دليل، نرفض اجتهادَ البخاري في ترتيبه مع إجلالِنا له واعترافِنا بفضله وعلمه ــ رضي الله عنه ــ.

وقد تابع الإمامُ ابن حجر الإمامَ البخاري في اجتهاده، وذهب إلى أن ذا القرنين كان مع إبراهيم. وذلك حيث يقول: «والحق أن الذي قص الله نبأه في القرآن هو المتقدم».

ثم ذَكَرَ أدلة على ترجيحه هذا. منها:

قولُ عُبَيْد بن عُمَيْر التابعي: «إن ذا القرنين حج ماشياً، فسمع به إبراهيم فتلقاه».

---

(١) فتح الباري ٦ : ٣٨٢.

قـولُ ابن عبـاس: «إن ذا القـرنين دخـل المسجـد الحـرام، فَسلَّم على إبراهيم، وصافحه».

قولُ عثمان بن ساج: «إن ذا القرنين سأل إبراهيم عليه السلام أن يـدعو له. فقال: كيف وقد أفسدتم بئري؟ قال: لم يكن ذلك عن أمري».

قولُ ابن هشام: «إن إبـراهيم تحاكم إلى ذي القـرنين في شيء، فحكم له»(١).

وعندما ننظر في أدلة الإمام ابن حجر، لا نرى فيها واحداً يلزمنا أن نأخذ به، بل إننا مضطرون إلى رفضها كلها، وعدم القول بها، لأنه لا يـوجد واحـد منها، مرفوع إلى رسول الله ﷺ، ونحن في قصص السابقين لا نأخذ إلا حديثاً مرفوعاً صحيحاً فقط!

سدُّ ذي القرنين في الأحاديث الصحيحة:

بنى ذو القرنين السَّدّ في فتوحاته في جهة الشمال، كما صـرحتْ بذلـك الآيات، وعُرِف هذا السد، بسد ذي القرنين، لأنـه هو الـذي بناه، كمـا عُرِف بسـد يأجـوج ومأجـوج، لأنه مَنَـع هجمـاتهم على سكان تلك المنـطقة، كمـا عُرف بردم يأجوج ومأجوج.

ووردتْ أخبـار كثيـرة عن ســد ذي القـرنين، معــظمهـا مــأخــوذ عن الإسرائيليات والأساطير.

وسنورد هنا أحاديثَ صحيحة عن ذلك السد:

من أهمِّ هذه الأحاديث وأشهرها، ذلك الحديث المتفق عليـه الذي رواه البخاري ومسلم عن الزهري عن عروة بن الزبير عن زينب بنت أم سلمة، عن

(١) المرجع السابق ٦:٣٨٢.

حبيبة بنت أم حبيبة، عن أم حبيبة، عن زينب بنت جحش رضي الله عنها أن النبي ﷺ دخل عليها فزِعاً يقول: لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شر قد اقترب، فُتِح اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه، وحلَّق بأُصبعه، الإبهام والتي تليها. فقالت زينب بنت جحش: يا رسول الله أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم، إذا كثر الخبث»(١).

ومنها ما رواه البخاري ومسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: «فُتِحَ اليوم من ردم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه، وعَقَدَ بيده تسعين»(٢).

وروى البخاري في مقدمة باب «قصة يأجوج ومأجوج» من كتاب الأنبياء تعليقاً: قال رجل للنبي ﷺ: «رَأَيْتُ السَّدَّ مثلَ البُرْدِ المُحَبَّرْ، فقال له النبي ﷺ: قَدْ رَأَيْتَه»(٣).

من دلالات هذه الأحاديث:

١ ـ في الحديث الأول الذي روتْه زينب بنت جحش، دلالةٌ لطيفة من لطائف الإسناد، قال عنها النووي في شرحه على مسلم «هذا الإسنادُ اجتمع فيه أربع صحابيات، زوجتان لرسول الله ﷺ، وربيبتان له، بعضهن عن بعض، ولا يُعْلَم حديث اجتمع فيه أربعُ صحابيات بعضهن عن بعض، غيرَه»(٤).

---

(١) رواه البخاري (٦٠) كتاب الأنبياء (٧) باب يأجوج ومأجوج حديث رقم ٣٣٤٦، ومسلم (٥٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة (١) باب الفتن وفتح ردم يأجوج ومأجوج، حديث ٢٨٨٠.

(٢) البخاري حديث ٣٣٤٧، ومسلم حديث ٢٨٨١.

(٣) البخاري مقدمة باب (٧) قصة يأجوج ومأجوج.

(٤) مسلم بشرح النووي ١٧ : ٢.

زوجتا رسول الله عليه السلام هما: زينب بنت جحش، وأم حبيبة بنت أبي سفيان، وربيبتاه ـ أي ابنتا زوجتَيْه ـ هما: حبيبة بنت أم حبيبة، وزينب بنت أم سلمة.

ورواه عنهن تابعيان. هما: عروة بن الزبير، ومحمد بن شهاب الزهري.

٢ ـ خوفُ رسول الله ﷺ من الشر القادم، حيث دخل على زينب فزعاً، وفي رواية عند الشيخين أنه استيقظ من نومه فزعاً، وفي رواية ثالثة عندهما كذلك أنه خرج يوماً وهو فزع محمر وجهه.

ويمكن الجمع بين الروايات الثلاث، أنه نام عليه السلام عند زوجه زينب بنت جحش رضي الله عنه، فرأى في المنام رؤيا أفزعَتْه ـ ورؤيا الأنبياء حق ـ فاستيقظ من نومه فزعاً، وخرج من الحجرة وهو محمرٌّ وجهُه، ودخل على زينب وهو فزع، وقال لها ما قال.

٣ ـ وسبب فَزَعِه أنه رأى في المنام ـ أو أراه الله في المنام ـ فتْحَ سدِّ يأجوج ومأجوج، فرؤيتُه للسد رؤيا منامية لا رؤيا في اليقظة.

٤ ـ رؤياه فتح السد دليل على أن يأجوج ومأجوج قد بدأوا نقض السد، وقد نجحوا في البدء بنقضه، وهذا يوحي بأن النقض والفتح للسد واختراقه سيكون قبل قيام الساعة، ولا يُشترط أن يبقى السد قائماً حتى خروج يأجوج ومأجوج قبيل قيام الساعة.

٥ ـ إن الظاهر من فتح ردْمِ يأجوج ومأجوج هو فتح السد الذي بني هناك، والمراد بالشر الذي قد اقترب هو خروجُ قوم يأجوج ومأجوج، واجتياحُهم بلاد المسلمين.

وقد ذهب بعضهم إلى أن المراد هو وقوعُ الفتن، وفتحُ السد في

الحديث كنايةٌ عن فتح باب الفتن على المسلمين، وفي هذا يقول ابن حجر في الفتح: «خَصَّ العربَ بذلك لأنهم كانوا حينئذ معظم من أسلم، والمراد بالشر ما وقع بعده من مقتل عثمان، ثم توالت الفتن، حتى صارت العرب بين الأمم، كالقَصْعَة بين الأَكَلَة»[1].

٦ ـ يوحي الحديث بأن العقاب في الدنيا جماعي، وأن من سنة الله أن يهلك الأمة عند انتشار الخبث والمعاصي والمنكرات فيها، ولو وُجِد فيها صالحون: «أنهلك وفينا الصالحون؟ قال: نعم. إذا كثر الخبث».

خروج يأجوج ومأجوج في الأحاديث الصحيحة:

الأحاديثُ الصحيحة لا تشير بشيء إلى أصل يأجوج ومأجوج، أو تاريخهم، أو أماكنهم وبلدانهم، أو أشكالهم، أو تفاصيلِ حياتهم. كما أنها لا تقرر خروجهم ـ قبل الخروج الأخير ـ ولا تنفيه. فهي تسكت عن كل ذلك.

لكنَّ الأحاديث الصحيحة تشير إلى خروجهم الأخير قبيل قيام الساعة، وتجعل هذا الخروج من علامات الساعة الكبرى.

ويكون خروجُهم بعد نزولِ عيسى بن مريم عليه السلام، وقتلِه للدجال في باب اللّدّ.

ونسوق فيما يلي الحديثَ الرائعَ الممتعَ المطولَ، الذي تحدث عن الدجال وعن عيسى بن مريم عليه السلام، وعن يأجوج ومأجوج:

روى مسلم في صحيحه عن النواس بن سمعان رضي الله عنه قال:

«ذكر رسولُ الله ﷺ الدجال ذات غداة، فخفَّض فيه ورفَّع، حتى ظنناه في طائفة النخل، فلما رُحنا إليه عَرَف ذلك فينا. فقال: ما شأنكم؟.

---

(١) فتح الباري ١٣: ١٠٧.

قلنا: يا رسول الله: ذكرتَ الدّجّال غداة، فخفَّضتَ فيه ورفَّعتَ. حتى ظنناّه في طائفة النخل.

فقال: غيرُ الدجال أخوفني عليكم. إنْ يخرجْ وأنا فيكم، فأنا حجيجه دونكم، وإنْ يخرجْ ولست فيكم، فامرؤٌ حجيجُ نفسه، والله خليفتي على كل مسلم.

إنه شابٌ قَطَط. عينُه طافئة، كأني أُشَبِّهُه بعَبْدِ العُزى بن قَطَن. فَمَنْ أدركه منكم فليقرأ عليه فواتح سورة الكهف.

إنه خارج خُلَّةً بين الشام والعراق. فعاث يميناً وعاث شمالاً. يا عِبادَ الله فاثْبتوا.

قلنا: يا رسول الله. وما لُبْثُه في الأرض؟.

قال: أربعون يوماً. يومٌ كسنة، ويوم كشهر، ويوم كجمعة، وسائر أيامه كأيامكم.

قلنا: يا رسول الله، فذلك اليوم الذي كسنة، أتكفينا فيه صلاةُ يوم؟.

قال: لا. أقْدُروا له قَدْره.

قلنا: يا رسول الله. وما إسراعُه في الأرض؟.

قال: كالغيث استدبرتْه الريح. فيأتي على القوم فيدعوهم، فيؤمنون به ويستجيبون له. فيأمر السماء فتمطر، والأرضَ فتنبت. فتروحُ عليهم سارحتُهم، أطولَ ما كانت درّاً، وأسبغَه ضروعاً، وأمدَّه خواصر. ثم يأتي القوم، فيدعوهم، فيردون عليه قوله، فينصرف عنهم، فيصبحون مُمْحَلين، ليس بأيديهم شيء من أموالهم. ويمرّ بالخِرْبة فيقول لها: أَخْرجي كنوزك، فتتبعه كنوزُها كيعاسيب النَّحْل.

ثم يدعو رجلاً ممتلئاً شباباً. فيضربُه بالسيف، فيقطعه جَزْلتيْن، رمية الغرض، ثم يدعوه، فيقبل، ويتهلل وجهه يضحك.

فبينما هو كذلك، إذ بعث الله المسيح ابن مريم، فينزل عند المنارة البيضاء شرقيّ دمشق، بين مَهْرودَتَيْن، واضعاً كفيّه على أجنحة مَلَكين، إذا طأطأ رأسه قطر، وإذا رفعه تحدّر منها جِمانٌ كاللؤلؤ فلا يحِلُّ لكافر يجد رِيح نَفَسه إلا مات، ونَفَسُه ينتهي حيث ينتهي طَرْفه. فيطلبه، حتى يدركه بباب لُدّ، فيقتله.

ثم يأتي عيسى ابنَ مريم قومٌ قد عصمهم الله منه، فيمسح عن وجوههم، ويحدثهم بدرجاتهم في الجنة.

فبينما هو كذلك إذ أوحى الله إلى عيسى: إني قد أخرجت عباداً لي، لا يَدانِ لأحد بقتالهم. فَحَرِّزْ عبادي إلى الطور.

ويبعث الله يأجوج ومأجوج، وهم من كل حَدَب ينسلون. فيمرُّ أوائلهم على بحيرة طبرية، فيشربون ما فيها. ويمر آخرهم فيقولون: لقد كان بهذه مرة ماء.

ويُحْصر نبيُّ الله عيسى وأصحابه، حتى يكونَ رأسُ الثور لأحدهم خيراً من مائة دينار لأحدكم اليوم. فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابه، فيرسل الله عليهم النَّغَفَ في رقابهم، فيصبحون فَرْسى كموت نفْس واحدة.

ثم يهبط نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى الأرض. فلا يجدون في الأرض موضع شبر إلا ملأه زَهَمُهُم ونَتَنُهم، فيرغب نبيُّ الله عيسى وأصحابُه إلى الله، فيرسل الله طيراً كأعناق البُخْت، فتحملهم، فتطرحهم حيث شاء الله، ثم يرسل الله مطراً لا يُكِنُّ منه بَيْتُ مدر ولا وبر، فيغسل الأرضَ حتى يتركها كالزُّلْفَة.

ثم يُقال للأرض: أنبِتي ثمرتك، ورُدّي بركتك.

فيومئذ تأكل العصابة من الرّمانة، ويستظلون بقَحْفِها، ويبارَك في الرِّسْل، حتى إن اللَّقْحَة من الإبل لتكفي الفِئام من الناس، واللَّقحة من البقر لتكفي القبيلة من الناس، واللقحة من الغنم لتكفي الفَخِذَ من الناس.

فبينما هم كذلك، إذ بعث الله ريحاً طيبة، فتأخذهم تحت آباطهم، فتقبض روح كل مؤمن وكل مسلم. ويبقى شرار الناس، يتهارَجون فيها تهارُجَ الحُمُر، فعليهم تقوم الساعة»[1].

وزاد مسلم في رواية أخرى لهذا الحديث «ثم يسيرون [يعني يأجوج ومأجوج] حتى ينتهوا إلى جبل «الخَمَر» وهو جبل بيت المقدس. فيقولون: لقد قتلْنا مَنْ في الأرض، هلم فلْنقْتل مَنْ في السماء، فيرمون بنشابهم إلى السماء، فيرد الله عليهم نشابهم مخضوبة دماً».

إن قوم يأجوج ومأجوج هم أكثر الأمم، وهم الذين يُكثِّرون الكفار في جهنم يوم القيامة.

روى البخاري عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال: يقول الله تعالى: يا آدم، فيقول: لبَّيْك وسعديْك والخير في يديْك. فيقول: أَخْرِجْ بعث النار. قال: وما بعْث النار؟ قال: من كل ألفٍ، تسعمائةُ وتسعةُ وتسعون، فعندئذٍ يشيب الصغير، وتضع كل ذات حمل حملها، وترى الناس سكارى، وما هم بسكارى، ولكن عذاب الله شديد. قالوا: يا رسول الله: وأيُّنا ذلك الواحد؟.

قال: أبشروا، فإن منكم رجلًا، ومن يأجوج ومأجوج ألف.

---

(١) مسلم (٥٢) كتاب الفتن وأشراط الساعة (٢٠) باب ذكر الدجال. حديث ٢١٣٧.

ثم قال: والذّي نفسي بيده إني أرجو أن تكونوا رُبْعَ أهل الجنة، فكبَّرْنا. فقال: أرجو أن تكونوا ثُلُث أهل الجنة. فكبَّرْنا. فقال: أرجو أن تكونوا نصْف أهل الجنة. فكبَّرْنا.

فقال: ما أنتم في الناس إلا كالشعرة السوداء في جلد ثوْر أبيض، أو كشعرة بيضاء في جلد ثور أسود»[1].

مَنْ هو ذو القرنين؟:

وقف المفسرون والمؤرخون طويلاً أمام شخصية ذي القرنين، وحاولوا تحديدَها وبيانَ الزمانِ والمكان الذي وُجدت فيه، والأعمال التي قامت بها، واختلفوا في ذلك اختلافاً بيِّناً، وتضاربت أقوالهم وآراؤهم، وتعارضت أدلتهم واعتمدوا في ذلك ـ غالباً ـ على الإسرائيليات والخرافات والأساطير، والروايات غير الموثوقة، والأخبار غير الثابتة.

وتَرَكَ الإخباريون لخيالهم أن يجول في أجواء التخيُّل، ورسموا لذي القرنين أسطورة خيالية عجيبة، افترضوا له فيها أعمالاً ومعارك وفتوحات متخيَّلَة.

هل يمكن الجزم بتحديد شخصيته؟

إذا طرحنا هذا التساؤل: هل يمكن الجزم بتحديد شخصية ذي القرنين؟ فإن الجواب النفي.

إنه لا يمكن لأحد يحترم علمهَ ورأيَه أن يجزم بتحديد شخصية ذي القرنين، ولا تحديدِ رحلاته الثلاث التي أشار لها القرآن، ولا تحديدِ مكان السد الذي بناه على الكرة الأرضية.

(١) البخاري (٦٠) كتاب الأنبياء (٧) باب يأجوج ومأجوج، حديث رقم ٣٣٤٨.

لا يمكن ذلك لسكوت المصادر اليقينية الصحيحة ـ وهي الكتاب والسنة ـ عن تلك التفصيلات.

وبما أنها سكتت عنها، فلا دلالة يقينية عليها.

ولذلك يكون كلام العلماء عنها من باب الترجيح وليس من باب الجزم والتأكيد. فالواحد منهم يقرأ ما قيل عن ذي القرنين، ويتأمل الأدلة التي قدمها المتكلم لرأيه، وينظر فيها ويتفحصها، ويقارنها مع الأدلة التي قدمها الآخرون، وقد يخرج من هذا بنتيجة يرجِّح فيها قولاً من الأقوال، ويقبل أدلة من تلك الأدلة.

لكن يبقى ترجيحُه من باب الظن والاحتمال والترجيح، وليس من باب الجزم والتأكيد واليقين.

رأي سيد قطب في ذلك:

من أنضج الآراء وأجودِها في تحديد شخصية ذي القرنين وأعماله، رأيُ الأستاذ الإمام سيد قطب.

قال: «إن النص لا يذكر شيئاً عن شخصية ذي القرنين. وهذه هي السمة المطَّردة في قصص القرآن. فالتسجيل التاريخي ليس هو المقصود. إنما المقصود هو العبرة المستفادة من القصة، والعبرةُ تتحقق بدون حاجة إلى تحديد الزمان والمكان في أغلب الأحيان.

والتاريخ المدوَّن يعرف ملكاً اسمه «الإسكندر ذو القرنين». ومن المقطوع به أنه ليس ذا القرنين المذكورَ في القرآن. فالإسكندر الإغريقي كان وثنياً. وهذا الذي يتحدث عنه القرآن مؤمن بالله موحّد، معتقدٌ بالبعث والآخرة.

ويقول أبو الريحان البيروني المنجِّم في كتاب «الآثار الباقيـة عن القرون الخالية» إن ذا القرنين المذكـور في القرآن، كـان من حِمْيَر، مستـدِلاً باسمـه. فملوك حِمْيَر كانوا يلقبون بذي. كذي نواس وذي يزن. وكان اسمه أبو بكر بن أَفريقش، وأنه رحل بجيوشه إلى ساحل البحر الأبيض المتـوسط، فمر بتـونس ومراكش وغيرهما، وبنى مدينـة أفريقيـة، فسُميت القارة كلُّهـا باسمـه. وسمي ذا القرنين لأنه بلـغ قرني الشمس.

وقد يكون هذا القول صحيحاً. ولكننا لا نملك وسائل تمحيصه.

ذلـك أنه لا يمكن البحث في التـاريـخ المدوَّن عن ذي القـرنين، الذي يقص القرآن طرفاً من سيرته، شأنُه شأن كثيـر من القصص الوارد في القـرآن، كقصص قوم نوح وقوم هود وقوم صالـح وغيرهم.

فالتاريـخُ مولود حـديث العهد جـداً، بالقيـاس إلى عمر البشـرية. وقـد جـرتْ قبل هـذا التاريـخ المـدون أحـداثٌ كثيـرة لا يعـرف عنهـا شيئـاً فليس هو الذي يُسْتفتى فيها.

ولو قد سَلمت التوراة من التحريف والزيادات لكانت مرجعاً يُعتمد عليـه في شيء من تلك الأحداث. ولكنَّ التوراة أحيطت بالأساطير التي لا شـك في كونها أساطير. وشُحِنت كـذلك بـالروايـات التي لا شك في أنهـا مَزيـدَة على الأصل الموحى بـه من الله. فلم تعد التـوراة مصدراً مستيقنـاً لما ورد فيهـا من القصص التاريخي.

وإذن فلم يَبْق إلا القـرآن. الـذي حُفظ من التحـريف والتبـديـل. هو المصدرُ الوحيد لما ورد فيه من القصص التاريخي.

ومن البديهي أنه لا يجوز محاكمـة القرآن الكـريم إلى التاريـخ، لسببين واضحين:

الأوّل: أن التـاريـخ مولـود حديث العهـد، فاتتْـه أحداث لا تُحصى في تاريـخ البشرية، لم يَعلم عنها شيئاً. والقرآن يروي بعض هذه الأحداث، التي ليس لدى التاريـخ علم عنها.

الثـاني: أن التاريخ ــ وإن وعى بعض هـذه الأحداث ــ هـو عمـل من أعمـال البشر القـاصرة، يصيبُـه ما يصيب جميـع أعمـال البشـر، من القصـور والخطأ والتحريف.

ونحن نشهد في زماننا هذا ــ الذي تيسرتْ فيه أسباب الاتصال ووسائـل الفحص ــ أن الخبر الواحد أو الحادث الواحد، يُرىٰ على أوجه شتى، ويُنـظر إليـه من زوايا مختلفـة، ويُفسَّر تفسيـرات متناقضـة. ومن هـذا الـركـام يُصنـع التاريـخ، مهما قيل بعد ذلك في التمحيص والتدقيق.

فمجـردُ الكلام عن استفتـاء التاريـخ فيمـا جاء بـه القرآن من القصص، كـلام تنكره القـواعد العلميـة المقررة، التي ارتضـاها البشـر، قبـل أن تنكـرَه العقيدة، التي تقرر أن القـرآن هو القـول الفصل. وهـو كلام لا يقـول به مؤمن بالقرآن، ولا مؤمن بوسائل البحث العلمي على السواء. إنما هو هراء»[1].

أشهر الأقوال في تحديد ذي القرنين:

أشهر الأقوال في تحديد شخصية ذي القرنين أربعة:

مناقشة كونه معاصراً لإبراهيم:

الأول: لا يحدد اسمه، ولكن يحدد الزمن الذي عاش به، وهو أنـه كان معاصِراً لإبراهيم عليه الصـلاة والسلام، وأنـه التقى معه في فلسـطين، والتقى معه عند البيت الحرام في مكة.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٢٨٩ ــ ٢٢٩٠.

وقد مال إلى ترجيح هذا القول الأستاذ محمد خير رمضان يوسف، في كتابه «ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح»، وذلك حيث يقول: «إنه رجل آخر. عاش في عصور غابرة. قبل تُبَّع. وقبل الإسكندر، وقبل كورش. فقد كان في زمن نبي الله وخليله إبراهيم عليه الصلاة والسلام، كما ذكره وصحَّحه ثِقات المؤرخين»[1].

وإذا ما ناقشْنا محمد خير يوسف في ترجيحه هذا، فإننا لا نجد حديثاً صحيحاً يحدّد أنه كان في زمن إبراهيم عليه السلام.

أما «ثِقات المؤرخين» الذين اعتمد رأيَهم وتصحيحَهم بأنه عاش زمن إبراهيم عليه السلام، فلا نجدهم من ثِقات المؤرخين حقيقة، وحتى لو كانوا هكذا ـ في مقياسه ـ فإنهم لم يقدموا دليلاً يقينياً مستمداً من حديث صحيح على ما قالوا به.

ثقات المؤرخين الذين اعتمد على كلامهم هم: أبو حيان المفسر صاحب البحر المحيط، والقرطبي المفسر صاحب الجامع لأحكام القرآن، والشيخ الإيجي صاحب تفسير جامع البيان، والزمخشري صاحب تفسير الكشاف، والنسفي صاحب تفسير مدارك التنزيل، وسليمان الجمل وأحمد الصاوي في حاشيتيهما على تفسير الجلالين، والآلوسي صاحب روح المعاني.

ومعلوم أن هؤلاء مفسرون لا مؤرخون، وكلامُهم عن التاريخ يحتاج إلى تحقيق وتخريج وترجيح وتصويب.

أما المؤرخون الثقات الذين اعتمد عليهم فهم الأزرقي، وابن إياس صاحب تاريخ «بدائع الزهور في وقائع الدهور» وعلي دُدَك صاحب «محاضرة الأوائل».

---

(١) ذو القرنين ٢٤٨.

فهل هؤلاء الثلاثة هم ثقات المؤرخين؟.

كم كنت أتمنى على الأستاذ محمد خير رمضان يوسف، أن يأتي على رأيه بأدلة علميّة يقينيّة، وهذه لا تكون إلا فيما أُخذ من القرآن والحديث الصحيح أما اعتماده على كلام مؤرخين ومفسرين، لا دليل عليه من المصادر المعتمدة، فهذا لا يُقبل في البحث العلمي المنهجي اليقيني.

ولذلك نحن مضطرون أن نخالف الأستاذ محمد خير في ترجيحه عن ذي القرنين، من أنه كان يعيش في زمن إبراهيم عليه السلام، كما أننا مضطرون إلى ترْك كل الأقوال المذكورة في كتب التاريخ والتفسير، عن التقاء ذي القرنين بإبراهيم عليه السلام في فلسطين أو الحجاز، لكونها غير مذكورة في حديث واحد صحيح، يمكن للإنسان أن يعتمده ويطمئن به ــ والله أعلم ــ.

مناقشة كونه الإسكندر المقدوني:

الثاني: إنه الإسكندر المقدوني. وهو الذي ولد في مقدونيا عام ٣٥٦ ق. م وكان والده «فيليب» مِلكاً لمقدونية، وقد أَسْلَم ابنه الإسكندر إلى الفيلسوف اليوناني الشهير «أرسطو» فرباه على المنطق الفلسفي اليوناني، ومات أبوه وعمره عشرون سنة، فأخذ الملك من بعده عام ٣٣٦ق. م. وبعد سنتين توجّه لحرب الفرس، وانتصر على مَلِك الفرس «دارا» سنة ٣٣٣ق. م وأتم فتح بلاد الشام والعراق. ثم توجه لفتح بلاد الهند.

ففي حوالي عشر سنوات فتح معظم البلاد المعروفة في ذلك الزمان، ثم عاد إلى اليونان. وفي الطريق مرَّ على مدينة «بابل» في العراق، ليأخذ قسطاً من الراحة فمرض بها مرضاً شديداً، إذ أصابته الحمى لمدة أحد عشر يوماً، لقي حتفه فيها، فتوفي عام ٣٢٣ق. م. وعمره أقلُّ من ثلاث وثلاثين سنة[1].

---

(١) ذو القرنين لمحمد خير: ٩١ ــ ٩٥ باختصار.

ولُقِّب بذي القرنين لأنه فتح دولة الفرس، فكأنه جمع بين القرن اليوناني والقرن الفارسي. وهما أقوى دولتين في ذلك الزمان.

وممن يرى أنه هو ذو القرنين المذكور في القرآن، جمهورٌ من المفسرين والمؤرخين، منهم:

المسعوديُّ والمقريزي والثعلبي والإدريسي والرازي وأبو حيان والنسفي وأبو السعود والآلوسي والقاسمي ومحمد فريد وجدي[1].

وهذا رأي باطل رغم جلالة وعلم قائليه، لأنه من المتفق عليه أن الإسكندر المقدوني كان كافراً مشركاً بالله، من عبدةِ آلهة اليونان، كما أنه كان مسرفاً على نفسه في الفواحش والملذات والخمور، بل إنه توفي بعد ليلة خمر وعربدة. أما ذو القرنين كما يُعَرِّفُنا عليه القرآن فهو مؤمن عادل صالح[2].

مناقشة كونه من حمير:

الثالث: إن ذا القرنين ملِك عربيّ من ملوك حمير، اسمه الصَّعْب ذي مَراثِد بن الحارث بن الرائش، وقيل هو الملك الحميري أبو بكر ــ أو أبوكرب ــ عمير بن أفريقش الحميري. وأنه ملك في الفترة ما بين ٣٠٠ ــ ٣٢٠م.

وممن قال بهذا القول وهْب بن منبه من التابعين وكعب الأحبار، ومن المعاصرين محمد راغب الطباخ الذي ألف كتاباً بهذا الخصوص[3].

وهذا القول كذلك لا دليل عليه إلا مجرد العاطفة، والتعصب للعرب.

---

(١) المرجع السابق: ٨٤ ــ ٩٠.

(٢) المرجع السابق: ١٤٨ ــ ١٦٢.

(٣) المرجع السابق: ١٦٥ ــ ٢٠٧.

الراجح أنه كورش الفارسي:

الرابع: أنه الملك الفارسي «كورُشْ» الذي وحَّد مملكتَيْ «لِيدْيا» و «مِيدْيا» وجمع بينهما، ولذلك لُقِّب بذي القرنين، ولقد حكم ثلاثين سنة، ما بين ٥٥٩ ـ ٥٢٩ق. م.

وممن رأى هذا الرأي أبو الكلام آزاد في كتابه «ويسألونك عن ذي القرنين».

والدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر في كتابه «قصة ذي القرنين».

وقدّم هذان العالمان أدلة كثيرة ترجح أنه هو ذو القرنين.

مع أبي الكلام آزاد في أدلته على أنه كورش الفارسي:

مولانا أبو الكلام آزاد من زعماء المسلمين في شبه القارة الهندية، كان يدعو المسلمين في الهند إلى الثورة على بريطانيا المستعمِرة، ويُلقي خطباً حماسية، وقد حاكمتْه بريطانيا عام ١٩٢٢ على نشاطه في الثورة، ودعْوته إلى العصيان والإضراب المدني، وعندما قُدم للمحكمة ألقى بياناً أمامَ الحضور والمحامين والشهود والقضاة، كان القمة في الفصاحة والحجة والمنطق[١].

ولما قامتْ في الهند دولةٌ مستقلة، كان أول وزير للمعارف فيها، وقد توفي عام ١٩٥٥.

وكان أبو الكلام آزاد مفكّراً إسلامياً، ومفسِّراً للقرآن، وفي طليعة الكتّاب الإسلاميين في الهند.

وقد نقّب باحثاً عن ذي القرنين، وذهب إلى إيران، وعايَن منطقة سد يأجوج ومأجوج، وكتب خلاصة رحلته وبحثه، في مجلة «ترجمان القرآن» التي كان يصدرها أبو الأعلى المودودي في الهند، ثم في الباكستان.

---

(١) انظر عبارات من هذا الخطاب في تقديم الباقوري لكتابه: ٦٣ ـ ٦٨.

وفي عام ١٣٩٢هـ وفق ١٩٧٢م أخذ الشيخ أحمد حسن الباقوري مقال آزاد في المجلة المذكورة، وكتب له مقدمة طويلة. معظمها حديث عن نفسه وعن رحلاته وصلته بجمال عبد الناصر، وعن زيارته للباكستان والهند وأندونيسيا والصين.

وقد صَدَر الكتابُ عن دار الشعب في مصر بعنوان «ويسألونك عن ذي القرنين».

وكلام أبي الكلام آزاد في الكتاب المذكور قيّم وجيّد ونفيس، والجيّد فيه أنه يعرض أدلته على رأيه، ويجمع بين الأدلة المختلفة، ويستشهد بالتاريخ والجغرافيا والاكتشافات الأثرية.

وسوف نورد خلاصة أدلته من الكتاب القيّم المذكور.

تلخيصُه ما قاله السابقون في تحديد ذي القرنين:

بدأ أبو الكلام آزاد بذكْر صفات ذي القرنين التي أوردها القرآن، وقد كانت الصفات ثمانية.

ثم أورد بعض أقوال المفسرين، في تحديد شخصية ذي القرنين.

قال بعضهم إن القرن لم يُقْصَد به الظاهر، بل هو كناية عن الزمن، وأنه سمي بذي القرنين لأن حكمه شمل عهديْن كبيرين.

وقال بعضهم إنه كان معاصِراً لإبراهيم عليه السلام.

وقال بعضهم إنه مَلِك من ملوك حمير.

وقال بعضهم إنه الإسكندر المقدوني.

ثم رفض تلك الأقوال وفنّدها، على اعتبار أن المواصفات التي ذكرها القرآن، والأعمال التي نسبها لذي القرنين، لا تنطبق على واحد من هؤلاء[1].

ذو القرنين هو كورش الفارسي:

ذهب أبو الكلام آزاد إلى أن ذا القرنين هو كورش الفارسي.

قال إن اسمه باللغة الفارسية «كورش» واليهود سموه «خورش» والعرب سموه «قورش» أو «كيخسرو» واليونان سموه «سائِرسْ»[2].

وكان «كورش» يحكم فارس في الدوْر الأول من أدوار التاريخ الإيراني الفارسي، وهو الدور الذي كان قبل هجوم الإسكندر المقدوني على فارس، وقتْله لملكها «دارا».

وكانت إيران قبيل حكم كورش مقسَّمة، إلى مملكتين، مملكة «فارس» في الجنوب، ومملكة «ميديا» في الشمال.

وفي عام ٥٥٩ وليَ الحكم «كورش»، ثم وحَّد مملكتي فارس وميديا في دولة واحدة، ورضي الأمراء بحكمه، واستقام الشعب له.

وجهز كورش من الفرس جيشاً، قام بالقتال به ومحاربة الممالك والدول الأخرى وفتْحِها وإخضاعِها له. وكانت فتوحاتُه للعدل والإنصاف ومساعدة المظلومين.

وكانت حروبه الشهيرة ثلاثة:

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ٨٠ ــ ٨٥.
(٢) المرجع السابق: ٨٨.

حرب كورش الأولى للروم:

كانت لليونان مملكةٌ مجاورة للفر س، وهي مملكة «ليديـا» وكانت تقـع في القسم الشمـالي من آسيـا الصغـرى، وهي هضبـة الأنـاضـول حتى البحـر الأسود وبحر إيجه.

وكانت الحروب مستمرة بين «ليديا» اليونانية و «ميديا» الفارسية.

وكان يحكم «ليديا» زمن كورش، ملك يوناني اسمه «كروسس».

فلمـا ولي «كـورش» الحكم «أعلن «كـروسس» عليـه الحـرب، وبـادره بالعدوان. وما كان أمام «كورش» إلا أن يحاربه. فقاد جيشاً من فارس، وتوجَّه نحو «ليديا» في الغرب، وسار نحو عاصمة «ليديا»، ووقعت معركتان صاعقتان سريعتان، هما «بتريا» و «سارديـز»، وأسقط حكم «كروسس» واحتـلّ عاصمتـه «سارديز» وأخذ كروسس أسيراً إلى بلاد فـارس، وأخضـع الدولـة الليديـة إلى سلطانه.

وقد عامل «كورش» اليونانيين المغلوبين بعدلٍ ورأفة وإنصـاف. بل أنـه بالـغ في ذلك، حيث أحضـر ملكهم الأسير «كـروسس» وأمر بـأن يُجهز وا لـه كومة كبيرة من الحطب، وأن يُقعِدوه عليها، ثم يُشعلوا فيها النار، ففعلوا. ولما رأى أن «كروسس»، غير هيّاب ولا وَجِل، نَسَـخَ أمره وعفا عنـه، وعاش عنـده باقي أيامه معزَّزاً مكرَّماً.

وهذه هي الرحلة الأولى التي أشار لها القرآن، حيث سار «كورش» حتى بلـغ مغرب الشمس. وذلك عندما فتـح عاصمة «ليديا» وهي مـدينة «سـارديز» وكانت تقـع على بحر «إيجه» بالقرب من موقـع مدينة «إزمير» التركية الحالية.

وتلك المنطقة من بحر «إيجه» كثيرة الخلجان.

وقد بيّن الدكتور عبدالعليم خضر تضاريس وجغـرافية هـذه المنطقـة في

كتابه «مفاهيم جغرافية في القصص القرآني: قصة ذي القرنين» وبيَّن كيف أن الشمس تبدو من هناك وكأنها تغرب في عين حمئة. قال:

«حين توقَّف كورش عند شواطىء بحر إيجه ـ وهي جزء من سواحل تركية على البحر المتوسط ـ وجد الشاطىء كثير التعاريج، حيث تتداخل ألسنةُ البحر داخل اليابس. ومن أمثلة هذه الألسنة البحرية خليج هرمس، ومندريس الأكبر، ومندريس الأصغر. ويتعمّق خليج إزمير إلى الداخل بمقدار مائة وعشرين كيلومتر، تحيط به هذه الجبال من الغرب إلى الشرق، ويصب فيه نهر «غديس» ذو المياه العَكِرة المحمَّلة بالطين البركاني والتراب الأحمر، من فوق هضبة الأناضول، التي تنحدر ببطء نحو الغرب، قبل أن تصل إلى الحافة الغربية، ولذلك تزيد سرعة جريان نهر «غديس» في اتجاه السهل الساحلي المتقطع في شكل خلجان وأَخْوار وأَجْوان لا حصر لها. حتى يصل مستوى قاعدة بحر إيجه، حيث يصب في خليج «إزمير» الغارق بين قمم الجبال المحيطة به بارتفاع يتراوح بين ألف وألفي متر.

وحين توقّف كورش «ذو القرنين» عند سارد (ساردبز) قرب إزمير، تأمل قرص الشمس، وهو يسقط عند الغروب في هذا الخليج الذي يشبه العين تماماً، واختلطت حمرةُ الغَسَقِ الأحمر مع الطين الأسود الذي يلفظه نهر «غديس» في عين خليج إزمير.

ويرجَّح أن تكون تلك هي العين الحمئة التي ذكرها القرآن[1].

مهمة كورش الشرقية:

كانت قبائل همجية صحراوية رحّالة، تسكن شرق فارس، وكانت تُغير على حدود فارس، وتُعيث فيها فساداً.

فبعد أن انتصر كورش على اليونان في الغرب، توجه نحو الشرق لتأديب

---

(١) ذو القرنين لمحمد خير يوسف: ٢١٨ ـ ٢١٩ نقلاً عن كتاب الدكتور خضر.

تلك القبائل، فسار في البلاد الشرقية، وافتتحها بلداً بلداً حتى وصل نهر السند، حيث اخترق أقاليم: أصفهان وجوزجان وخراسان، وقطع أنهر «زندة» و «جرجان» و «قارون» و «الكوخة» و «قم».

ووصل في فتوحاته إلى «بلخ» ومنطقة «مكران» و «بلوخستان».

وكانت هذه القبائل رحالة لا تسكن البيوت ولا المدن، ولذلك لم يكن لديها بيت أو منزل يسترها عن الشمس عندما تشرق أو تشتد حرارتها[1].

مهمة كورش الشمالية وسدُّ يأجوج ومأجوج:

بعد تأمين كورش لكل من الجبهة الغربية والجبهة الشرقية، والجبهة الجنوبية، عندما فتح مملكة بابل، توجَّه للشمال لتأمين الجبهة الشمالية للمملكة.

وكانت المناطق الشمالية لمملكته، أذربيجان وجورجيا وأرمينيا، وهي الواقعة جنوبي جبال القوقاز.

وكانت حدود الجبهة الشمالية تُعتبر حاجزاً طبيعياً أمام القبائل الهمجية المتوحشة التي تقيم خلف ذلك الحاجز.

وهذا الحاجز الطبيعي يبدأ من بحر «قزوين» ـ أو بحر الخزر ـ في الشرق، حيث تقع عليه مدينة «دربند» ثم جبال القوقاز في الوسط، ثم البحر الأسود في الغرب، حيث تقع عليه مدينة «سوخوم».

ولا يوجد في هذا الحاجز الطبيعي ـ المائي والجبلي ممر من الشمال إلى الجنوب إلا ممرّ ضيق من وسط جبال القوقاز، وهو مضيق «داريال».

وكان يسكن جنوبَ جبال القوقاز قبائلُ «كوشيا» بينما كان يسكن شمالَ

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٣١ ـ ١٣٢ وذو القرنين ليوسف: ٢٢٠.

الجبال قبائلُ مغولية متوحِّشة، هي قبائل «الماساجيت» أو يأجوج ومأجـوج كما ذكر القرآن.

وكانت قبائل يأجوج ومأجوج تعبر مضيق «داريـال» وسط جبال القـوقاز، لتعيث في الأرض فساداً.

ولما وصل «كورش» إلى قبائل «كوشيا» وهم القوم الذين سمّاهم القـرآن «لا يكادون يفقهون قولاً» شكَوا إليه هجمات يأجوج و مأجوج.

أراد «كورش» أن يمنـع وصول يأجوج ومأجوج إلى تلك المناطق، فأقام في المنـطقة تسـع سنـوات، وأغلق مضيق «داريال» الـذي يستخدمـه يـأجـوج ومأجوج، فبنى عليه السد، الذي أشار له القرآن[1].

سدّ ذي القرنين هو المُقام على مضيق داريال:

السـد الذي بنـاه ذو القرنين «كـورش» هـو المقـام على مضيق داريـال، وسط جبال القوقاز.

وحـول ذلك السـد يقول القـاسمي في تفسيره «الـراجـح أن السـد كـان موجوداً بـأقليم داغستان التـابـع الآن لروسيـا، بين مدينتي «دربنـد» و «خوزار» فإنه يوجَد بينهمـا مضيق شهير منـذ القدم، يسمّى عنـد كثير من الأمم القـديمة والحديثة بالسد، وبـه موضـع يسمى «بـاب الحديـد»، وهو أثـرُ سدٍّ قـديم بين جبلين من جبال القوقاز، الشهيرة عند العرب بجبل «قاف» وقد كانوا يقولون أن فيـه السد كغيـرهم من الأمم، ويظنـون أنه في نهـايـة الأرض، وذلـك بحسب ما عرفوه منها، ومن ورائه قبيلتا يأجوج ومأجوج»[2].

وقد بيَّن لنا الدكتور عبد العليم خضر طبيعةَ جبال القوقاز التي بُنِي السـد

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٣٢ ــ ١٣٤ وذو القرنين لمحمد خير: ٢٢٢ ــ ٢٢٣.

(٢) ذو القرنين ليوسف: ٣٣٣ نقلاً عن تفسير القاسمي ١١: ٤١١٣ ــ ٤١١٤.

عليها: «جبال القوقاز تشكل سلاسل عظيمة الامتداد، كثيرة الارتفاع، صعبة الاجتياز، معدومة الممرات إلا في ممر واحد، هو «مضيق داريال» في الوسط، وهو الذي يجري فيه أحد روافد نهر «ترك» العليا. والجبال تمتد حتى تكاد ترتطم بأمواج بحر قزوين من الشرق، وتمس مياهَ البحر الأسود من الغرب، طول امتدادها يبلغ ١٢٠٠ كم. وهي أعلى جبال أوروبا قاطبة. ولا يمكن عبورها على الإطلاق، إلا من ممر «داريال»[١].

توفُّر المعادن في تلك المنطقة:

يشير القرآن إلى أن السد الذي بناه ذو القرنين كان من قطع الحديد المصهور الذي وُضِع عليه النحاسُ المصهور، وقد ارتفع الحديد مع النحاس حتى ساوى بين قمتي الجبلَيْن.

فمن أين لذي القرنين «كورش» هذه الكميات الضخمة من الحديد والنحاس؟.

يقول الدكتور عبد العليم خضر عن تلك المنطقة:

«خامات الحديد: تحتوي أراضي «أذربيجان» على معادن الحديد بكميات كبيرة. والشاهدُ على ذلك قيام صناعة الحديد والصلب الآن في مدينة «باكو» ـ عاصمة أذربيجان ـ فإذا كان الأقليم غنياً بها الآن، فلا شك أنه كان أغنى في السابق.

أما أرمينية فغنية بمعادنها، ويكثر بها على وجه الخصوص: خام الحديد والنحاس والرصاص والزرنيخ وحجر الشب والكبريت والذهب. ويذكر «ليونتيوس» المؤرخُ الأرمني أن ملامح الأرض تدل على مناطق محفورة في الجبال، تشير إلى استنفاد السكان الأقدمين، لاحتياطيّ الحديد القديم، الذي كان يُسْتخرج في العراء، دون عناء كبير.

---

(١) ذو القرنين ليوسف: ٣٣٤ نقلاً عن مفاهيم جغرافية لخضر: ٢٩٦.

وتدل التكوينات الجيولوجية على أن مناطق «بابرت أرغنى» غنية بخام الحديد، وبكميات وفيره. كما يوجد الحديد بوفرة في «جورجيا».

وفي إقليم الحدود الأرمينية في تركيا إقليم الحديد المشهور، الذي يُقدَّر احتياطيُّه بحوالي ٢٥ مليون طن.

أما عن الفحم والأخشاب اللازمْين لصهر الحديد. فتكوينات منطقة «كلاكنت» بأرمينية، فيها احتياطيٌّ كبير. وفي سواحل البحر الأسود تُعتبر مناجم «زونفلداك» من المناطق الغنية جداً بخامات الفحم.

وأما عن الأخشاب، فيذكُر ابن حوقل أن إقليم أردبيل، كثير البساتين والأنهار والمياه والأشجار والفواكه.

وخاماتُ النّحاس ثبت علمياً وتاريخياً توفُّرُها بالأقليم، فالدراسات الجيولوجية الحديثة تثبت وجوده بوفرة في تكوينات «زنجان» و«أناراك» وشمال «أصفهان»، وفي جنوب «أذربيجان» كميات هائلة منه. وفي أرمينية أصبحت مناجم النحاس الكبيرة المعروفة منذ القدم، شاهد على استخراج السكان القدامى لخاماته.

ومن ناحية توفُّر العدد اللازم من حيوانات الجّر والحمل، فالأقليم غنيٌّ بالثروة الرعوية والحيوانية، لأنه ينحصر بين إقليم البحر المتوسط غرباً، وإقليم الصين شرقاً. والجَمَل معروف هناك، وهو من النوع ذي السنامين، وحيوان «الياك» وقد استخدمه السكان في النقل، تماماً كالحمير، وهو يمتاز عن الحمير، بوجود أظافر في رجليه، تساعده على ارتقاء المرتفعات، والتنقل بأحماله بينها. كما يوجَد هناك منذ القدم عشرات الآلاف من الخيول «السيسي» الشهيرة بقدرتها على حمل الأثقال وجر العربات.

ومن حيث توفر المُؤَن لمواجهة استهلاك العمال والمهندسين من طعام

وشراب. فقد عَرف الأقليم جميعَ الحبوب من آلاف السنين، حسبما تقول الجغرافية التاريخية، وعُثِر عليها في الآثار القديمة، ووُجِدت قوارير مملوءة بالحبوب وغيرها. وكانت أرمينية تُعتبر من أخصب أملاك الخلافة العباسية.

وقد ورد أن شهرة الأقليم بالأسماك كمورد غذائي للسكان والتصدير لا تُضارَع.

وأوديةُ هذا الإقليم الكبير مزدحمة بغابات الأشجار المثمرة. و «داغستان» بلادٌ زراعية بالدرجة الأولى من العصور القديمة حتى الآن، ومناخ «جورجيا» من آلاف السنين ملائم لزراعة الحبوب»[1].

بهذا يظهر لنا أن منطقة السد مهيأةٌ لإقامة السد عليها، وقادرةٌ على أن تُوفِّر للذين يقيمون السد كلَّ ما يحتاجون إليه، من طعام وشراب وغذاء ووسائل نقل، وتوفِر المواد الخام اللازمة لإقامة السد من أخشاب وفحم ونحاس وحديد وغير ذلك.

كما يظهر لنا أن مضيق «داريال» مناسبٌ لإقامة السد عليه، لضيقه وانحصاره بين الجبلين، وارتفاع الجبلين على جانبيه.

ولذلك رجَّح كثير من العلماء السابقين أن السد قد أقامه ذو القرنين على مضيق داريال، في جبال القوقاز.

تمثالٌ أثري لكورش:

يرجِّح مولانا أبو الكلام آزاد، ومعه الدكتور عبد العليم عبد الرحمن خضر، أن « كورش » الفارسي هو ذو القرنين المذكور في القرآن، وأن السد الذي أقامه على مضيق «داريال» هو السد المذكور في القرآن.

---

(١) ذو القرنين ليوسف: ٣٣٦ ــ ٣٣٨ نقلاً عن مفاهيم جغرافية لخضر.

ويرى هذان العالمان المحقّقان أن صفات «كورش» متفقةٌ مع الصفات التي أوردها القرآن لذي القرنين، بل إن وصف القرآن لذي القرنين، قد تحقق في «كورش».

ويقدم أبو الكلام آزاد دليلَه على ذلك:

كورش لُقِّب بذي القرنين، لأنه وحَّد مملكتي «ميديا» و «فارس» في مملكة واحدة، حيث شُبِّهت كل واحدة بقرن، فلما جَمَع بين المملكتين لُقِّب بذي القرنين، أي ذي المملكتين.

وأهم دليل يقدمه أبو الكلام على ذلك، هو التمثال الذي عثر عليه علماء الآثار لكورش الفارسي. يقول في ذلك:

«إن هذا الكشف الأثري الهام، هو تمثال حجري لغورش بعينه، وجدوه منصوباً في مكان يبعد عن عاصمة إيران القديمة «إِصْطَخْر» نحو خمسين ميلاً على شاطىء النهر «مرغاب»، وقد سبق جيمس موريز فأخبَرَ بوجوده، ثم جاء بعد سنوات السير رابرت كير بورتر، فقاس المكان وفَحَصَه فحصاً دقيقاً، وَنَشَر رسماً للتمثال بقلم الرصاص، وذلك في كتاب رحلته إلى إيران وجورجيا، وقد تكلم القس «فورستر» سنة ١٨٥١ على التمثال، واستدل به على نصوص التوراة، كذلك نشر صورة للتمثال أوضح من الأولى.

لم يكن اللثام عن الخط المسماري أزيح كلية إلى ذلك الحين، إلا أنه كان تقرر أن التمثال لسائرس، أي لغورش لا غير.

وقد دَعَمت البحوثُ المتأخرة هذا القرار تدعيماً لا يَدَع المجال للريب فيه.

ثم لما أَلَّف الكاتب الفرنسي الشهير «دي لافواي» كتابه عن الآثار القديمة في إيران. نشر فيه صورة عكسية للتمثال، فعرَفه الناس معرفة تامة.

وقد سجَّل أبو الكلام آزاد وصفاً للتمثال فقال: «إنه تمثال على القامة الإنسانية. ظهر فيه غورش، وعلى جانبيه جناحان كجناحي العُقاب، وعلى رأسه قرنان كقَرْنَي الكبش، يدُه اليمنى ممتدة، يشير بها إلى الأمام، ولباسُه نفس اللباس المعهود الذي نراه في صور ملوك بابل وإيران. فهذا التمثال يثبت بلا شك أن تصور «ذي القرنين» كان قد تولَّد لغورش، ولذلك نجد المَلِك في التمثال وعلى رأسه قرنان.

متى صُنع التمثال؟ ومن صَنَع التمثال؟.

يقول آزاد: «أمّا متى صُنِع التمثال؟ صُنِع بأمر غورش في حياته أو بأمر خليفة من خلفائه؟ يصعب البت فيه.

إن عاصمة العيلاميين والفرس كانت مدينة «سوسان» التي تُسمى الآن «بالأهواز» وهي واقعةٌ في إيران الجنوبية. وكانت عاصمة «مادا» أي «ميديا» مدينة «هيغ متانا» التي حرَّفها العرب، فقالوا «همذان».

ويقول: «يظهر أن تمثال غورش أُقيمَ في عهد الملك أردشير، لأنه موجود بضاحية من «اصطخر» التي لم يبق من خرائبها إلا منصَّةٌ حجرية قام فوقها التمثال»[1].

نهاية كورش وامبراطوريته:

استلم كورش الحكم عام ٥٥٩ق. م. وقام بفتوحاته في الجبهات الثلاث: الغربية والشرقية والشمالية.

وحكم بلادَ فارس والشام ومصر والعراق وآسيا الصغرى وشرق فارس حوالي ثلاثين سنة. حكم ما لم يحكم حاكم مثله في ذلك الزمان. وكانت

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٠١ ــ ١٠٣ وانظر صورة التمثال في صفحة: ١٠٤.

البلاد التي حكمها في التقسيم المعاصر: فلسطين والأردن ولبنان وسوريا وتركيا والعراق وإيران وأرمينيا وجورجيا وأذربيجان وشمال باكستان وأفغانستان وتركستان.

ولعله لذلك سُمِّي بذي القرنين.

وتوفي كورش عام ٥٢٩ ق. م.

وبعد وفاة كورش استلم الحكم ابنه «كمبوشيا» أو «قمبيز» كما يسميه العرب، وتوجه «قمبيز» إلى مصر عام ٥٢٥ق. م. وافتتحها. لكن قامت ثورة ضده، وتمرد عليه سكان مملكة «ميديا» بقيادة «غوماتا»، فرجع قمبيز من مصر إلى هناك لإخماد الثورة، ولكنه مات وهو في الشام.

ولما لم يكن لكورش أولادٌ آخرون، ولّى أهلُ فارس ابنَ عمه «دارايوش» أو «داريوس» ملكاً عليهم. وبعد وفاة داريوس تولى الحكم «أردشير» وهو الذي هاجمه الإسكندر المقدوني وقتله، وقضى على الامبراطورية التي أسسها كورش[1].

أخلاق كورش وأخلاق ذي القرنين:

أشار القرآن إلى أخلاق ذي القرنين، وقد بيَّن أبو الكلام آزاد انطباق تلك الأوصاف على كورش وحكمه:

ذو القرنين عادِلٌ بيْن الناس، ولذلك حكَّمه الله فيهم بأن يفعل فيهم ما يشاء: إما أن تُعذّب وإما أن تتخذ فيهم حسناً.

وقد سلك كورش مع البلاد المفتوحة عدلاً وبِراً ورحمة، في فتحه لمملكة «ليديا» اليونانية، ومعاملته لملكهم «كروسس» الذي عفى عنه، وعامله برحمة وسماحة.

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٢١ ــ ١٢٤.

وأشاد المؤرخون الأصدقاء لكورش والأعداء، بعدله وسماحته في تعامله مع أعدائه اليونانيين.

قال المؤرخ اليوناني هيرودوتس: «كان غورش كريماً جواداً، سَمحاً للغاية، لم يكن حريصاً على جمع المال كغيره من الملوك، بل كان حرصُه على الكرم والعطاء، يبذل العدل للمظلومين، ويحب كل ما فيه الخير للبشر».

وقال المؤرخ اليوناني زينوفن: «كان ملكاً عاقلاً رحيماً، اجتمعت فيه مع نُبْلِ الملوك فضائلُ الحكماء. هِمَّته تفوق عظمته، وَجودُه يغلب جلالته، خدمةُ الإنسانية شعارُه، وبذْل العدل للمظلومين ديدنُه، حلَّ فيه ــ مكان الكبر والعجب ــ التواضعُ والسماحة»[1].

إن عدلَ وسماحةَ كورش أنطقا عَدُوَّيْه وخصْمَيْه هيرودوتس، وزينوفن، وشهدا له به. وصدق القائل:

ومليحــةٌ شهــدَتْ بهــا ضُــرَّاتُهــا والفضـل مـا شهــدت بـه الأعــداء

كورش كان مؤمناً بالله:

يصرِّح القرآنُ بأن ذا القرنين كان مؤمناً بالله، ذاكِراً له، شاكِراً لِنِعَمِه، معترِفاً بفضله.

ووقف أبو الكلام آزاد أمام عقيدة كورش، فبيّن أنه موحِّدٌ بالله، عابدٌ له، مخلص لدينه.

كان كورش على دين «زرادشت» وكان زرادشت على دين التوحيد، وأن كورش ترك دين مملكة «مادا» القديم، وهو الدين المجوسي. ولما مات كورش، قام المجوس بثورة ضد دين زرادشت. وقضى عليها «دارايوش».

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٣٩.

وكان الزرادشتيون زمن كورش مؤمنين بالله موحِّـدين له. لكن بعـد ذلك زحفت المجوسية عليهم، ودخلتْ دينَهم، ومـزجوا التـوحيد بـالشرك والكفـر، وسُمـوا بـاسم «المجـوس» ولم ينْسَ المسلمـون الأصْـلَ السمـاويَّ الكتــابـي للزرادشتيِّين ـ أو المجوس الجدد ـ فقال رسول الله ﷺ: «سُنّوا بهم سُنَّةَ أَهْلِ الكتاب». أي عــامِلوهم كمـا تعاملون أهـل الكتاب اليهـود والنصارى. ولـذلك أخذ المسلمون منهم الجزية.

ومعنى هذا أن الإسلام يعتـرف بأن الـدين الزرادشتي لـه أصل سمـاوي ـ كما هو لليهودية والنصرانية ـ ولكنه لا يُقرُّه، لما أصابه من تزوير وتحريف، وما تَدَسَّسَ له من كفر وشرك.

إن أبـا الكلام آزاد يـرى أن زرادشت كان نبيـاً من الأنبياء للفـرس. وأن كورش كان على دينه، قبل أن يحرفه الفرس فيما بعد[1].

---

(١) انظر «ويسألونك عن ذي القرنين»: ١٤٢ ـ ١٦١.

يأجوج ومأجوج

بعـدما رجَّحْنـا أنَّ ذا القرنين هـو «كورش» الفـارسي، وأن سد يـأجـوج ومـأجوج المـذكور في القـرآن، هو مـا أقامـه كورش على مضيق «داريـال» في جبال القوقاز، بيْن بحر قزوين، والبحر الأسود.

ننتقل بعد هذا للحديث عن يـأجوج ومـأجوج، ومكـانِهم، وخروجِهم، وما جرى للسد الذي أقامه كورش أمامهم.

يأجوج ومأجوج في القرآن:

ذُكِرت «يأجوج ومأجوج» مرتيْن في القرآن:

الأولى في سورة الكهف، في الآيات التي نحن بصددها: ﴿قَالوا: يَـاذَا القَرْنَيْنِ إِنَّ يَأْجوجَ وَمَأْجوجَ مُفْسِدونَ في الأَرْضِ﴾[1].

الثانية: في سورة الأنبياء في قـول الله تعالى: ﴿حَتَّى إِذا فُتِحَتْ يَـأْجوجُ وَمَأْجوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلون * وَاقْتَـرَبَ الوَعْـدُ الحَقّ﴾[2].

آياتُ سورة الكهف تتحدث عن يأجوج ومأجوج فيما مضى، وتخبـر عن إفسـادهم في الأرض، وإقـامـةِ «ذي القـرنين» السَّـدَّ أمـامهم، وعجـزِهم عن الظهور على السد أو نقبه، زمن ذي القرنين، وبعده.

---

(١) سورة الكهف: آية ٩٤.

(٢) سورة الأنبياء: آيات ٩٦ ــ ٩٧.

وآياتُ سورة الأنبياء تتحدث عن يأجوج ومأجوج في المستقبل، وعن خروجِهم الكبير قبيل قيام الساعة.

إنها تخبِر عن ذلك بكلمة «إذا» وهي ظرف لما يُسْتَقْبَل من الزمان، خافِضٌ لشَرطه، منصوبٌ بجوابه ـ كما يقرِّر علماء النحو والبلاغة ـ.

وتخبر عن فتح الطريق ليأجوج ومأجوج، وقد حمل بعضُهم هذا الفتح على الفتح المادي الحسي، وهو نقضُهم لسد ذي القرنين، وخروجُهم منه، ويقررون أنهم لن يفعلوا هذا إلا قبيل قيام الساعة، وأن السد ما زال موجوداً حتى الآن!

لكننا نرى أَنَّ الفتح هنا معنوي، ويَعْني إِذْنَ الله لهم بالخروج من موطنهم، واجتياحهم الأرض والبلدان. وهذا هو خروجهم الكبير الأخير قبيل قيام الساعة ـ والله أعلم ـ.

وتشير الآية إلى قوة خروجهم وضخامتِه وإلى كثرة عددهم، وعنف اجتياحهم ﴿وهم من كل حَدَبٍ يَنْسِلون﴾.

والحَدَب: هو كل ما ارتفع وعلا من الأرض، من تل أو كثيب أو جبل أو غيره.

وينسلون: يعني يسرعون في المشي، ويتتابعون ويتوافدون. وكأنهم يُغطّون وجه الأرض التي يجتاحونها.

وقد أشارت الأحاديث الصحيحة إلى كثرتهم وعنفهم وقوة اجتياحهم وهول خروجهم، وقد ذكرناها في بداية حديثنا عن القصة، فلا داعي لإعادتها.

وتشير الآية إلى أن هذا الخروج الكبير العنيف المدمِّر هو الأخير، وأنه قبيل قيام الساعة: ﴿واقترب الوعد الحق﴾. وهذا الوعد هو قيام الساعة، يعني

أن الساعة قد اقتربت بخروجهم، وأنها تكون بعد خروجهم بفترة وجيزة ـ كما تخبر الأحاديث الصحيحة ـ.

هل هما مشتقان أو أعجميان؟:

اختلف علماء اللغة في «يأجوج ومأجوج» هل هما مشتقان أو أعجميان؟.

فذهب فريق إلى الاشتقاق. ونَقَل ابنُ منظور في «لسان العرب» رأيَهم: «واشتِقاقُ مثلِهما من كلام العرب، من أَجَّتِ النار، ومن الماء الأُجاج، ؛ وهو الشديد الملوحة، المُحْرِق من ملوحتِه، ويكون يأجوج على وزن «يفعول» ومأجوج «مفعول» وكأنه من أجيج النار، ويجوز أن يكون يأجوجَ فاعولاً، وكذلك مأجوج.

وهذا لو كان الاسمان عربييْن، لكان هذا اشتقاقهما، فأما الأعجمية فلا تُشْتَق من العربية»[1].

وقال الراغب الأصفهاني في مادة «أَجَّ»: «ملح أُجاج: شديد الملوحة والحرارة، من قولهم: أجيجُ النار، وأَجَّتُها، وقد أجَّتْ، وائْتَجَّ النهار. ويأجوج ومأجوج منه، شُبِّهوا بالنار المضطرمة، والمياه المتموِّجة لكثرة اضطرابهم»[2].

وذهب فريق آخر إلى كونهما غيرَ مشتقيْن، وأنهما أعجميان، وأنهما ممنوعان من الصرف، للعلمية والعجمة.

وهذا هو الرأيُ الراجح، لأن القبيلتيْن موجودتان قبل العرب، وقبل وضع مفردات وتصريفات واشتقاقات اللغة العربية، ولا يليق بنا «الهَوَس»

---

(١) لسان العرب لابن منظور ٢ : ٢٠٧.

(٢) المفردات: ١٠.

اللغـوي، بحيث نجعل الأسمـاء القديمـة قبل العـربية، مشتقـة من لغتنـا التي جـاءت بعدهـا. مثل أسمـاء «إبليس» و «آدم» و «حواء» و «مـوسى» و «هارون» و «التوراة» و «الإنجيل» ومنها «يأجوج ومأجوج» ـ والله أعلم.

وقـد أشـار أبـو الكـلام آزاد، إلى أن الكلمتين أعجميتان، فقـال: «إن كلمتيْ يـأجوج ومـأجوج تبـدوان كأنهمـا عِبْرِيَّـان، ولكنهمـا في أصلهمـا قـد لا تكونان عبريتيْن. إنهما كلمتان أجنبيتان، اتخذتا صورة العبرية، فهما تُنطقان باليونانية «غاغ: Gag» و «ماغاغ: Magag» وقد ذُكِرَتا بهذا الشكل في الترجمة السبعينية للتوراة، وراجتا بالشكل نفسه في سائر اللغات الأوروبية»[1].

«منغوليا» موطن يأجوج ومأجوج:

اختلف العلمـاء في الموطن الأسـاسي ليأجـوج ومـأجـوج، وفي الأقليم الذي كان المهدَ الأوَّل لهم.

ورجَّـح العلماء المحققون أن ذلك الموطن هو «البُقْعة الشمالية الشـرقية من الأرض «منغوليا» وقبائلُها الرحّالة «منغول» وتقـول لنا المصـادر الصينيّـة أن أصل كلمة «منغـول» هو «منكـوك» بالكـاف الفارسيـة بعد النـون، أو «منجوك» بـالجيم الفارسيـة، وفي الحالتين تقـرب الكلمة من النـطق العبـري «مـاكـوك» بالكافين الفارسيتيْن، والنطق اليـوناني «ميكـاك» بالكـافين الفارسيتين، ويخبـرنا تـاريـخ الصين عن قبيلة أخرى من هـذه البقعة، كـانت تعرف بـاسم «يواشي» والظاهر أن هذه الكلمة مـا زالت تحرف عنـد الأمم، حتى أصبحت «يأجـوج» في العبرية»[2].

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٦٣.

(٢) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٦٤ ـ ١٦٥.

الـراجـح إذن أن «منغوليـا» هي موطن يـأجـوج ومـأجـوج، بـل إن اسم «منغوليا» و «مغول» مرتبط بكلمة «مأجوج» وله صلة مباشرة بها.

وقد عُرِف يأجوج ومأجوج باسم المغول تارة، وباسم التتار تارة أخرى.

الأدوار السبعة لخروج يأجوج ومأجوج:

رجّحْنـا أن يأجـوج ومأجـوج يقيمون في منـطقة «منغـوليا» و «تـركستـان الصينيـة والروسية».

ولكن هل خرجوا من قبل؟ أم أنهم لن يخرجوا إلا عند قيام الساعة؟.

ذهب فريق من العلماء إلى أنهم لن يخرجوا إِلّا مرة واحدة، وهي قبيـل قيام الساعة.

لكن رجَّـحَ المحققون من العلماء أنهم سيخرجون عدةَ مرات، خاتمتُها خـروجُهم الكبيـر المـدمِّـر قبيـل قيـام السـاعـة، كمـا تقـرِّر ذلـك الأحـاديث الصحيحة.

وأشار هؤلاء العلماء إلى سبعة أدوار لخروجهم. أوردها أبو الكلام آزاد:

الدور الأول: قبل العصر التاريخي، أي قبل حوالي خمسـة آلاف سنة، حيث كـانـوا يُغيـرون على سهـول الصين، ويهـدِّدون حضـارتهـا القـديمـة، بمهاجمتهم لها عبر صحراء «جوبـي».

الـدور الـثـاني: في فجـر الـتـاريـخ، أي مـا بيـن ١٥٠٠ق. م ــ ١٠٠٠ق. م، وكـانت الموجـات المغوليـة منهم تتدفق من الشمـال الشر قي، لتستقـر في سهول الصين، وهضـاب وسط آسيا ومنغـوليا وتـركستـان. وكـانـوا يميلون إلى السكينة والهدوء. ويقومون بالأعمال الزراعية.

الدور الثالث: ويبدأ هذا الدور في حدود سنـة ألف قبل الميـلاد، حيث

أغارت تلك القبائل على منطقة بحرِ قزوين، والبحرِ الأسود، وشمالِ القوقاز، وحوض نهري الدانوب والفولجا.

وكانت قبائلُ من هؤلاء، سماها اليونان قبائل «سي تهين» قد عَبَرت مضيق «داريال» في جبال القوقاز، لتهاجم حضارة «نينوى» في حدود سنة ٧٠٠ق. م وكان لهذه الهجمات المغولية على نينوى أثرٌ مباشر في سقوط حضارة الآشوريين. كما أشار إلى ذلك «هيرودوتس» أبو التاريخ اليوناني.

الدور الرابع: كان في حدود سنة ٥٠٠ق. م، حيث كانت قبائل «سي تهين» تُغير على مناطق آسيا الغربية، عَبْر مضيق «داريال» فقام ذو القرنين ـ كورش الفارسي ـ ببناء السد على ذلك المضيق، وبذلك مَنَع غارات وهجمات يأجوج ومأجوج، وأَمِنَت البلاد لفترة من الوقت.

الدور الخامس: وكان في حدود سنة ٣٠٠ق. م، حيث توجهت قبائل يأجوج ومأجوج نحو الشرق، وهاجموا امبراطوريةَ الصين، وقد سمّى مؤرخو الصين هذه القبائل «هيونغ هو». وفي هذه الفترة شيد امبراطور الصين «شين هوانغ تي» سورَ الصين العظيم، لصدِّ هجماتهم، وبدأ ببناء السد سنة ٢٦٤ق. م. وتم بناؤه في عشر سنوات، وقد نجح في صدِّ هجماتهم على الصين.

وقد شاع بين الناس أن سورَ الصين هو سدُّ ذي القرنين. وهذا خطأ. فسدُّ ذي القرنين بُني على مضيق داريال لصد الهجمة الرابعة ليأجوج ومأجوج، وسورُ الصين الطويل بُني لصد الهجمة الخامسة لهم. ويبدو أن امبراطور الصين استفاد من «كورش» في وسيلته لإيقاف هجمات يأجوج ومأجوج، فبنى سور الصين!.

الدور السادس: وكان في القرن الرابع الميلادي، حيث توجهوا إلى أوروبا، بقيادة زعيمهم «أتيلا: Attila» وقد نجحوا في مهاجمة الدولة

الرومانية، ودخول عاصمتها «روما» وتدميرها، وبذلك قضوا على المدنية الرومانية التي استمرت عدة قرون.

الدور السابع: وكان في القرن الثاني عشر الميلادي، السابع الهجري، حيث سارتْ جحافلهم بقيادة «جنكيز خان» نحو الممالك الإسلامية في الغرب، فقضَوْا عليها، ودمّروها، ثم نجح حفيده «هولاكو» في دخول عاصمة الخلافة «بغداد» وتدميرها عام ٦٥٦هـ.

هذه خلاصة موجزة للأدوار السبعة لخروج يأجوج ومأجوج، كما أوردها أبو الكلام آزاد، وأخذها عنه الدكتور عبد العليم خضر[1].

جنكيز خان وهولاكو من يأجوج ومأجوج:

ذهب فريق من المؤرخين والمفسرين إلى أن «المغول» أو «التتار» هم من يأجوج ومأجوج، وأنهم يمثّلون دوراً من أدوار خروجهم.

وأن خروج جنكيز خان ثم هولاكو هو الدورُ السابع من أدوار خروجهم.

وهذا القول ممكن وليس مرفوضاً ولا غريباً.

فقد كان خروج المغول أو التتار ـ أو يأجوج ومأجوج ـ كبيراً وعنيفاً، وكان اجتياحهم لبلاد المسلمين عظيماً ومدمِّراً، و كان أثرهم فيها بالغاً واضحاً.

المؤرخ ابن الأثير وتلك الفترة:

ولقد عاش المؤرخ ابن الأثير بدايةَ خروجِهم وحربِهم للمسلمين، وتدميرهم للممالك الإسلامية الشرقية، وسجل في كتابه «الكامل في التاريخ»

---

(١) ويسألونك عن ذي القرنين: ١٦٦ ـ ١٦٨. وذو القرنين ليوسف: ٣١٠ ـ ٣١١.

الكثيـر من أعمالهم وفظائعـهم، ومَزَجَهـا بعبارات كلهـا أسى وحـزن ويـأس، وصـاغها بمشـاعـره وعـواطفـه وانفعـالاتـه، وإشفـاقـه على مستقبـل الإسـلام والمسلمين.

ولكن ابن الأثير توفي قبل أن يصل هولاكو بغداد، حيث كانت وفاته سنة ستمائة وثلاثين هجرية.

ولا نـدري لو أدرك ابن الأثيـر سقوطَ بغـداد وتـدميـرهـا، كيف سيكـون تأريخُه لتلك القاصمة، وكلامُه عنها، وهو المؤرخ الأديب الحساس الشاعر.

ويُعتبـرَ تاريخـه «الكامـل» مرجعـاً أساسيـاً لبدايـة خروج جنكيـز خـان، وبخاصة في السنوات العشر الأولى من ذلك الخروج.

والجيِّد في كلام ابن الأثير، أنه لم يكن مجـرد روايةٍ مؤرخ، وإنمـا كان متـأثراً بمـا يجري منفعـلاً بـه، ولقد مـزج التـاريـخ بـالـمشـاعـر والعـواطف والانفعـالات، وكأنّ قـارىء التاريـخ يـرى أمامـه شخصاً يـذوب أسى وحسـرة وكمـداً وحـزنـاً. كمـا أن ابن الأثيــر كـان يقف ليستخلص العبـرَ والـدروس والدلالات مما يكتب ويؤرخ، ويقدم للقارىء السنن الربانيـة الاجتماعيـة التي تسيِّر أحداثَ التاريـخ، فتأتي أحداثه انعكاساً لها أو ترجمة عملية لهـا، كما أن ابن الأثيـر في تأريخـه لهذه الفتـرة، كان يـأخذ مصـادَره وأخباره من أشخـاص أحياء، عاشـوا تلك الأحداث، وتـأثروا بهـا، وتفاعلوا وانفعلوا بهـا، فمصادرُه حية، مأخوذة من الميدان العسكري، وكأنّ رواتَه أشبه ما يكونون بمراسلين حربيين، وصحفيين من الميدان.

مـا علينا، لا نـريـد أن نخـرج عن مـوضـوعنـا للحـديث عن ابن الأثيـر ومزاياه.

بداية أمر جنكيز خان وحربه للمسلمين:

كان بداية خروج يأجوج ومأجوج في الدور السابع عام ٦١٦هـ. وذلك أنهم كانوا يقيمون في منطقة «منغوليا» وفي جبال «طمغاج» بالذات[١]، وكان لهم ملك اسمه «أُزْبِكْ خان».

وكان من كبار قُواده شاب اسمه «تموجيني» فوشى الحاسدون به عند الملك، فنفاه إلى منطقة نائية، فتمرد «تموجيني» على الملك «أوزبك خان» وجهّز جيشاً لحربه، ونجح في الانتصار عليه وقتْله، ونصَّب نفسه ملكاً مكانه، وغيّر اسمه من «تموجيني» إلى «جنكيز خان».

مَلَك جنكيز خان سنة ٥٩٩هـ، وأخضع المنطقة كلها له. وسار نحو الغرب الإسلامي.

واصطدم بمَلِك المسلمين في بلاد الشرق «خوارزم شاه» سنة ٦١٦هـ، وهزم جنكيز خان الملك خوارزم شاه، ومات الأخير عام ٦١٧هـ، ثم اكتسح جنكيز خان بلاد المسلمين، واحدةً تلو الأخرى.

وبقي جنكيز خان يفتح الممالك الإسلامية، ويقتل ويدمر، حتى توفي سنة ٦٢٤هـ[٢].

وبقيتْ الحروب مستمرةً بين التتار والمسلمين بعد وفاة جنكيز خان، إلى أن مَلَكَهم حفيده «هولاكو»، وزاد هولاكو من حربه للمسلمين.

وجهَّز هولاكو جيشاً من التتار ــ يأجوج ومأجوج ــ قِوامُه مائتي ألف مقاتل، وكان جيش المسلمين في بغداد أقل من عشرة آلاف.

---

(١) الكامل لابن الأثير ١٢: ٣٦١.

(٢) البداية والنهاية ١٣: ١١٨.

سقوط بغداد وقتل الخليفة:

وصل هولاكو وجيشُه بغداد، وحاصروها في الثاني عشر من محرم عام ٦٥٦هـ، وكان للوزير الرافضيِّ ابن العَلْقمي ـ رئيس وزراء الخليفة ـ ومستشاره الإسماعيلي الخبيث نصير الدين الطوسي. دور هام في إضعافِ جيش المسلمين، وإغراءِ هولاكو بدخول بغداد، ومراسلتِه سراً، وتزيينِ الأمر لديه.

وحاصر يأجوج ومأجوج بغداد، ثم دخلوها في أواخر المحرم ٦٥٦هـ، وأصدر هولاكو أمره لجيشه بقتل أهل بغداد. وأعملوا فيهم السيف مدة أربعين يوماً، واختلَفَتْ تقديرات عدد المسلمين المقتولين ببغداد وحدها، فقيل: ثمانمائة ألف، وقيل: مليون وثمانمائة ألف، وقيل: مليونان.

وقام هولاكو بقتل خليفة المسلمين المستعصم بالله في صفر عام ٦٥٦هـ[1].

عين جالوت والقضاء على يأجوج ومأجوج:

توجَّه هولاكو بجيش المغول من بغداد نحو بلاد الشام، فاحتلَّ حلب ودمّرها وقتل أهلها.

ووقعت خلافات في مقر حكم المغول في المشرق بين القادة والمسؤولين، فتوجّه هولاكو إلى هناك، وعين القائد المغولي «كتبغا» قائداً للجيش في الشام.

وتجهز المسلمون لمواجهة «كتبغا» وجيشه، وكانوا بقيادة المظفر «قطز» والظاهر «بيبرس».

---

(١) انظر حديث ابن كثير عن هذه المأساة: ١٣: ٢٠٠ ـ ٢٠٦.

والتقى الجيشان في «عين جالوت» حيث بدأت معركة عين جالوت الضارية يوم الجمعة الخامس والعشرين من رمضان عام ٦٥٨هـ، بعد سنتين من سقوط بغداد وتدميرها.

واشتد القتال بين جيش يأجوج ومأجوج بقيادة «كتبغا» وجيش المسلمين بقيادة «قطز» وكان من أعنف المعارك وأشدها وأشرسها وأقواها، وأطلق «قطز» صيحة النصر: «وا إسلاماه». وفتح الله على المسلمين، وهزم الله المغول.

ووصل الأمير جمال الدين آقوش إلى قلب القيادة المغولية، وتمكن من قتل قائدهم «كتبغا»[١].

وانهزم جيش المغول، وكانت هذه أول هزيمة كبيرة تحدق بهم.

وكانت «عين جالوت» بدايةَ النهاية لذلك الدور السابع من أدوار خروج يأجوج ومأجوج، وقد تلاشى تأثيرهم بعد ذلك، وزال سلطانهم، حيث لم تقم لهم قائمة.

واستقرتْ قبائلُ منهم في المناطق الجديدة، وأنشأوا دولاً وممالك في الهند وخراسان وتركستان وغيرها.

وقد أثَّر الإسلام في بعضهم. حيث تفاعلوا معه ودخلوا فيه. وكانوا مسلمين. وكان أول من أسْلم منهم الملك «بركة خان» حفيد جنكيز خان، وابن عم السفاح هولاكو، وقد جرت معارك عنيفة بين هولاكو وبركة، انتصر بركة المسلم على ابن عمه الكافر[٢].

---

(١) انظر «البداية والنهاية» ١٣ : ٢٢٠ ــ ٢٢٢.

(٢) المرجع السابق ١٣ : ٢٣٨ ــ ٢٤٠.

ابن الأثير ينعي الإسلام والمسلمين أمام خطرهم:

أجمع المؤرخون المسلمون على أن الخطر المغولي كان من أخطر ما واجهه المسلمون، وأنَّ الخسائر والضحايا نتيجة لذلك الغزو المغولي فاقتْ كل خسائر الأمة وضحاياها في تاريخها كله.

وقد أَشفق هؤلاء المؤرخون على الإسلام والمسلمين، وتوقعوا أن لا تقوم للمسلمين قائمة، وسجلوا إشفاقهم هذا في كتاباتهم.

ونعود للمؤرخ الشاعر الحساس ابن الأثير، لنسجل له مقطوعة تاريخية حزينة، ينعي فيها الإسلام والمسلمين.

قال في بداية تأْريخه لخروج التتر إلى بلاد الإسلام عام ٦١٧هـ.

«لقد بقيتُ عدةَ سنين مُعْرِضاً عن ذكر هذه الحادثة استعظاماً لها، كارهاً لذكرها، فأنا أقدّم إليه رِجْلاً، وأؤخر أخرى، فَمَن الذي يسهل عليه أن يكتب نعي الإسلام والمسلمين؟ ومَنَ الذي يهون عليه ذِكْر ذلك؟ فيا ليت أمي لم تلدني، وياليتني متُّ قبل حدوثها. وكنتُ نسياً منسياً.

إلا أني حثّني جماعة من الأصدقاء على تسطيرها، وأنا متوقّف، ثم رأيت أن تَرْك ذلك لا يجدي نفعاً.

فنقول: هذا الفعل يتضّمن ذكْرَ الحادثة العظمى، والمصيبة الكبرى، التي عقّت الأيام والليالي عن مثلها، عمّت الخلائق، وخصّت المسلمين، فلو قال قائل: إن العالم مذ خلق الله سبحانه وتعالى آدم، وإلى الآن، لم يُبْتَلوا بمثلها، لكان صادقاً، فإن التواريخ لم تتضمن ما يقاربها ولا ما يدانيها.

ومن أعظم ما يذكرون من الحوادث، ما فعله بختنصر ببني إسرائيل من القتل، وتخريب بيت المقدس، وما البيت المقدَّس بالنسبة إلى ما خرَّب هؤلاء

الملاعين من البلاد؟ التي كلُّ مدينة منها أضعافُ البيت المقدَّس. وما بنو إسرائيل بالنسبة إلى من قُتلوا؟ فإن أهلَ مدينة واحدة ممن قُتلوا أكثر من بني إسرائيل.

ولعل الخَلْق لا يرون مثل هذه الحادثة، إلى أن ينقرض العالم، وتفنى الدنيا، إلا يأجوج ومأجوج.

وأمّا الدّجال بإنه يُبقي على من اتبعه، ويُهلك من خالفه، وهؤلاء لم يُبقوا على أحد، بل قتلوا النِّساء والرجال والأطفال، وشقّوا بطون الحوامل، وقتلوا الأجنَّة، فإنّا لله، وإنا لله راجعون، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

لهذه الحادثة التي استطار شررُها، وعمّ ضررُها، وسارت في البلاد كالسحاب استدْبرتْه الريح، فإنّ قوماً خرجوا من أطراف الصين، فقصدوا بلاد تركستان مثل «كاشغر وبلاساغون» ثم منها إلى بلاد ما وراء النهر، مثل «سمرقند وبخارى» وغيرهما. فيملكونها، ويفعلون بأهلها ما نذكره. ثم تعْبُر طائفة منهم إلى خراسان، فَيَفْرَغون منها مُلكاً وتخريباً وقتلاً ونهباً، ثم يتجاوزونها إلى الري وهمذان، وبلد الجبل، وما فيه من البلاد، إلى حد العراق، ثم يقصدون بلاد أذربيجان وأرانية، ويخربونها ويقتلون أهلها، ولم ينجُ إلا الشَّريد، في أقل من سنة، هذا ما لم يُسمع بمثله»[1].

ويتابع ابن الأثير نعْيَه للمسلمين فيقول: «فإنّا لله وإنا إليه راجعون، نسأل الله أن ييسر للإسلام والمسلمين نصراً من عنده، فإنّ الناصرَ والمعينَ والذابَّ عن الإسلام معدوم ﴿. . . وإذا أرادَ اللَّهُ بقوْم سوءاً فلا مَرَدَّ له ﴾ وما لهم من دونه من وال﴾ فإن هؤلاء التتر إنما استقام لهم هذا الأمر لعدم المانع»[2].

(١) الكامل لابن الأثير ١٢ : ٣٥٨ ـ ٣٥٩.

(٢) المرجع السابق ١٢ : ٣٦١.

ويقرر ابنُ الأثير عِظَم الخطر بالمغول، وأنه جرى منهم ما لم يحدث من غيرهم، واتَّفق لهم ما لم يتفق لغيرهم. ويشير إلى استغراب الذين يأتون بعده مما يقرأون عن أخبار المغول:

«ولقد جرى لهؤلاء التتر ما لم يُسمع بمثله من قديم الزمان وحديثِه: طائفةٌ تَخرج من حدود الصين، لا تنقضي عليهم سنة، حتى يَصل بعضهم إلى بلاد أرمينية من هذه الناحية، ويجاوزوا العراق من ناحية همذان، وتا الله لا شك أَنَّ مَنْ يجيءُ بعدها، إذا بَعُدَ العهدُ، ؛ ويرى هذه الحادثة مسطورة، ينكرها ويستبعدها، والحقُّ بيده، فمتى استبعد ذلك، فلينظر أننا سطَّرْنا نحن ــ وكل من كتبوا التاريخ في زماننا هذا ــ في وقتٍ كلُّ مَنْ فيه يعلم هذه الحادثة، استوى في معرفتها العالم والجاهل لشهرتها.

يسَّر الله للمسلمين والإسلام مَنْ يحفظهم ويحوطهم. فلقد دُفِعوا من العدو إلى عظيم، ومن الملوك المسلمين إلى مَنْ لا تتعدى هِمَّتُهُ بطنَه وفرجَه، ولم ينل المسلمين أذى وشدة، مذ جاء النبي ﷺ إلى هذا الوقت، مثل ما دفعوا إليه الآن.

والعدوُّ الآخرَ الفرنج قد ظهروا من بلادهم في أقصى الروم، بين الغرب والشمال، ووصلوا إلى مصر، فَمَلكوا «دمياط» وأقاموا فيها. ولم يَقْدِر المسلمون على إزعاجهم عنها، ولا إخراجهم منها. وباقي ديار مصر على خطر.

فإنا لله وإنا إليه راجعون. ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم»[١].

---

(١) الكامل ١٢: ٣٧٥ ــ ٣٧٦.

رأي سيد قطب في جنكيز خان وهولاكو:

لسيد قطب رأيٌ في خروج المغول زمن جنكيز خان وهلاكو، حيث يميل إلى اعتبار ذلك من أدوار خروج يأجوج ومأجوج.

قال: «وبَعْد: فَمَنْ يأجوج ومأجوج؟ وأَيْن هم الآن؟ وماذا كان من أمرهم؟ وماذا سيكون؟.

كلُّ هذه الأسئلة تصْعب الإجابة عليها على وجْه التحقيق، فنحن لا نعرف عنهم إلا ما ورد في القرآن، وفي بعض الأثر الصحيح.

والقرآن يذْكُر في هذا الموضع ما حكاه من قول ذي القرنين: ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاء * وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾.

وهذا النص لا يحدِّد زماناً. ووعْد الله بمعنى وعْده بدكِّ السد، ربما يكون قد جاء منذ أن هجم التتار، وانساحوا في الأرض، ودمروا الممالك تدميراً.

وفي موضع آخر في سورة الأنبياء: ﴿حَتّى إذا فُتِحَتْ يَأْجوجُ وَمَأْجوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلون﴾.

وهذا النص كذلك لا يحدِّد زماناً معّيناً، لخروج يأجوج ومأجوج. فاقترابُ الوعد الحق بمعنى اقتراب الساعة، قد وقع منذ زمن الرسول ﷺ فجاء في القرآن: ﴿إِقْتَرَبَتِ السّاعَةُ وَانْشَقَّ القَمَر﴾ والزمان في الحساب الإلهي غيرُه في حساب البشر، فلقد تمرُّ بين اقتراب الساعة ووقوعها ملايين السنين أو القرون، يراها البشر طويلة مديدة، وهي عند الله ومضةٌ قصيرة.

وإذن فمِنَ الجائز أن يكون السد قد فُتِح في الفترة ما بين «اقتربت الساعة» ويومنا هذا. وتكون غارات المغول والتتار التي اجتاحت الشرق هي انسياح يأجوج ومأجوج.

وبعد أن أورد الحديث عن رؤيا رسول الله ﷺ في ردم يأجوج ومأجوج قال: «وقد كانت هذه الرؤيا منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً ونصف. وقد وقعتْ غارات التتار بعدها، ودمَّرت ممالك العرب، بتدمير الخلافة العباسية على يد هولاكو في خلافة المستعصم، آخر ملوك العباسيين، وقد يكون هذا تعبيرُ رؤيا رسول الله ﷺ وعِلْمُ ذلك عند الله. وكل ما نقوله ترجيحٌ لا يقين»[1].

يأجوج ومأجوج هم الجنس الأصفر:

ما نرجِّحه أن يأجوج ومأجوج قد تمكنوا من نقض سد ذي القرنين، والخروج منه، والانسياح في الأرض، وإفساد البلاد وتدمير المدن.

وما نرجِّحُه أن خروج المغول بقيادة جنكيز خان وهولاكو هو من أدوار خروج يأجوج ومأجوج السبعة ـ التي أوردناها ـ.

وما نرجحه أن يأجوج ومأجوج هم المغول أو التتر، الذين يقيمون الآن في منطقة منغوليا وتركستان وسينكيانج في الصين.

وما نرجحه أن يأجوج ومأجوج هم «الجنس الأصفر» المقيمون في آسيا.

يأجوج ومأجوج هم أهل الصين وكوريا ومنغوليا والتبت وتركستان وغيرها. إن الصين وحَدْها تُعتبرُ خطراً مباشراً على أوروبا وأمريكا والعرب وغيرهم، خطرٌ في المستقبل، من حيث كثرة عددهم.

فسكان الصين وحدها هم ربع العالم. فعدد سكان العالم يزيد على أربعة مليارات قليلاً، وسكان الصين يزيدون على مليار نسمة. ونسبة تكاثر الصينيّين كثيرة وسريعة.

---

(١) في ظلال القرآن ٤: ٢٢٩٣ ـ ٢٢٩٤.

ماذا سيكون من هؤلاء في المستقبل؟ وكم سيكون عددهم؟ وماذا سيفعلون في العالم عندما ينساحون في البلاد؟ وعندما ينفجرون انفجاراً سُكّانياً هائلاً عنيفاً، ويخرجون في موجات متتابعة، ويجتاحون العالم اجتياحاً عاماً؟

إن العالم يعلم هذه الحقيقة، ويُحذِّر من الخطر الصيني القادم، وقد قال امبراطور ألمانيا «هليوم» عبارةً عجيبة: «ويلٌ لأوروبا من الصين» وسماه الخطر الأصفر[1].

ويذهب بعض العلماء إلى أن «يأجوج ومأجوج» لا تعني قوماً مخصوصين، وإنما وصفٌ عامٌ ينطبق على كل قوم مفسدين مدمِّرين. يقول محمد خير رمضان «وأرى أن «يأجوج ومأجوج» لا تعني قومية معينة وجنساً خاصاً من البشر، بل إنها كلمة تُطْلَق على أقوام همجيين، شأنهم الفساد في الأرض. وقد كان لهم وجود زمن ذي القرنين، حيث مُنِعوا من إفساد الحياة على غيرهم، حينما وَضَعَ حداً لغاراتهم ببناء السَّد»[2].

ولا نوافق محمد خير رمضان على رأيه هذا، بل نرى أنها تعني قوماً مخصوصين، رجْحنا أنهم الجنس الأصفر ــ والله أعلم.

وسيخرجون قبيل قيام الساعة:

ترجيحُنا أن يأجوج ومأجوج قد خرجوا ــ عدة مرات ــ في التاريخ الماضي، لا يعني أن القوم لن يخرجوا في المستقبل.

فلقوم يأجوج ومأجوج عدةُ مرات يخرجون فيها، فقد خرجوا حتى الآن أكثر من سبع مرات، نجحوا فيها في نقض سد ذي القرنين وتدميره.

---

(١) ذو القرنين: ٣٢٧.

(٢) المرجع السابق: ٣٢٩.

والله وحده يعلم هل سيخرجون ـ قبل خروجهم الكبير الخطير قبيل قيام الساعة، ـ وكيف سيكون خروجهم!.

لكننا نؤمن بأنهم سيخرجون خروجهم الأخيرَ الكبير قبيل قيام الساعة، نؤمن بهذا ونقرره ونعتقده، لأنه ورد في صريح القرآن وصحيح الحديث.

قررتْ سورةُ الأنبياء خروجهم الأخير، في قوله تعالى: ﴿حَتَّى إذا فُتِحَتْ يَأْجوجُ وَمَأْجوجُ * وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلون * وَاقْتَرَبَ الوَعْدُ الحَقّ﴾[1].

كما قررتْ خروجهم الأخير، الأحاديثُ الصحيحة التي أوردناها، والتي بينتْ أنهم يخرجون من جهة المشرق، في أعداد كثيفة كثيرة لا يعلم عدَدها إلا الله، بحيث يمرُّ أوَّلُهم على بحيرة طبرية، ويشربون ما فيها من ماء، ويمرُّ آخرهم عليها فلا يجدون فيها ماء، فيقولون: لقد كان في هذه مرة ماء.

ويحاصرون عيسى عليه السلام والمؤمنين الذين معه في جبل الطور في سيناء، ويطول الحصار ويشتدُّ على المؤمنين، ثم يأتيهم الفرج من الله، فيرسل الدودَ على رقاب يأجوج ومأجوج، فيموتون جميعاً في لحظات، ويرسِلُ الله المطر فتسيل وديان سيناء بالماء، وتجرْف معها جثث يأجوج ومأجوج، وتأخذهم معها إلى البحر!.

وبذلك ينتهي يأجوج ومأجوج، انتهاءاً حقيقياً، ويُقْضى على فسادهم القضاءَ الأخير.

لكن هذا لن يكون إلا عند قيام الساعة.

إذن خروجُ يأجوج ومأجوج لا ينفي خروجَهم في المستقبل، فهم قد ظهروا وسيظهرون. وهم قد خرجوا، وسيخرجون، وسورةُ الكهف أشارت إلى

---

(١) سورة الأنبياء: آيات ٩٦ ـ ٩٧.

خروجهم الماضي، وسورةُ الأنبياء أشارت إلى خروجهم القادم، الخروج الكبير الخطير، الذي هو من علامات الساعة الكبرى.

إشاعات وأساطير يأجوج ومأجوج:

أورد بعضُ المؤرخين والمفسرين أخباراً عجيبة عن يأجوج ومأجوج، تحدَّثوا فيها عن أصلهم ونسبهم، وعن مناطق إقامتهم، وتحدثوا عن أوصافهم وأشكالهم وصفاتهم وأعمالهم وغير ذلك.

وهذه الأخبار والروايات أخذوها عن الإسرائيليات، ولذلك لا تعدو أن تكون خرافات وخيالات وأساطير وإشاعات.

المهم أنها لم تُؤْخَذ عن مصدر يقيني مقبول، لأنها لم تُنْقَل عن رسول الله ﷺ، ونحن لا نقبل أيّ خبر أو قول لم يردْنا عن رسول الله ﷺ.

ومن هذه الإشاعات والخرافات والأساطير: ما زَعَمَه بعضُهم من أنّ يأجوج ومأجوج هم من نسل آدم، لكن من غير حوّاء، فيكونون إخواناً لبني آدم لأب. وما نُقل أن آدم كان له امرأة غير حواء!.

ومنها ما زعَمَه بعضُهم من أنّهم من نطفة آدم، حيث نام آدم على التراب، فاحتلم، فاختلط مَنِيُّهُ بالتراب، فخُلقوا من ذلك المَنِيِّ المخلوط بالتراب.

وزعم بعضُهم أنهم أولاد يافث بن نوح، الذي توجّه بعد الطوفان نحو المشرق.

وزعم بعضهم أن يأجوج ومأجوج كانوا اثنتين وعشرين قبيلة، وأن ذا القرنين لما بنى السد جعل وراءه إحدى وعشرين قبيلة، وأدخل قبيلة منه تركها لوحدها، ولهذا سُمّوا «التُّرْك» لأنهم تُرِكوا خارجه.

وزعم بعضهم أن كل قبيلة من تلك القبائل عددها أربعمائة ألف أمة.

وأن الـرجل منهم لا يمـوت حتى يرى ألف رجـل من أولاده، كلُّهم قـد حمل السلاح.

وزعم بعضهم أنهم متباينون في الطول والقصر، فمنهم مَنْ هـو كالنَّخْلة طـولاً، ومنهم مَنْ هـو كـالأرزة من أرز لبنـان، ومنهم مَنْ طـولـه أربعـةُ أذرع، ومنهم مَنْ طولة ثلاثةُ أشبار، ومنهم مَنْ طوله شبرٌ واحـد، ومنهم مَنْ طولـه فتر واحد فقط، ومنهم مَنْ له أذنين طـويلتين كأذني الفيل، فيفترش الأولى تحتـه، ويلتحف بالثانية فوقه!.

وزعم بعضُهم أن مِنْ فسادهم وإفسادهم، أنهم لا يمرون بفيل ولا وحش ولا جمل ولا خنزير إلا أكلوه، وأنهم يأكلون مَنْ مات منهم.

وزعم بعضهم أنهم لهم مخالبُ في أظفارهم، وأن أضراسهم كأضـراس السباع، وأن لهم شعراً طويلاً يغطيّ أجسادَهم، يقيهم الحر والبرد.

وأنهم يعيشون إباحية مُشاعـة، ويتسافـدون تسافُـدَ البهائم، ولا تمـتنـع المرأة منهم من أي رجل، ولا يوجد للرجل منهم امرأة معينة.

وزعم بعضهم أن منهم مَنْ مشيـهُ مشي ذئب، ومنهم مَنْ مشيـه وثبـاً، ومنهم من لا يتكلم إلا همهمة، ومنهم مَنْ له أربعة أعين، ومنهم مَنْ له رجـل واحدة، ومنهم من لا يشرب غير الدم.

إلى غير ذلك من الإشاعات والأباطيل والخرافات والأساطير[1].

ولا نقبل أي خبر منها ولا قول، ولا نجيـز لأحد أن يـأخذهـا عنا ولا عن غيـرنا، فنحن ذكـرناهـا لنُحذِّر منهـا، حتى لا يقرأهـا أحد في الكتب القـديمة فيصدق ما فيها.

---

(١) انـظر هذه الإشـاعات والخـرافات في الـدر المنثور للسيـوطي ٥ : ٤٥٤ ــ ٤٦٤ والبدايـة والنهاية لابن كثير ٢ : ١٠٩ ــ ١١٣ وذو القرنين لمحمد خير يوسف: ٢٩٤ ــ ٣٠٨.

إن يأجوج ومأجوج من ذرية آدم، وهم بَشَر عاديون طبيعيون أسْوِياء، مثلُنا، وأنَّ أجسامَهم وأشكالَهم وأوصافَهم، قريبةٌ من أجسامنا وأشكالنا وأوصافنا.

وإنهم لا يتميزون علينا إلا بالكثرة الكثيرة، والانتشار العريض والاجتياح الشامل، والإفساد والتخريب والتدمير.

يأجوج ومأجوج من منظور البهائيين:

البهائيون فرقةٌ كافرة ضالّة مرتدّة منحرفة، يزعمون أنهم مسلمون، ولكنهم خارجون عن الإسلام، يتّبعون الضال الكافر «عبد البهاء» الذي ادعى أنه المهدي، ثم زعم أنه رسول يأتيه الوحي من الله.

وللبهائيين تفسير خاص ليأجوج ومأجوج، يخالف تفسيرَ وفهمَ الناس جميعاً، مسلمين أو كتابيّين أو ملحدين.

وفُهمهُم ليأجوج ومأجوج من أغرب تصورات الأمم، وأكثرِها ضلالاً وكذباًوافتراء،وإغراقاً في الأساطير والأباطيل.

وقد استمعتُ إلى شريط كاسيت، لأحد دعاة البهائِّيين، خصصه للكلام عن يأجوج ومأجوج، حيث تحدث فيه عنهم بلغةٍ عربية فصيحة، وأداءٍ واضح، وإلقاء بيِّن مفهوم.

وأقرر أنني تملكتني الدهشة، وسيطر عليَّ التعجب والاستغراب، مما سمعتُه من كلامهم، وهو ضلال وإفك وزور وبهتان.

نص شريط البهائيين:

ومن باب «إمتاع أسماع» القراء، وإِطْلاعهم على كلام خياليّ مثير ـ وهو باطل وكذب وزور وبهتان ـ فإنني أدوِّن فيما يلي، ما ورد في ذلك الشريط.

قال فيه صاحبه:

بسم الله الرحمن الرحيم.

الحمد لله رب العالمين. لا إله إلا الله الملك الحق المبين، محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين.

قراءة من سَفْر النور الباهر.

حقيقةُ خبر يأجوج ومأجوج.

لقد جعل الله تبارك وتعالى كتابه القرآن الكريم، مناط مراده لخلقه، حسب حكمته البالغة، وعلمه العليّ. فجمع فيه سبحانه وتعالى، كل متطلبات خلقه، مما يحتاجونه في حياتهم الدنيا والآخرة، أو ما يربطهم بالأرض، أو بالسماء. وأخبر تعالى عباده فيه بكافة أحوال وأنماط وأساليب حياة الأمم السابقة لأمة القرآن، وأبان فيه جميع ما آلوا إليه. قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾. ولما كان القرآن الكريم هو كلام وقانون الله جل وعز، كان أصحَّ وأوضحَّ الوثائق والأسانيد التي يُعتمد عليها، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيل من حكيم حميد.

ونذكرها هنا من منطلق الصدق والحق، حقيقةً من حقائقه، وخبراً من أخباره، التي أوردها الحكيم الخبير. ومَنْ أصدق من الله قيلاً؟.

وهذه الحقيقة وذلك الخبر، هو قصة يأجوج ومأجوج.

وقد ذكر الله خبرهم في موضعين من كتابه العزيز:

الموضع الأول منهما: في سورة الكهف، في قوله عز وجل: ﴿قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض * فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً﴾.

والموضع الثاني في سورة الأنبياء في قوله جل وعز: ﴿حتى إذا فُتحت يأجوج ومأجوج * وهم من كل حدب ينسلون﴾.

ولقد تخبط الكثير من العلماء في متاهات شتّى، حول هذا الخبر، الذي لا يعلم حقيقته إلا الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، وخاصة مَنْ هداهم الله تعالى، ونوّر بصيرتهم.

حتى إن بعضاً من هؤلاء العلماء، قد نسج حول هذه الحقيقة أقاصيص متنوعة، من ضرْب الخيال، لا تمت إلى الصدق بشيء. بل إن منهم من حمل ما ذكره الله تعالى عنهم في محكم كتابه على المجاز. ومنهم من ذكر أن المقصود بيأجوج ومأجوج هم الصينيون، خاصة وقد تكاثروا في زماننا هذا تكاثراً بالغاً، حتى بلغ قرابة الألف مليون نسمة.

وأمام هذا التقدم العلمي في كافة المجالات في زماننا هذا، قد تم مسح كافة بقاع الأرض جغرافياً، سواء بالأقمار الصناعية، أو بطائرات التجسس والاستكشاف، بالإضافة إلى فِرَق العلماء المستكشِفين لبقاع الأرض، لمختلف الأسباب العلمية وغيرها.

خاصة وأنه لا توجد الآن جهة ما، إلا وأقيمت فيها القواعد العسكرية والعلمية.

ولم يظهر ما يدل على وجود هؤلاء الأقوام على وجه البسيطة، مما زاد من التشكُّك في وجودهم أصلاً.

ولكن ما أخبر به الله تعالى، ورسوله صلى الله عليه وآله وصحبه وسلم، لا يمكن إلا أن يكون موجوداً بالفعل، مما لا ريب فيه البتة.

وحتى يذهب اللبس عن العقول، وتتضح الحقيقة لدى المفاهيم، **نَرُدُّ هذا الأمر إلى من أُنزل إليه الذكر ﷺ، وهو ذاتُ الولاية والنبوة المتعيِّن في**

آخر دوراته «عبد الله المهدي» عليه الصلاة والسلام، كما سبق الكلام عليه في علم الدورة. فهو مناط علوم الله سبحانه وتعالى كلها، إجمالاً وتفصيلاً، لأنه ذاتُ كمالِ جمالِ إجمالِ تفصيلِ كثرةِ كثيرِ غزيرِ العلم القديم، وهو السراج المنير الذي جعله الله تعالى رحمة للعالمين.

فأبان لنا بالعلم الحقّي الذي تنقشع أمامه سُتُر الوهم وتتلاشى إزاءه الحيرة والخيال، أن يأجوج ومأجوج حقيقة قائمة، وأنهم موجودون، خلف سدهم، كما أخبر الله تعالى، حتى يقترب الوعد الحق، بالقيامة الكبرى.

ولا ينبغي لأحد أن يضرب بفكره في مهامِهِ الوهم، أو يَحْمل أمرهم على المجاز بعد ذلك.

فقد أخبرنا حضرته عليه الصلاة والسلام، بصفته الخاتمة لدوراته العلية:

أنهم صنف من بني آدم، ولهم قصة عجيبة، بدأت قبل انتقال نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، إلى الرفيق الأعلى.

فقد مد الله حياته عليه الصلاة والسلام، بعد الطوفان، حتى تم له توزيع الجيل الثالث من ذريته، على بقاع الأرض، بأمر ربه جل وعز، كما رسم له تعالى.

ويرجع منشأ يأجوج ومأجوج، إلى أنه وُلد لباناث بن يافث بن نوح، عليهم الصلاة والسلام، توأم ذكر، كان عبارة عن طفلين، غاية في قبح الصورة، تغلب على هيأتيهما صورة الفيلة، فأقدامهم وراحات أيديهم تأخذ شكل خف الفيل، ووجه كل منهما له شكل هذا الحيوان أيضاً، كما أن فم كل منهما يتدلى على هيئة خرطوم الفيل بعض الشيء، وآذانهم تشبه آذان الفيلة.

وكان أحدهما كبير الحجم، والآخر ضئيلاً، لدرجة أنه ولد ملتصقاً ببطن أخيه كأنه حشرة.

وقد أمر نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، أن يسمي الأول منهما، وهو صاحب الجسم الضخم، يأجوج، ويسمي الآخر الضئيل الحجم، مأجوج.

ولكل من هذين الاسمين معناه الخاص به، في سريانية نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام. فهما اسمان مركبان، فكلمة «يأ» بمعنى: آكل، وكلمة «مأ» بمعنى: شارب، وكلمة «جوج» المضافة «إلى كل منهما، بمعنى: الإفك.

وعلى هذا، فمعنى كلمة «يأجوج» بتركيبها: آكل الإفك. ومعنى كلمة «مأجوج» بتركيبها: شارب الإفك.

وقد قال نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، ما معناه، حين سئل عن هؤلاء القوم: إن لهذا الخلق شأناً، يريده الخالق جل وعز فيه.

ثم ولد أيضاً لآراث بن يافث بن نوح عليهم الصلاة والسلام، توأم أنثى، كان عبارة عن طفلتين، بنفس هيأة الخلقة السالفة، فأمر نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام، أن تسمى كبيرة الحجم منهما باسم «عوج»، ومعناه: العملاقة، في سريانيته عليه الصلاة والسلام، وأن تسمى الأخرى باسم «عنج» ومعناه: القزمة.

وقد اقتضت حكمة الخالق، أن يكبر كل منهما في زمن وجيز.

فلما بلغا الحلم، زوج نبي الله نوح عليه الصلاة والسلام «عوج» هذه ليأجوج، وزوج «عنج» الأخرى لمأجوج.

ثم قد سبق أن وضحنا، أن نوحاً عليه الصلاة والسلام، قام بتوزيع

جميع ذريته على جميع بقاع الأرض، بأمر ربه، جل وعز، كما أبان له تعالى.

وحقيقة ذلك: أن الله تبارك وتعالى، كان يأمر ملكين يأتيان نوحاً عليه الصلاة والسلام، في صورة طائرين، فيأمر من حان توزيعه من ذريته على بقعة ما، من بقاع الأرض، باتباع هذين الطائرين الكريمين، حتى ينزل حيث شاء الخالق جل وعز، في الموضع المراد ليعمره.

فلما جاء وقت إرسال هذين الزوجين من التوأمين العجيبين، أُمرا باتباع هذين الطائرين، كالمعتاد في هذا الشأن، حيث كانت الأرض تطوى بأمر الله لهم، وييسر لهم الوصول إلى المكان الذي شاءه جل وعز، ليعمروه.

وقد قاد هذان الطائران الكريمان، هذين الزوجين بنوعيهما، حتى **نزلا في المكان الذي هم فيه الآن، وذرياتهم. ولا يزالون حتى يأذن الله، تبارك وتعالى.**

ويوجد مدخل هذا المكان، في موضع ما، من سهول «سيبيريا» حالياً. فلم يكن قد تكوَّن فيها هذا الجليد المتراكم عليها الآن، حيث إنها كانت مروجاً سهلية خضراء، تمتد عليها الأشجار والغابات المترامية، وذلك من أثر الطوفان الذي أكسبها الحياة، وما ترسب عنه، مما حمله من عناصر مخصبة.

وقد دخل الطائران الكريمان بيأجوج ومأجوج، فتحة كبيرة في الأرض، تنحدر إلى أدنى، في تلك البقعة، كأنها مغارة ضخمة، يبلغ ما بين صدفيها الأيمن والأيسر. قرابة الأحد عشر فرسخاً، ويرتفع سطحها الأعلى عن المنحدر حوالي نصف فرسخ.

وكان هذا المنحدر الذي نزلوا من خلاله، يؤدي إلى بطن سطح

الأرض الجوهرية المشرقة، التي كانت على ما هي عليه، قبل أن تُطحى الأرض بالتراكم، وتُدحى بالتكوير. فقد كانت قبل سريان قانون «العناصر» الذي تسبب في طحْيها ودحْيِها. بإيجاد التراكمات، التي قضت بتكويرها، فقد كانت قبل ذلك، ممتدة كصحيفة من الجوهر الشفاف، أبدع البارىء المصور سبحانه صنعها، على أبهى وأجمل صورة حقية. فقد صور عليها البحار والأنهار والجبال والأشجار والزروع متجسدة حية، بحكم قانون «الإشراق» الذي أكسبها الحياة الملكوتية الكاملة، على مقتضيات ما هي عليه من تصوير وإبداع.

وكان من يريد النزول إلى بطن السطح، فإنه ينزل من أي منحدر، لأي من جوانبها، إلى أدنى، حيث تنحدر جوانبها باتساق محكم، إلى بطن سطحها، وهذا هو الوضع الطبيعي الذي أريد لها وعليها. **وقد جعل الله سبحانه وتعالى، الذي أحسن كل شيء صنعاً، بطن سطحها، كهيئة وجهها، من إبداع صور البحار والأنهار والجبال والأشجار والزروع، فهي جنة وارفة فيحاء، تكسوها أنداء الجمال الرقراقة، التي تنبثق من حياة الإشراق الموجبة.**

وبطنها الأدنى يعتبر سماء لمن يسير على بطن سطحها. ويربط بينهما تكوين مربع في وسطها، يبلغ مئات الأميال، في كل جهة من جهاته الأربع، وتقوم الكعبة المشرفة الآن على مركز الوسط فيه.

وباطن هذا السطح، وما هو أدنى منه، ممتلىء بالحياة الموجبة الإشراقية، بأقوى مما كان عليه وجه الأرض المشرقة الجوهرية، قبل التراكم والتكوير.

ولما نزل يأجوج ومأجوج إلى بطن سطح الأرض الجوهرية المشرقة، من تلك الفتحة التي بين الصدفين، والتي تقع في أحد أطراف الأرض، من الجهة المذكورة آنفاً كما وضحنا، والتي كان قد أبقاها الحق جل وعز، لهذا

الأمر العجيب، الذي اقتضته حكمته تعالى البالغة، والذي سيتبين لنا بعد قليل، بمشيئته تعالى.

ويا لصنع الله العلي، فما أعجب ما نراه، بعد أن دلف كل من هذين الزوجين لهذه الأرض.

فقد تبدلت صورهم، من هذا القبح السابق وصفه، إلى أبهى ما يكون من الجمال الساحر الخلاب، حتى إن أجمل نساء الدنيا، لو قورنت بأية أنثى من هذين النوعين، لكانت بالنسبة لها أقبح ما تكون، وكذلك لو قارنا أي ذكر بأي ذكر منهما. وذلك بحكم قوى الإشراق الرحموتي، في موضعهم هذا، من بطن سطح الأرض الحقيقية المشرقة بنور ربها جل وعز، والذي صار بالإشراق جنة الله تعالى في أرضه.

وقد تكاثرت ذرية جمة لكل منهما، بصورة لا يحصيها إلا الخالق **جل وعز، وهم يعيشون في أرضهم هذه رغم تكاثرهم، في غاية الحب والتراحم، وعلى درجة عالية من الإخلاص في العبادة والعلم وصلة الأرحام، التي تجعل العماليق منهم، يحملون بني عمومتهم الأقزام إذا ساروا،** رغم طي الأرض بحكم إشراقها الموجب الرحموتي لمن يسير عليها. ولكنه التواد والتعاطف المنبث فيهم، بحكم حياتهم الإشراقية الموجبة.

ولقد جعل الله تبارك وتعالى أرزاقهم، تتكون من خزائن رحمته تعالى، التي بثها في قانون الإشراق الرحموتي، دون عناء أو حيلة، بل هي على حسب إرادتهم الحية كذلك. وهذا حالُ كل حياة ملكوتية، خاصة في الجنات.

ولو أننا نظرنا إليهم الآن، وكشف للناس عن حياتهم لحسدوهم، فإنهم وقد بلغوا أضعاف بني الإنسان، الذين يعيشون الآن على وجه هذه الأرض، أضعافاً خرافية لا تحصى، ولا يتخيلها عقل.

فهم يعيشون في غاية السعة والسعادة، والتقوى، فضلاً عن أنه لا توجد عندهم أمراض ولا آفات البتة، لعدم وجود أثر للعناصر التي تكون هـذه العلل والآفـات باختـلافها واختـلاطها. كمـا أنه لا وجـود لحكم الموت كـذلك في أرضهم هـذه، لإشعاعهـا بروح الحيـاة الموجبـة، حتى لو أمكن إدخـال ميت إليها، لقام صحيحاً معافى من العلل والأسقام كافة.

ولعلك تقول في نفسك: ما هذا الشطـح الشاسـع الخيال؟ وقد ذكـرهم القرآن الكريم بأنهم مفسدون في الأرض؟.

فأقول لك، ومن نفس المصدر الكريم، من فيض ذات الولاية العميم، عليه الصلاة والسلام، عائداً بك إلى البدء.

فإنه بعـد نزول الآبـاء الأول السالف ذكـرهم، إلى بطن سـطـح الأرض الجوهرية المشرقة، وبعد تكاثر ذريتهم على مـا أوضحناه سلفـاً، كانت البقـاع التي على وجه الأرض، والقريبة من هذه الفتحة، التي هي ملتقى القشرة الأرضية، المضـروبة على السـطـح والبطن السفلي لـلأرض الحقيقية الجـوهريـة، التي وصفنـاها سـابقاً، وعلى مـا سبق الكلام عليـه في الكلام على سـورة الفجـر. وكـانت تلك البقاع، قـد ملئت بـذريـة أبنـاء عمـومتهم من القبـائـل العـديـدة المتنوعة، كالتتريـة والمغوليـة، وغيرهـا من مختلف القبائـل الأولى، المؤسسة لمختلف الأجناس، التي تعمر هذه البقاع الآن، وما يتصل بها من أمم من كل الجهات المحيطة، والتي تكاثرت ذريتهم تكاثراً لا حد له.

وقـد كان يستحيـل الاقتراب لأي من هـذه القبـائـل، من مدخـل الأرض التي يقيم بهـا يأجـوج ومأجـوج، وذلك لمـا ينبعث منها من هيبـة تفتت أقوى القلوب.

ولكن بدأ خروج بعض فرق يأجوج ومأجوج، إلى خارج أرضهم.

فكانوا بمجرد خروجهم، وتعرضهم لسطوة قانون «العناصر الأثيري» الذي يحكم سطح الأرض، يعودون لأصل صورهم، بانتكاس الجمال الإشراقي فيهم، فيظهرون بصور آبائهم الأول، والتي هي على هيئة الفيلة، سواء كان العماليق منهم أو الأقزام، وبالتالي ينقلبون من الكمال الأخلاقي الذي هم عليه داخل أرضهم، إلى أسوأ ما يكونون من الغلظة والشر والشيطنة، إلى درجة رهيبة لا يتصورها عقل.

وهكذا هم، على النقيضين من تناقض قانوني «الإشراق» الذي عدَّل صورهم إلى الهيئات الملكوتية، وقانون «العناصر» الذي تعرضوا له على وجه الأرض فانتكسوا به، وقَلَبَهم إلى وحوش ضارية، وأشباح شيطانية خرافية.

وفي هذه الحالة يمكن تعرضهم للموت، إذا أمكن منهم. ولكن من الذي كان يستطيع الوقوف أو الثبات أمامهم؟ وهم على هذه القوة الخرافية والمهولة والخارقة للعادة، وتلك الطباع الشريرة التي لا تطاق ولا تحتمل؟.

فقد كانت غاراتهم التي يشنونها أعاصير جارفة، تمتد إلى نطاقات غائلة بعيدة المدى، لما أكسبتهم إياه حياتهم المشرقة، من قوى غير طبيعية، وطاقات خارقة في قطع المسافات أسرع من الطير، حتى إن فسادهم قد وصل إلى أعماق وأطراف ما يسمى بالهند والصين الآن، وكثير من البلدان البعيدة، والتي لم تكن قد تحددت أسماؤها آنذاك:

وكان لا يبقى أي شيء مهما كان، أمام زحفهم الرهيب المروع، فهم لا يتركون إنساناً ولا حيواناً، إلا أكلوه حياً، ولا زرعاً ولا شجراً إلا أكلوه أيضاً أو حطموه أو أهلكوه، حتى لو أن قوماً على جبل أو فيه، لجرفوه بهم، فأي صاعقة مدمرة هؤلاء؟ وأي هول ما يفعلونه، وأي بلاء؟.

ومع ذلك كانوا إذا عادوا إلى أرضهم، لا يذكرون ما حدث منهم، ويرجعون فوراً إلى حالهم الملكوتي الكريم، وصورهم الكمالية الإشراقية.

وبحكم علمهم واطلاعهم الإلهامي الإشراقي كانوا يقصدون بخروجهم إيصال المنافع إلى أبناء عمومتهم، وصلة أرحامهم فيهم. ولكنهم لا يعلمون أنهم يفسدون حياة هؤلاء ويدمرونها.

فقد تسببوا في القضاء على قبائل لا تحصى من أبناء عمومتهم، حتى كادت هذه البقاع وما حولها إلى مدى بعيد، تخلو من بني الإنسان.

لولا أن بعث الله تعالى ذا القرنين عليه السلام، لينقذ هؤلاء من هذا الشر البالغ الخطورة.

واعلم أن ما اكتشفه بعض العلماء في هذه البقاع وما حولها، من آثار قريبة من أجسام شبه إنسانية، تقرب من صورة الحيوان هي أصلاً لبعض هؤلاء ممن تمكنت بعض القبائل من قتلهم. وقد ظن العلماء أن هذه الأجسام لجنس من الخلق الذي عمر الأرض قبل الإنسان. وهذا خطأ بين، فإن ثلاجة «سيبيريا» تغطي المدخل المؤدي إلى بطن سطح الأرض المشرقة الجوهرية.

وهذا المدخل هو المقام عليه سد ذي القرنين، الذي أقامه بتمكين الله جل وعز.

ولعلك تتساءل عن الكيفية التي تمكن بها ذو القرنين عليه السلام، من سد ما بين الصدفين يميناً ويساراً، وما بين السدة العليا والسدة السفلى لقشرة الأرض، وهي مساحات الاتساع الذي يبلغ حوالي أحد عشر فرسخاً في نصف فرسخ. وأي كميات من زبر الحديد ومن النحاس استنفدها؟ وكم من القبائل اشتركت معه، وساعدته، في بناء هذا السد الهائل الخرافي، ثم لماذا الحديد والنحاس بشكل خاص؟.

فأقول لك بكشف من الله العليم الخبير:

إن الذين اشتركوا مع ذي القرنين عليه السلام في بناء هذا السد، من

رجال هذه القبائل، سبعة رجال فقط! ولم يشترك معه سواهم من أتباعه أو جنده، بل إنه أمر جميع القبائل والجند بالابتعاد إلى مسافة لا تصل منها أبصارهم إلى رؤية ما يفعل أو يحدث، وقد اختار سبعة رجال من أتقى رجال هذه القبائل، رغم عدم احتياجه إليهم، لتمكين الله القوي العزيز له، على حد ما أخبر الحق جل وعز به في كتابه الكريم: ﴿إنا مكنا له في الأرض * وآتيناه من كل شيء سبباً﴾. وعلى حد ما ذكره تعالى أيضاً، عن رد ذي القرنين على هؤلاء القبائل حين طلبوا جمع المال له: ﴿فهل نجعل لك خرجاً على أن تجعل بيننا وبينهم سداً؟ قال ما مكني فيه ربي خير» ولكن أشرك هؤلاء السبعة معه، لينالوا وأقوامهم مثوبة الأجر بقيامهم في الأسباب، ولإظهار أمر الولاية المختزن فيهم. ومن هنا كان اختياره لهم.

وهم، أي هؤلاء السبعة المعنيون بقوله تعالى؛ حكاية عن ذي القرنين، عليه السلام: ﴿فأعينوني بقوة * أجعل بينكم وبينهم ردماً﴾.

وقد كانت كمية زبر الحديد التي استخدمها ،تبلغ زنة سبعة أرطال فقط، وضعت في قصعة، ثم أمرهم أن يكبروا الله تعالى سبع تكبيرات، ويشعلوا النار، ثم يكبروا وينفخوا سبع مرات بسبع تكبيرات، فتم له بذلك إعداد الحديد المنصهر.

وأمر هذه الفتحة أن تلتئم بإذن الله تعالى، فالتأمت، حتى صارت كالنافذة الصغيرة. فأخذ يسويها بيديه، حسب طاقة تمكينه الرباني، حتى صارت مساحتها متراً في نصف متر، بمقاييسنا الحالية الآن. وهي في تمام الاستواء والاعتدال، ثم وضع عليها لوحاً من الحجر كان قد أعده لذلك، ثم أمر الرجال السبعة، أن يحملوا معه قصعة الحديد المنصهر، وهم يكبرون. فصبه على الحجر وعلى الشقوق التي حفرها بأطراف الفتحة، ليتلبس معها تماماً. ثم أسال كمية مماثلة من النحاس. وصبها على الحديد بنفس

الطريقة. وذلك أمر الحكمة ومقتضاها التي أعطاه الله القوي الحكيم إياها. ثم أمر الأرض بإذن ربه القدير، أن تعود إلى ما كانت عليه من الامتداد، فعادت بإذنه جل وعز.

فإذا بهذا السد قد امتد معها، وعرض بقدر الاتساع الذي كانت عليه تلك الفتحة، ولكن على صورة بديعة من الاستواء والاعتدال، والشموخ.

ثم جاء الجليد بعد ذلك بزمان، حتى صارت على ما هي عليه الآن.

فاعلم أن الحديد وظيفته البأس الشديد، وهي خاصية فطرها البارىء جل وعز فيه، قال سبحانه وتعالى: ﴿وأنزلنا الحديد فيه بأس شديد * ومنافع للناس﴾ فإذا انعكست عليه أشعة الإشراق من داخل الأرض المشرقة، بعثت فيه حياة موجبة، تجعل له أشعة من البأس، تتخلل الحجر الذي هو أدنى منه إلى مسافة فرسخ. وتلك هي الحكمة من وضع الحجر قبل الحديد، فإن المجال الإشراقي الموجب، والذي لا يقبل الأشياء الطبيعية أياً كانت، لأنها ليست من الجوهر الحقيّ الحي، إلا إذا وضعت فيه بإذن الله تعالى فإن ذلك المجال الإشراقي قد أكسب الحجر جوهرية الأرض الحية، فشحن بالحياة الموجبة، فبث بالتالي روح تلك الحياة، في الحديد الذي يعلوه ليجعل البأس منه إلى الداخل، بالقدر المراد على مقتضى الحكمة. وذلك لأن طبيعة الجواهر المشرقة بروح الحياة الموجبة، تجعلها تتقبل الإرادة المخاطبة لها.

ومن هنا بث في الحجر، ؛ مراد ذي القرنين، من انعكاس بأس الحديد إلى الداخل، بمقتضى ما علمه الحكيم العليم جل وعز إياه.

وعلى هذا فإن رطلاً واحداً من الحديد، إذا تعرض لمجال إشراقي، انبعث منه مجال البأس الشديد، إلى مسافة فرسخ مكعب، فالأرطال السبعة من الحديد ينبعث منها مجال من البأس الشديد، يبلغ سبعة فراسخ مكعبة، إلى داخل الأرض المشرقة.

فـإذا نظرت إلى الأحـد عشر فـرسخـاً في نصف فـرسـخ، وهي اتسـاع الفتحة الأصلية، عرفت أية طـاقة مجسـدة من بأس الحـديد، مـوزعة بـإحكام على أبعاد هذه الفتحة بمدى فرسـخ واحد، تدفـع من يحاول ارتقـاء المرتفـع المؤدي من الـداخل إلى الخـارج، حتى لا يستطيـع أحـد أن يظهـره أو يقترب منه. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه * وما استطاعوا له نقباً﴾.

فهم ما يكادون يقتربون من مجال بأس الحديد، حتى يجـدوا مطراً من السهــام الـدقيقــة الثقيلة، يحـول بينهم وبين ارتقــاء المــرتفـع المؤدي إلى المخرج.

ثم ينعكس فيهم سر البأس، فيقعون في بعضهم بعضاً ضـرباً وتنكيـلاً. دون أن يصاب أحدمنهم ،لامتناع الإصابة والعلل والموت، كما ذكرنا.

ولكن بحكم مــا بينهم من مـودة وتعــاطف، يؤذي نفـوسهم أن يفعلوا ببعضهم ما يفعلونه، عند اقترابهم من هذا المجال.

ولـذلك نـراهم يقيمـون الحـراسـات على مـدى منـه، حتى لا تخـطىء جماعة منهم في الاقتراب منه، فتصيبهم هذه اللعنة العجيبة الصورة.

أمـا النحاس الـذي أفرغـه ذو القرنين عليـه السلام، فـوق الحـديـد من الخارج، فالغاية منه استشفاف روح الإشراق الممزوجة بالبأس، حتى يتفاعل النحـاس فيكون طـاقة مشعـة صـاعقـة، لمن يحـاول العبث بجسم السـد من الخارج لو وصل إليه.

وكـان هنـاك جـزء بـاق من هـذا السـد ظـاهـر على وجـه الأرض، إلى ما يقرب من ثلاثمائة عام، ثم تم اختفاؤه تحت جبال الجليد في سيبيريا، حتى لا يتم اكتشافه، بوسائل الطيران، وغير ذلك، مما قدر أن يصل إليـه الإنسان، وذلك رحمة من الله تعالى بخلقه.

ثم إن هذا السد، مع بساطة ما هو مبني به من حديد ونحاس، إلا أنه يبلغ من الصلابة قوة هائلة، لا تقدَّر ولا تُفل، حتى لو فجرت فيه ألف قنبلة نووية ما كسرت منه بوصة واحدة! وكيف، وقد بني بتمكين القوي المتين، جل وعز.

ثم إذا نظرنا إلى الحكمة التي أكسبت عناصره هذه القوة، نجد أنها من حياة قانون «الإشراق» الموجبة، التي تستمدها تلك العناصر من باطن الأرض الجوهرية المشرقة.

ثم إن ذا القرنين عليه السلام، لم يبنه إلا بالتمكين الذي أعطاه الله إياه، عن علمه تعالى وقدرته، فكيف لا تخرق العادات أمامه.

وسيظل هذا السد هكذا على حاله، حتى يقضي الله العليم بدكه عند اقتراب وعده الحق، قال سبحانه وتعالى في سورة الكهف: ﴿قال: هذا رحمة من ربي * فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء * وكان وعد ربي حقاً﴾.

ولكي يثلج صدرك ويستكين، ويستنير عقلك ويستبين، أزيدك إيضاحاً، من فيض خزانة العلم اللدني، كما أخبر الصادق الأمين ﷺ المتعين في آخر دوراته العليا «عبد الله المهدي» عليه الصلاة والسلام كما تقدم في الشرح المبين.

فأقول لك: **إن يأجوج ومأجوج لا يخرجون من خلف سدهم هذا إلا بإذن الله تعالى، عند اقتراب وعده الحق، بالقيامة الكبرى،** كما أخبر سبحانه في سورة الكهف، في قوله الكريم: ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء * وكان وعد ربي حقاً﴾. وفي سورة الأنبياء في قوله تعالى: ﴿حتى إذا فتحت يأجوج ومأجوج * وهم من كل حدب ينسلون * واقترب الوعد الحق * فإذا هي شاخصة أبصار الذين كفروا * يا ويلنا قد كنا في غفلة من هذا * بل كنا ظالمين﴾.

سيجيء وعد الله الحق حتماً، إن الله لا يخلف الميعاد.

ولكن بعد انتهاء مدة حكم الإمام الأعظم «عبد الله المهدي» عليه الصلاة والسلام، والتي تبدأ بعدها فتنة «المسيح الدجال» على ما جاء في الكلام على سورة الفجر.

فعندما يبدأ انسلاخ هذا اللعين من آيات ربه، وتنكشف عنه هيئة جنة «إرم ذات العماد» النورانية، ويخلد إلى الأرض لغلبة شقوته كما قال الله جل وعز، في سورة الأعراف: ﴿واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا * فانسلخ منها، فأتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها * ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب * إن تحمل عليه يلهث * أو تتركه يلهث * ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا * فاقصص القصص لعلهم يتفكرون﴾.

والأرض آنئذ في حال إشراق تام بنور ربها، دون كثافات عليها البتة، إلا ما هو مضروب على بطنها من حاجز يمنع خروج يأجوج ومأجوج.

وبإخلاد المسيح الدجال اللعين إليها، يحجب كل ما يقع عليه بصره فوقها، فيغطي سطحها بحجاب من رماد مائل إلى السواد، فيحتجب بذلك ما عليها من صور مجسمة من بحار وأنهار وزروع وأشجار، ويتلاشى تجسيمها المشرق الإيجابي الحي.

ثم تتداعى كل قصوره ومنازله وأنهاره بجنات «إرم» السبع، إلى الأرض، منطوية في النار المقدسة، التي قال عنها الحق جل وعز، في سورة النمل ﴿أن بورك من في النار ومن حولها * وسبحان الله رب العالمين﴾ وهي نار مباركة لا تحرق أبداً، وإن كانت عظيمة الهيأة، مهولة الصفة، لأنها تتسع بقدر ما تحويه من منشآت.

وعلى إثر ذلك يقوم هذا اللعين الآفك، بإنشاء مصنوعاته الموهومة فوق ذلك الحجاب المضروب على وجه الأرض، بمعونة الشيطان وجنوده، وفيها من الأنهار والمنازل والملاعب، ما يعجز عن وصفه البيان. وذلك بواقع تمكينه الظلماني.

وتنتهي فتنته لعنة الله عليه، على يد نبي الله «عيسى» عليه الصلاة والسلام، الذي يصرعه بالحربة الروحانية، لتأخذه ملائكة العذاب إلى النار، لأن حكم الموت متوقف منذ قيام الساعة، حتى يوم القيامة الكبرى.

ثم يأمر نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، النار المقدسة أن ترتفع إلى السماء بما تحويه من قصور ومنازل «إرم» فترتفع بها وبمن فيها ممن أُعطوا الشجاعة على اقتحامها، حين خوفوا بها، وهؤلاء هم الذين يعودون إلى السماء فقط.

أما نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام، وخلفاء الإمام الأعظم عليه الصلاة والسلام، ومَن خلفهم من أمم وأقوام، فيوحى إليهم أن ينحازوا إلى بيت المقدس وإلى المسجد الحرام، وهما في هيئتيهما الجوهرية المشرقة، وإلى المدينة المنورة بحدودها الأصلية، التي كانت عليها، زمن رسول الله ﷺ، وهي في صورتها التي حولها الحق إليها من الجوهر والإشراق، وذلك بإشراق الأرض بنور ربها جل وعز، بعد قيام الساعة. وهذه البقاع قد حفظها الله تعالى من دخول الدجال، وهي محفوظة أيضاً من دخول يأجوج ومأجوج.

ومن هنا كان سر وحي الله لنبيه عيسى عليه السلام، أن ينحاز ومن معه من أمم، إلى تلك المواضع المكرمة المقدسة، وذلك لاقتراب وعد الله الحق، بخروج يأجوج ومأجوج، ووقتئذ يسقط كل ما هو محيط ببطن الأرض من كثافات كانت تمنعهم، فينسلون من جهات الأرض الأربع، تحقيقاً لما

وعـد به الحق جـل وعز: ﴿حتى إذا فتحت يـأجوج ومـأجـوج * وهم من كـل حدب ينسلون﴾.

فيخرجون سيـولاً هائلة، تمـلأ سواد الأرض، وتعـود لهم صور آبـائهم الأُول، فتبرز قبـح خلقتهم، وتظهر صورهم الوحشية البشعة، ينتشرون بسوء طباعهم، وغلظة وفظاظـة جبلتهم المنتكسة، بخـروجهم من المجال المشـرق إلى المجال المضاد، من أثر ما صنعه الدجال من فتن على وجه الأرض.

فما يتركـون **شيئاً ممـا صنعه الـدجال من إفـك، على وجه الأرض، إلا أكلوه، وشربوا مـا صنعه من أنهـار، وبذلـك تتحقق فيهم تسمية نبي الله نـوح عليـه الصلاة والسـلام بهذين الاسمين، حيث إن كلمـة يأجـوج في سريـانيتـه بمعنى «آكـل الإفـك» وكلمـة «مـأجـوج» بمعنى «شـارب الإفـك» كمـا تقـدم إيضاحه، وها قد تم لهم ذلك.**

ثم تفر الشياطين من هـذه المنشآت الإفكيـة التي التهمها وشـربها أقـوام يـأجوج ومـأجوج إلى خـارج الأرض، تهـوي في الآفـاق المحيطة بهـا، وعلى رأسهم «إبليس الأكبر» ويظلون يهوون هكذا في هذا الفراغ السحيق، إلى يوم القيـامة الكبـرى، فليس لهم مكان على الأرض بعـد ذلك، تحقيقـاً لقـول الله جل وعز: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء * فتخطفه الطير * أو تهوي به الريـح في مكان سحيق﴾.

وأما ما سيكون من ضلال بعـد مدة حكم نبـي الله عيسى عليـه السلام، إلى يـوم القيامـة الكبرى، إنمـا هـو من النـاس، بحكم مـا اكتسبـوه من قـوى ملكوتية، انتكست فيهم بهوى أنفسهم.

ثم بعد أن تطهر الأرض من كل ما صنعه الدجال من إفك، وقد التهمـه وشـربه قـوم يأجـوج ومأجـوج، تتنـزل طيـور من سجيـل، تقـذفهم بحجـارة مسومة، فيصرعون جميعـاً، ثم تمطر السمـاء عليهم مطراً يكتسـح أجسـادهم

إلى خارج الأرض، حيث تتلقفهم طيور سوداء ضخمة الأحجام والأجنحة وبذلك يتحقق قول الله جل وعز: ﴿ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء * فتخطفه الطير * أو تهوي به الريح في مكان سحيق﴾.

فالشياطين هي التي تهوي بها الريح في مكان سحيق، لأنها لا مكان لها على الأرض آنئذ، كما تقدم تبيانه. وأما الذين تتخطفهم الطير فهم هؤلاء أي قوم يأجوج ومأجوج، لما علق بهم من إفك الدجال اللعين، الذي أكلوه وشربوه، حيث قد صاروا أوعية له، فتذهب بهم إلى النار الكبرى، فيلبثون فيها أحقاباً لا تحصى. وهم آخر من يخرج من النار، وهم فيها غير معذبين، ولكنهم وسيلة من وسائل تعذيب أهل النار. وفي نفس الوقت يتعدل تركيبهم الذري، دون انعكاس الآلام في ذواتهم النفسية، لأنهم معذورون في أصل خلقتهم.

وبانقشاع أجسامهم من على سطح الأرض بالمطر الذي جرفهم كما أسلفنا بيانه، يجرف هذا المطر أيضاً، الحجاب الرمادي الذي ضرب عليها، ثم يعود للأرض حال إشراقها وحياتها الملكوتية، ويظلها السلام والعدل والوئام، تحت حكم نبي الله عيسى عليه الصلاة والسلام وأتباعه. وتتحقق آية الإنجيل الحقيقي الكريم: «المجد لله في الأعالي، وعلى الأرض السلام، وبالناس المسرة».

وتظل في أمنها هذا، حتى يرتفع نبي الله عيسى عليه السلام إلى الرفيق الأعلى، ويتبعه الخلفاء عليهم الصلاة والسلام، وينتكس الناس بعد ذلك انتكاساً مفزعاً مروعاً، على حد ما أخبر به الحق جل وعز، في ذكره الحكيم: ﴿وتركنا بعضهم يومئذ يموج في بعض﴾.

ثم ما يلبث الحال، حتى تقوم القيامة الكبرى، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾.

وبهذا البيان الحقي الواضح، نكون قد أمطنا اللثام، عن خبر يأجوج ومأجوج، بما حققه لنا وأجلاه، خير وسيد عباد الله، خليله وحبيبه ومصطفاه، الإمام الأعظم الختام «عبد الله المهدي» عليه الصلاة والسلام.

وهذا ماستثبته الأيام عن قريب، بإذن الله تعالى ومشيئته.

ونسأل الله تعالى أن يجعلنا وإياكم من المصدقين المسلّمين، لننال أجر الفوز والبر، ونحظى بالمثوبةوالخير،ونكون من الغانمين، آمين.

تعقيب موجز على هذه الأباطيل:

أورْدنا هذا الكلام الضال الباطل ــ على طوله ــ كاملاً، وحرصْنا على ذكْره حرفياً، لنقدم للقراء الكرام صورة من تصورات الفرق الضالة، وتفسيرات المذاهب المنحرفة، وتلاعبهم بكتاب الله سبحانه، وتحريفهم لمعانيه ودلالاته.

ونلاحظ على هذا الهراء والزيف عدة أمور. منها:

١ ــ إنه لا يقوم على مصدر صحيح، من أحاديث رسول الله ﷺ، وإنما هو افتراض وادعاء، يفتقد الدليل والحجة والبرهان.

٢ ــ إنه خوضٌ في عالم الغيب بدون وسيلة صائبة، ولا دليل مقبول، ولا منطق عقلي سليم. وعالمُ الغيب وأحداثُه وحقائقه لا تؤخَذ إلا من كتاب الله، أو ما صح من حديث رسول الله ﷺ.

٣ ــ إن هذا الكاذِب الملفِّق المفترَي المدَّعي، قد أطلق لخياله العنان، فسار، وساح، وتخيّل عوالم عجيبة تحت الأرض، ولها حياة خاصة، هي أقوام يأجوج ومأجوج، والصورة التي عرضها عليها، لا توجد في عالم الواقع المادي، ولا وجود لها إلا في خيال صاحبها، وفي خيال من يصدقُه.

٤ ــ ولعل هذا التحريف والإفك والافتراء، يدفعنا إلى زيادة اليقظة

والحذر، تجاه حقـائق القرآن ومعـانيه ومفـاهيمه. واستمـرار الدعـوة إلى عدم تفسيره إلا بالحق والعلم.

ولا نجيز لأحد أن يورد مِنْ كلامنـا مصدِّقـاً له، مؤمِنـاً به، بـل يورده من باب التحذير والتنبيه!.

مـع آيات القصة

الرسول عليه السلام يتلو من قصة ذي القرنين :

تبـدأ آيـات قصـة ذي القـرنين بـالسؤال الـذي وجهـه المشـركـون إلى رسول الله ﷺ. وهو السؤال الـذي لقَّنه اليهـودُ للمشركين ليسـألوه عنـه، حيث قالوا لهم: «اسألوه عن رجل طواف، طاف المشرق والمغرب، ما قصتـه؟ كما سبق أن أوردناه.

تقول الآية: ﴿ويسألونك عن ذي القرنين﴾.

الجواب: ﴿قل: سأتلو عليكم منه ذكراً﴾.

وعنـدما ننـظر في هذا الجـواب، فـإننـا نستخلص منـه بعض الـدروس واللفتات، والتوجيهات والإيحاءات منها:

١ ــ بداية الجواب بكلمة «قل» وهي التي يسميها علماء التفسير: «قل التلقينية» بمعنى أن الذكْـر والقصة ليست من عنـد رسول الله ﷺ، وإنمـا هي تلقين من الله سبحانه وتعالى، لرسوله عليه الصلاة والسلام.

والتعبيـر بقل التلقينيـة يرشـدنا إلى أن الـوحي من عند الله، وأنـه تلقين للرسول عليه السلام.

ويصرحُ الرسـول ــ الممتحَن ــ عليه الصـلاة والسلام، بهـذا التصريـح

لسائليه وممتحِنيه، ويُبين لهم بأن الجواب ليس من عنده، وإنما هو من عند الله، وذلك لينفي عن نفسه أيَّ جهد في الجواب، وليعترف بأنه مبلِّغ لكلام الله سبحانه.

ونلحظ رعايةَ الله سبحانه لرسوله ﷺ، ونصْرَه له، وتلقينَه الحجة، وتقديمَ الجواب له، فهو يُسأل عن ذي القرنين، ويخبره الله سبحانه بالجواب.

٢ ـ ما معنى أن يتلوَ الرسول عليه السلام ذكْرَ ذي القرنين؟

إنه يعني ـ بالإضافة إلى ما ذكرناه ـ أن كلامَ الرسول عليه السلام عنه هو الحق والصدق، وأن الأمر كما أخبر رسول الله عليه الصلاة والسلام، لأن الله أخبره بذلك.

وإنه يعني أن نتقبل هذا البيانَ الصادق عن ذي القرنين، وأن نأخذه، وأن نؤمن بأنه حدث فعلاً، وأن لا نحاكم هذا البيان النبوي إلى مصادر أخرى، وأن لا نطلب منها تصحيحَ هذا البيان أو تصويبه أو التعقيب عليه.

كما يعني أن نكتفيَ بهذا البيان النبوي الصادق الثابت، وأن يَسَعنا ما قدمه لنا من ذكر أحداث القصة، بمعنى أن لا نطلب زيادة على ذلك من مصادر أخرى غيرِ يقينية، وأن لا نذهب إلى الإسرائيليات، وروايات السابقين وأخبارِهم وأقوالِهم، لنأخذ منها تفصيلات لأحداث القصة:

٣ ـ ونقف لحظة أمام كلمة «منه».

إنها «من» التبعيضية.

أي أنّ الرسول ﷺ، لن يقدِّم لهم كل تفصيلات وأحداث قصة ذي القرنين، وإنما سيقدم أهمَّ تلك التفصيلات، والأحداث، سيقدِّم بعضها.

وكلمة «منه» تشير إلى منهج القرآن في عرْض أحداث قصصه، وهو أنه

لا يعرضها مفصَّلة تفصيلاً دقيقاً، ولا يقدِّمها مرتبة ترتيباً على أساس وقوعها، وما فيه من تفصيل واستيعاب.

إن التي تعني القرآنَ، هي مواقفُ العبرة والعظة، المواقفُ التي يأخذ منها المستمعون الدروس والدلالات. ولذلك يَعرض من القصة هذه المواقف فقط، يعرض من القصة ما يحقِّق له أهدافه التي يبغيها منها، ويعرض من القصة المشاهد واللقطات والمقاطع التي فيها فائدة أو علم أو عبرة، ويُغفل ـ عامداً ـ التفصيلاتِ والأحداث والأخبار التي لا تحقق فائدة أو علماً أو عبرة.

ولذلك نؤمِن بأن ما عرضه القرآن، إنما هو أهم مشاهد ولقطات القصة، وهذا هو بعض مشاهدها لا كلُّها.

ونقرر بأن ما أغفله القرآن من تلك التفصيلات، لا فائدة منه أوّلاً، ولا سبيل للوقوف عليه كما حدث فعلاً ثانياً، ولذلك لا يجوز أن نطلب هذا من المصادر والمراجع الأخرى، وعلينا أن نكتفيَ بما عرضه القرآن من أهم أحداث السابقين، وأن نتعامل مع ما عرضه كما تعامل الصحابة الكرام، عندما اكتفوا به.

تمكين الله لذي القرنين:

أخبر القرآن أن الله مكّن لذي القرنين: ﴿إِنَّا مَكَّنَا لَهُ في الأَرْضِ﴾.

والتمكين مأخوذ من المكان والمكانة. أي تملَّك المكان، وأصبح ذا مكانة.

ولقد مكّن الله لذي القرنين في الأرض، بأن هيأ له أسباب النصر والنجاح.

واعترف ذو القرنين بتمكين الله له، وأنّ ما يملكه من القوة والنصر، إنما

هو بتمكين الله. فقال للقوم الذين وجدهم في رحلته الشمالية بين السدين: «ما مكني فيه ربي خير».

ونلاحظ أن الفعل الماضي «مكّن» في قصة ذي القرنين، قد ذُكر مرتين: ﴿إنّا مكنا له في الأرض﴾ و ﴿ما مكني فيه ربي خير﴾.

وعندما نمعن النظر في هذا الفعل في الجملتين، فسنجد فيه بعض اللفتات:

١ ـ إن الفاعل في الفعلين هو الله. حيث أسند الفعل «مكن» إلى الله. وهذا هو ما يقرره الإيمان، وتوحي به العقيدة، من أن الله وحده ـ سبحانه ـ هو الفاعل الحقيقي لكل ما يقع في هذا الكون. إن الله هو الذي يُقَدِّر الحدث ويشاؤه ويريده، وما الناس في كسبهم وسعيهم وعملهم إلا أسباب ظاهرية خارجية، أما المسبِّب والمقدِّر فهو الله وحده ـ سبحانه ـ.

٣ ـ إن ذا القرنين في الجملتين جاء مفعولاً به. حيث تعدى الفعل إليه في الجملة الأولى بحرف الجر « مكنا له » بينما تعدّى إليه مباشرةً في الجملة الثانية « مكني ».

٤ ـ ونتساءل عن الحكمة من تعدي الفعل إلى المفعول في الجملة الأولى بحرف الجر «مكنا له» بينما تعدى إليه مباشرة في الجملة الثانية «مكني».

إن الفعل في الجملة الأولى أضعفُ منه في الجملة الثانية! والذي جعله أضعف هو السياق الذي ورد فيه. وكم من مرة نرى فيها السياق القرآني ذا أثر في قوة الفعل أو ضعفه وفي حركته وصياغته!.

فعل «مكّن» في الجملة الأولى ضعيف، ولذلك لم يتمكن من التعدية إلى المفعول به بنفسه، ولا الوصول إليه بنفسه، لذلك استعان بحرف الجر «اللام» ليوصله إليه، فتعدّى إليه بواسطتها.

وسببُ ضعْف الفعل في الجملة الأولى، أنه ورد في بداية إيراد قصة ذي القرنين، وتحدَّث عن بداية أمره. ومعروف أن الأمر عند بدايته يكون أضعف منه عند نهايته. ولهذا الضعف احتاج إلى اللام لتعديه إلى المفعول به.

أما في الجملة الثانية «ما مكني فيه ربي خير» فإن فعل «مكن» قوي، ولذلك تعدى إلى المفعول به بنفسه، وَنَصَبَه مباشرة. والسياق هو الذي منحه القوة، فهو ـ أولاً ـ يتحدث عن ذي القرنين بعدما ظهر وتمكن وسيطر وانتصر، وهو ـ ثانياً ـ ورد في سياق قوة ذي القرنين في بناء السد عند أولئك القوم.

وهذا الفرق بين التمكين في الجملتين، قريب من الفرق بينه في جملتين مشابهتين، في قوله سبحانه: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنا مِنْ قَبْلِهِمْ مِنْ قَرْن * مَكَّنَّاهُمْ في الأَرْض * ما لَمْ نُمَكِّنْ لَكُمْ...﴾[1].

التمكين في القرآن:

تقودنا وقفتُنا مع «التمكين» في قصة ذي القرنين إلى النظر في «التمكين» في آيات القرآن.

ورد فعل «مكَّن. يمكِّن» ثلاث عشرة مرة في القرآن.

مكنّا. مكنّاكم. مكنّاهم. مكّني. نمكِّن. ولَيمكِّنَنّ.

وعندما ننظر في هذا الفعل في المرات الثلاث عشرة كلِّها، نرى أنه مسنَدٌ إلى الله وحده. وأن الفاعل له هو الله. أما المفعول به، فهو الذي يمكن الله له، أو الذين يمكن الله لهم.

(١) سورة الأنعام: آية ٦.

ونخرج من وقفتنا تلك بهذه القاعدة البيانية:

فاعل «مكن. يمكن» في القرآن هو الله. والتمكين في القرآن لا يُنسب إلا إلى الله، ولا يُسند إلا إليه.

وهذه القاعدة البيانية تقودنا إلى قاعدةٍ إيمانية اعتقادية، ذاتِ بعد تاريخي حضاري.

إن الله هو الذي يمكّن للقادة والزعماء والحكام، وهو الذي يقدِّر لهم الملك والظهور والسيادة، وإنهم لا يملكون ويسودون لقوة ظاهرية فيهم، أو قدرة ذاتية لهم، وإنما هم سِتار لقدر الله سبحانه.

وإن الله هو الذي يمكن للأقوام والأمم والشعوب والدول، وهو الذي يقدِّر لهذه الأمة أن تتغلب وتنتصر، وهذه الدولة أن تسود وتظهر، وهذا الشعب أن يسيطر ويتمكن.

وإن الله سبحانه هو الذي يُقدر الأحداث، ويشاء الوقائع، ويدير الأمور، وإنه لا يحدث شيء في أي مكان، إلا بإذن الله سبحانه وتقديره وإرادته.

هذه قاعدة إيمانية، وحقيقة قرآنية، قررتها آيات كثيرة في القرآن.

وهذه الحقيقة قد يغفل عنها بعض الناس، وهم يبحثون أسبابَ قيام الدول، وعواملَ اندحارها، وينسونها وهم يدرسون تملُّك الزعماء، وحكم القادة، وهم يتابعون الصراع على السلطة والحكم، ويغفلون عنها وينسونها وهم يَعْرضون ــ أو يسمعون ــ أحداث العالم السياسية والعسكرية والقتالية والحربية.

إنه لا يقع حدث إلا بإذن الله. ولا يحصل شيء إلا بإذن الله، ولا يزول حاكم إلا بإذن الله، ولا يملك آخر إلا بإذن الله، لا ينتصر جيش إلا بإذن الله،

ولا تسود أمة إلا بـإذن الله، ولا تنهض دولة إلا بـإذن الله، ولا تنشأ حضـارة إلا بإذن الله.

﴿إنا مكنا له في الأرض * وآتيناه من كل شيء سبباً﴾.

مظاهر تمكين الله لذي القرنين:

أشار القرآن إلى تمكين الله لذي القرنين، وعَـرَض مظاهـر هذا التمكين بعبارة عامة موجزة، فقال: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾.

والسبب هـو الوسيلة التي يحقِّق بهـا التمكين، والطريق الـذي يصل بـه للتمكين، السبب هـو المـظاهـر المـاديــة التي تحقق التمكين، سـواء كـانت اقتصادية أو سياسية أو عسكرية أو حربية أو صناعية أو حضارية.

أعطى الله ذا القرنين أسبابَ الحكم والفتـح، وأسبابَ البنـاء والعمران. وأسبابَ السلطان والمتاع... وغير ذلك.

وقـد فسَّر ابن عبـاس وتلاميـذه هذا السبب بـأنه العلم. أي آتينـاه علماً تمكن به من الفتـح والنصر والسيادة.

وقال قتادة: السبب هو منازل الأرض وأعلامها.

وقال عبد الرحمن بن زيد: السبب هو تعليم الألسنة، فكان لا يغزو قوماً إلا كلمهم بلسانهم.

ولكن بعض الإخباريين ورواة الإسرائيليات، يأبون إلا أن يوردوا أساطير وخرافات وإسرائيليات، عن مظاهر هذا التمكين، وبيان أسبابه.

وقد أورد الإمام ابن كثير حادثةً لطيفة، تتضمن حواراً بين معاوية بن أبـي سفيان رضي الله عنه وبين كعب الأحبار، وعلَّق عليها ابن كثير تعليقاً رائعاً.

«عن سعيد بن أبي هلال أن معاوية بن أبي سفيان، قال لكعب الأحبار: أنت تقول: إن ذا القرنين كان يربط خيله بالثريّا؟.

فقال له كعب: إن كنتُ قلتُ ذلك، فإن الله يقول: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾.

وعلق ابن كثير على هذا الحوار بقوله:

«وهذا الذي أنكره معاوية ــ رضي الله عنه ــ هو الصواب، والحق مع معاوية في ذلك الإنكار. فإن معاوية كان يقول عن كعب الأحبار: «إن كنا لَنَبْلَو عليه الكذب» يعني فيما ينقله، لا أنه كان يتعمَّد نقلَ ما ليس في صحفه، ولكن الشأن في صحفه أنها من الإسرائيليات، التي غالُبها مبدَّل محرَّف مصحَّف مختَلَق. ولا حاجة لنا مع خبر الله تعالى ورسوله ﷺ، إلى شيء من ذلك بالكلية، فإنه دخل منها على الناس شر كثير وفساد عريض.

وتأوُيل كعب الأحبار قول الله: ﴿وآتيناه من كل شيء سبباً﴾ واستشهاده في ذلك على ما يجده في صحفه، من أنه كان يربط خيله بالثريا، غير صحيح ولا مطابق، فإنه لا سبيل للبشر إلى شيء من ذلك، ولا إلى الترقيِّ في أسباب السموات، وقد قال الله في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْء﴾ أي مما يُـؤْتىٰ مثلُها من الملوك.

وهكذا ذو القرنين. يسَّر الله له الأسباب. أي الطرق والوسائل إلى فتح الأقاليم والرّساتيق والبلاد والأراضي، وكسْر الأعداء، وكبْت ملوك الأرض، وإذلال أهل الشرك. وقد أُوتيَ من كل شيء مما يحتاج إليه مثله سبباً. والله أعلم»[1].

---

(١) تفسير ابن كثير ٣: ١٠١.

أخْذ ذي القرنين بالأسباب:

مكَّن الله لذي القرنين في الأرض، وهيَّأ له الأسباب والوسائل لتحقيق التمكين والانتصار.

ويخبر القرآن أن ذا القرنين قد استفاد مما منحه الله من مظاهر ووسائل وطرق وأسباب، وأنه قد أحسن استغلالها وتوظيفهَا والتعاملَ معها.

قال عنه: ﴿فَأَتْبَعَ سَبَباً﴾ أي أخذ بتلك الأسباب والوسائل.

وهذا يدل على فطنة ذي القرنين وذكائه.

كثيرون الذين يمنحهم الله ما يمنحهم من مظاهر وأسباب ووسائل، نحو النجاح والتمكين والفوز، وهذه الأسباب منها ما هو مادي حسي، ومنها ما هو معنوي مثل الفطنة والذكاء، والصحة والقوة، والشخصية وحسن المعاشرة، والوقت والعمر، وغير ذلك.

كثيرون الذين تُتاح لهم أسباب النجاح والتمكين، لكنهم لا يستفيدون كلُّهم مما منح الله لهم، بل معظمهم يبدِّدون ما منح الله لهم ويضيعونه، ولا ينتهزون الفرصة، ولا يغتنمون المناسبة، ولا يستغِلّون الظرف والوقت. وبذلك تضيع المناسبة الممكنة.

قليل هم الذين يستفيدون مما منح الله لهم، ويُحسنون التعامل معه واستغلاله، هؤلاء هم الأذكياء العقلاء.

ولقد كان ذو القرنين من هذا القليل، حيث أَتْبَع سبباً.

وقد وردتْ هذه العبارة ثلاثَ مرات «أتبع سبباً» وذلك لأنه قام بثلاث رحلات حربية جهادية: واحدة للمغرب، والثانية للمشرق، والثالثة للشمال.

﴿فأتبع سبباً * حتى إذا بلغ مغرب الشمس﴾.

﴿ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ مطلع الشمس﴾.

﴿ثم أتبع سبباً * حتى إذا بلغ بين السدين﴾.

غروب الشمس في عين حمئة:

أخبر القرآن عن رحلة ذي القرنين الأولى بقوله: ﴿حَتّى إذا بَلَغَ مَغْرِبَ الشَّمْس * وَجَدَها تَغْرُب في عَيْنٍ حَمِئَة﴾.

وكانت هذه الرحلة الجهادية نحو الغرب. كما رجحنا في كلامنا السابق عن ذي القرنين أنه «كورش الفارسي». وأن هذه الحملة كانت ضد مملكة «ليديا» اليونانية؛ وأنه احتلّ عاصمتها «سارديز» وأَسَرَ ملكها «كروسس». وأن «سارديز» كانت تقع على بحر إيجه، بالقرب من مدينة «أزمير» التركية حالياً.

ولقد أخبرت الآية أن ذا القرنين قد بلغ مغرب الشمس، ومعلوم أن الأرض تجري، وأن الشمس أيضاً تجري.

إن مغرب الشمس، ليس مكانَ غروبها حقيقة، لأن الشمس ليس لها مشرق واحد، ولا مغرب واحد، بل لها عدةُ مشارق وعدةُ مغارب، وفي هذا يقول القرآن ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِرَبِّ المَشارِقِ والمَغَارِبِ﴾[1].

لها مشارق ومغارب باعتبار الناظرين إليها من أية بقعة من البقاع.

ولها مشارق ومغارب باعتبار المطالع التي تطلع منها حسب البلدان، والتي تغرب منها كذلك.

ولها مشارق ومغارب باعتبار فصول السنة وشهورها وأيامها.

فمغرب الشمس ليس مغربها حقيقة، ولكنه حسب ما يبدو للناظر إليها.

قال سيد قطب «ومغربُ الشمس هو المكان الذي يرى الرائي أن

---

(١) سورة المعارج: آية ٤٠.

الشمس تغرب عنده وراء الأفق. وهو يختلف بالنسبة للمواضع. فبعض المواضع يرى الرائي فيها أن الشمس تغرب خلف جبل. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الماء كما في المحيطات الواسعة والبحار. وفي بعض المواضع يرى أنها تغرب في الرمال، إذا كان في صحراء مكشوفة على مد البصر»[1].

هذا عن مغرب الشمس.

أما غروبها في عين حمئة، فقد سبق أن قلنا إن منطقة «أزمير» التي وصلها ذو القرنين كثيرةُ الخلجان، ومن أشهر هذه الخلجان: خليج هرمس. وخليج مندريس. وخليج أزمير. ويتعمق خليج أزمير إلى الداخل بمقدار مائة وعشرين كيلو متراً. ويصب فيه نهر غديس، ذو المياه العكرة، المحمَّلة بالطين البركاني والتراب الأحمر، من فوق هضبة الأناضول، وكلما اتجه النهر نحو خليج أزمير، زادت سرعة جريانه.

وحين توقف ذو القرنين عند مصّب نهر غديس في خليج أزمير ــ بعدما فتحَ مدينة «سارديز» عاصمة مملكة ليديا ــ تأمَّل قرص الشمس، وهو يسقط في مصب النهر في الخليج، ورأى ذو القرنين اختلاط حمرة الطين الأحمر والأسود الذي يقذفه النهر في الخليج، ورأى من بعيد كأن الشمس تسقط في هذا الحمأ الطيني.

ويبدو أن هذه هي العين الحمئة التي ذكرها القرآن ــ والله أعلم.

هل ذو القرنين نبي؟

أخبر القرآن أن ذا القرنين لما بلغ مغرب الشمس، وجد عندها قوماً: ﴿قُلْنا يَاذَا القَرْنَيْن إمَّا أَنْ تُعَذِّبَ وَإِمَّا أَنْ تَتَّخِذَ فيهم حُسْناً﴾.

---

(١) الظلال ٤ : ٢٢٩١.

وظاهر الآية أن الله قال له هذا القول، وخيَّره في التصرف في القوم المغلوبين الذين انتصر عليهم، وفوضه التصرف فيهم. إن شاء عذَّب، وإن شاء عفى وعاملهم بالحسنى.

وقد اختلف العلماء في حقيقة قول الله لذي القرنين، ومن ثم اختلفوا في القول بنبوته.

فذهب بعضهم إلى أنه نبي، واعتمدوا في ذلك على قوله تعالى: ﴿قلنا: يا ذا القرنين﴾. ووجْه استدلالهم بالآية أن القول من الله مباشرة لا يكون إلا لنبي. فطالما أن الله قال له ذلك، فهو نبي من أنبياء الله.

ونفى آخرون أن يكون نبياً، وقالوا هو ولي صالح وملك عادل.

ووجْه نفيهم لنبوته، أن النبوة لا تثبت لأحد إلا بدليل مقبول، وهو إما أن يكون آيةً أو حديثاً صحيحاً. وطالما أننا لا نملك هذا الدليل فلا يجوز أن نقول بنبوته، لأننا نجعل في الأنبياء ما ليس منهم.

وذهب فريق من العلماء إلى التوقف في شأن نبوته.

قالوا لا نقول إنه نبي، لأن القول بنبوته يحتاج إلى آية أو حديث صحيح، وهذا غير موجود.

كما أننا لا ننفي نبوته، لاحتمال أن يكون نبياً، إذْ معلوم أن القرآن لم يذكْر كلَّ الأنبياء، ولم يقصَّ علينا كل قصصهم: ﴿وَرُسُلاً قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْل * وَرُسُلاً لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ﴾[1].

فلو قلنا بنبوته، وهو غير نبي لأدخلنا في الأنبياء ما ليس منهم، وهذا خطأ.

---

(١) سورة النساء: آية ١٦٤.

ولو نفينا عنه النبوة وهو نبـي، لأخرجنا من الأنبياء أحدهم، وهذا خطأ.

وبما أننا لا نملك دليلاً على الإثبات، ولا نملك دليلاً على النفي. يبقى الأَسلمُ والأفضـلُ هو التوقف.

إننا مـع العلماء المتوقفين في نبوة ذي القرنين، فلا ندري هل هـو نبـي أم لا؟ مـع أن الأمرين محتمَلان.

والتوقف في النبوة هنا، هو المتفق مـع البحث العلميّ المنهجيّ، لأننا لا يجوز أن نقول إلا بعلم، ولا نعتمد إلا على الدليل. وهذا غير موجود هنا.

فإذا كان ذو القرنين نبياً، لا إشكال في قوله تعالى: ﴿قلنا يا ذا القرنين﴾ لأن الله يخاطب الأنبياء مباشرة.

وإذا كـان غيرَ نبـي، يكـون قول الله لـه ﴿يا ذا القـرنين إما أن تعـذب﴾ محتمِلاً ثلاثة احتمالات:

١ ــ إن الله بلَّـغ هـذا القول لنبـي كـان معه في جيشـه، وهـذا النبـي بلَّغه لذي القرنين.

٢ ــ إن الله ألهمه بذلك إلهاماً، كما أوحى إلى أم مـوسى ــ وهي غير نبية قطعاً ــ بالوسيلة المضمونة لحفظ موسى عليه السلام.

٣ ــ إن هـذه العبارة حكـايةٌ لحـال ذي القرنين مـع القـوم المهزومين وبلادهم المفتوحة، حيث سلَّطه الله عليهم، وترك له التصرف في أمرهم.

ولا نملك ترجيـح أحد الاحتمالات على غيره، لعدم وجود مرجّـح.

دستور ذي القرنين العادل:

عندما فوض الله لذي القـرنين التصرف في البـلاد المفتوحـة، والتعامـل مـع القـوم المغلوبين، لم يَظلم ولم يَطـغَ ولم يَتجبـر، ولم يعتبـرهـا مناسبـة للبطش والبغي والفساد.

لقد بين ذو القرنين دستوره في التعامل مع أولئك القوم. فقال: ﴿أَمَّا مَنْ ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ * ثُمَّ يُرَدُّ إلى رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَاباً نُكْراً * وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً * فَلَهُ جزاء الحُسْنى * وَسَنَقولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنا يُسْراً﴾.

وهذا الدستور العادلُ دليلٌ على إيمانه وتقواه، وعلى فطنته وذكائه، وعلى عَدْله وبره ورحمته.

إن الناس الذين قهرهم وفتح بلادهم، ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يُعامَلوا جميعاً معاملة واحدة.

إنهم نوعان: مؤمنون وكافرون. صالحون وظالمون.

فهل يتساوَوْن في المعاملة؟.

قال ذو القرنين: أمّا الظالم الكافر فسوف نعذبه، نعذبه لظلمه وكفره، وهذا التعذيب عقوبةٌ له، فنحن عادلون في تعذيبه. وهذا هو عذابه الدنيوي.

وسوف يذوق عذاباً آخر، هو العذاب الآخروي، فعندما يُرَد إلى ربه، سوف يعذِّبه عذاباً نكراً.

والعذاب النُّكْر، هو العذاب الذي قد يستنكره الناس، ويعتبرونه قسوة وعنفاً وغلظة، ولكنه عذاب وِفْقَ عدل الله العادل، لأنهم يستحقون ذلك العذاب.

لقد فَرَّق القرآن بين كلمتي «مُنْكَر» و «نُكْر».

فالمنكر هو الشيء الباطل الحرام في شرع الله ودينه، والذي تنكره القلوب المؤمنة، وترفضه وتحاربه وتنكره.

أما النُّكْر فهو الشيء الذي قد ينكره بعض الناس، ويستبعدونه، ويعتبرونه مرفوضاً وخطأً، ولكنه في حقيقته صحيح وصواب ومقبول في حكم الله وتقديرِه وفعلِه وإرادتِه.

فالظالم الباغي الكافر في دستور ذي القرنين معذَّب مرتين: مرة في الدنيا على يديه، والأخرى يوم القيامة، حيث يعذبه الله عذاباً نكراً.

أما المؤمن الصالح فإنه مقرَّب من ذي القرنين، يجزيه الجزاء الحسن، ويكافئه المكافأة الطيبة، ويخاطبه بيسر وسهولة وإشراق وبرٍّ ومودَّة ﴿فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً﴾.

التربية بالثواب والعقاب:

تعاملُ ذي القرنين مع القوم يصلح أن يكون دستوراً لكل حاكم أو مسؤول يتعامل مع الآخرين، وذو القرنين يصلح أن يكون أسوة وقدوة لكل حاكم أو مسؤول.

ويجب أن يُطيل الوقفة أمام هذا الدستور، كلُّ الذين يبحثون واقع الأداء الوظيفي والالتزام العملي، ويريدون إصلاح الوظيفة، وتحسينَ الأداء.

والوظيفة أصابها ما أصابها في زماننا، من فساد وإفساد، وأداءُ الموظفين الوظيفي، أصابه من إصابه من ترهُّل وبغْي وانحراف.

وأصبح أساس الاعتبارِ والمنْحِ والعطاءِ، هو مدى ولاءِ هذا الموظف للنظام، ومسارعتِه في خدمة المسؤول، والتزلف إليه، والنفاق له. وأصبح هَمُّ الموظفين هو القرب من المسؤول، ونيلُ الحظوة عنده، والحصولُ على خيراته وفضله وعطائه، وعلى العمل الوظيفي، وحُسنِ أدائه، وخدمة الناس، وتقديم الخير لهم، على كل هذا السلام.

لقد اضطرب ميزان الحكم، وأساسُ الوظيفة في عالمنا المعاصر، فأصبح الظالِمون المفسدون المعتدون هم المقرَّبون من الحاكم، الذين ينالون خيره وبره وكرمه. وأصبح العاملون المخلصون محارَبين مطرودِين معذَّبين محرومين من العطاء والتكريم.

وبذلك فسدَ العمل واختل الأداء، وانتشر الفساد، وعمّت الفوضى.

إن ذا القرنين يقدم لكل مسؤول أو حاكم منهجاً أساسياً، وطريقةً عملية لتحسين الأداء وتطوير العمل الوظيفي والإداري.

هـذا المنهـج يمكن أن نسميه: التـربية بـالثواب والعقـاب. أو نسميـه: الحوافز والزواجر.

المهم بالنسبة للموظف أو العامل هو حسنُ أدائه لعمله، وليس قُربـه من الحاكم أو تزلُّفه للمسؤول.

إن الموظف إذا قصّر أو أسـاء يجب أن يُعاقبَ ويُـزجر ويُـرد عليه. لقـد اختار الباطل، ويجب أن تقـع به نتيجة اختياره.

هـذا الموظف يجـوز أن يُخصم عليه، وأن يُنقـل من وظيفته إلى وظيفـة غيرها.

أما الموظف المؤمن الصالـح النشيط والمحبوب عند الناس، فهـو الذي يجب أن يُكرَّم ويُثاب، وتُقـدم له الحـوافز والجـوائز التشجيعيـة، ليكون قـدوة لغيره، وليجد غيره حافزاً لفعل الخير والبر والإصلاح.

من آمن وعمل صالحاً فله جزاء الحسنى. لقد أحسن في إيمانه وعبادته، وأحسن في عمله وأدائه، ولذلك نحن نعامله بـإحسان، لأن الجـزاء من جنس العمل، و ﴿هَلْ جَزاءُ الإِحْسانِ إلاّ الإِحْسانُ﴾[1].

وسَنقـولُ له من أمرنا يُسـراً. نكلِّمه بـاليسر واللين واللطف والـرقة، وفي ذلك نكافئهُ ونشجـعه ونقدمه ونحترمه ونجلُّه.

---

(١) سورة الرحمن: آية ٦٠.

والآخرون المراقبون، يعتبرون من ذلك، ويتّعظون به، لأنه لا يريد أحد أن ينال العقوبة والعذاب عامداً ــ إلا أن يكون مجنوناً.

إنهم يُقلعون عن البغي والظلم والفساد، وينشرون النفع والخير والبر، ويحرصون على حسن الأداء، وتحسين العمل، وتقديم الخير للناس.

نكافىء المحسن بتقديم جائزة له، فهي تَرُدُّ له اعتباره، وتحفزه على مضاعفة جهوده، وتدعو الآخرين ليكونوا مثله.

لم نجعل لهم من دونها ستراً:

توجَّه ذو القرنين نحو الشرق، نحو مطلع الشمس: ﴿حَتّى إذا بَلَغَ مَطْلِعَ الشَّمْس * وَجَدَها تَطْلُعُ عَلى قَوْمٍ لَمْ نَجْعَلْ لَهُمْ مِنْ دونِها سِتْراً﴾.

وما قلناه عن مغرب الشمس عند العين الحمئة، نقوله هنا عن مطلعها، فللشمس عدة مطالع، ولكل قوم مطلعُهم، ولكل أمة مشرِقها.

المهم أن هؤلاء القوم لم يجعل الله لهم من دونها ستراً. بمعنى أنه لا يوجد ما يسترهم عن الشمس عند شروقها.

وقد اختلف العلماء في تفسير ﴿لم نجعل لهم من دونها ستراً﴾.

١ ــ قال بعضهم: إن أولئك القوم كانوا يسكنون سهولاً شاسعة، ولا يوجدُ عندهم جبال تحجب عنهم الشمس، فإذا طلعت تكون عندهم وفي بيوتهم.

٢ ــ وقال بعضهم: كانوا لا يملكون بيوتاً أو أبنية تمنع عنهم أشعةَ الشمس وحرَّها، ولذلك أول ما تشرق تكون بينهم بأشعتها.

٣ ــ وقال بعضهم: ما كانوا يملكون شيئاً يُغَطّون به أجسادهم، ولهذا كانوا عراة من الملابس، فإذا أشرقت أصابتهم بأشعتها.

وقد سبق أن رجَّحْنا أن القوم هؤلاء قد يكونون من الترك أو غيرهم، وأنهم كانوا يسكنون في مناطق تركستان وأفغانستان وباكستان.

ويلاحظ هنا أن القرآن لم يفصل ما قاله الله لذي القرنين، وما رد به. يعني لم يبيِّن دستوره في حكم البلاد والتعامل مع أصحابها، لأنه أورده في التعامل مع البلاد الغربية في مهمته نحو الغرب، فلا داعي لإعادة ذكره، منعاً للتكرار.

وقد أحطنا بما لديه خبراً:

وقبل أن يكمل القرآن الحديث عن حروب ذي القرنين، وفتوحاته، وقبل أن يتحدث عن مهمته في المنطقة الشمالية. توقف سياق القرآن ليقرر حقيقة أساسية. وهي في قوله تعالى: ﴿كَذٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنا بِما لَدَيْهِ خُبْراً﴾.

أي أن الله سبحانه كان عالماً بأحوال ذي القرنين، مطَّلعاً على حركاته، محيطاً بأخباره وأخبار جيشه. فما يسيرون خطوة إلا بإذن الله، ولا يتحركون حركة إلا بمشيئة الله، ولا يكسبون معركة أو يحتلون بلداً إلا والله عالمٌ بهم، مطلع عليهم، خبير بهم.

وهناك لفتةٌ فنية بيانية، نأخذها من ذكْر هذه الحقيقة بعد الحديث عن القوم الذين لا يجدون ما يسترهم عن الشمس عند شروقها:

قال سيد قطب: «ونقف هنا وقفة قصيرة، أمام ظاهرة التناسق الفني في العرض. فإن المشهدَ الذي يعرضه السياق هنا، هو مكشوف في الطبيعة، الشمس ساطعة، لا يسترها عن القوم ساتر. وكذلك ضمير ذي القرنين ونواياه، كلُّها مكشوفة لعلم الله. وبذلك يتناسق المشهد في الطبيعة وفي ضمير ذي القرنين، على طريقة التنسيق القرآنية الدقيقة»[1].

---

(١) الظلال ٤: ٢٢٩٢.

ونقف لنتساءل عن الحكمة من ذكْر حقيقةِ إحاطةِ الله بأخبار ذي القـرنين وجيشه، وعلمِه بها، أثناء حديثه عن فتوحاته!.

إن الحكمـة التي قـد تبـدو لنـا، هي: حــرصُ القـرآن على ربْط كــل ما يحدث في الكون بإرادة الله ومشيئتـه وعلمه سبحـانه، حتى لا ينسى النـاس هذه الحقيقة وهم يتابعون الأحـداث، وحتى لا يظنـوا أن الناس يتحـركون بهـا بقدراتهم الذاتية، بمعزل عن علم الله وإذنه سبحانه.

فهـا هو ذو القـرنين قام بفتـوحات عـظيمة، في الجبهـة الغـربيـة ثم في الجبهة الشرقية، وقام بإنجازات عـظيمة في الجبهـة الشماليـة. لكن الله مطلعٌ على أعمـاله، محيط بـأخباره، عـالم بإنجـازاته، وهـو مقدِّر لهـا ومـريـد لهـا سبحانه.

الخَبَر والخُبْر:

ونقف وقفة فنية لنتعرف على لطيفة من لطائف القرآن.

ما الفرق بين الخَبَر والخُبْر؟ وما هو السياق الذي ورد فيه كل منهما؟.

الخَبَـر مذكـور مرتين في قصـة موسى عليـه السـلام، مـرتين في سيـاق واحد:

قـال الله عن مـوسى عليـه السـلام: ﴿إِذْ قَـال مـوسى لِأَهْلِهِ إِنِّي آنَسْتُ ناراً * سَآتيكُمْ مِنْها بِخَبَر﴾[1].

وقال تعالى عنه أيضاً: ﴿قالَ لِأَهْلِهِ امْكُثوا إِنّي آنَسْتُ ناراً * لَعَلّيَ آتيكُمْ مِنْها بِخَبَر﴾[2].

---

(١) سورة النمل: آية ٧.

(٢) سورة القصص: آية ٢٩.

إن موسى عليه السلام عندما سار بأهله في الصحراء عائداً إلى مصر، ضلَّ الطريق، ثم رأى ناراً من بعيد، فتوجَّه إليها لعله يجد عندها شخصاً، يخبره بالطريق، ويدلُّه عليها. إنه يطمع أن يجد عنده خَبراً.

أمّا الخُبْر فلم يُذكر إلا في سورة الكهف.

قال الخضر لموسى عليهما السلام: ﴿وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلى ما لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً﴾.

وقال هنا عن ذي القرنين: ﴿كَذٰلِكَ وَقَدْ أَحَطْنَا بِما لَدَيْهِ خُبْراً﴾.

والفرق بين الخَبَر ـ بالفتح ـ والخُبْر ـ بالضم:

أن الخَبَر: «هو العلمُ بالأشياء المعلومة من جهة الخَبَر».

أما الخُبْر: «فهو المعرفةُ ببواطن الأمر»[1].

يعني أنه إذا كان يتعلق العلم بالأخبار الظاهرة، والأشياء الظاهرة، والأمور الظاهرة، فهو الخَبَر.

أما إذا كان يتعلق العلم بالأمور الباطنة، وخفايا الأشياء وأسرارها ولطائفها وألغازها، فهو الخُبر.

ولم يُذكر «الخُبر» إلا في سورة الكهف؛ لأنها سورةُ العلم بالمغيَّبات ـ بإذن الله ـ وسورةُ كشْف خفايا الأمور وأَسرارها ودقائقها.

فموسى عليه السلام سيرى من الخضر عليه السلام أشياء وأفعالاً، لن يعرف حقيقتها، ولن يعلم خفاياها. ولهذا سينكرها ﴿وكيف تصبر على ما لم تحط به خُبراً﴾.

(١) المفردات: ١٤١.

وذو القرنين سيقوم بأعمال قد يجهلها كثيرون، وما في ضميره وقلبه ونيته مجهول من قِبَل الناس، لكن الله محيط به، عالم به، مطلع عليه.

القوم المتخلفون العاجزون:

أخبر القرآن عن مهمة ذي القرنين في الجهة الشمالية بقوله: ﴿حَتّى إذا بَلَغَ بَيْنَ السَّدَّيْنِ وَجَدَ مِنْ دونِهِما قَوْماً لا يَكادُون يَفْقَهونَ قَوْلاً * قالوا يا ذا القَرْنَيْن إنَّ يَأْجُوجَ وَمَأْجوجَ مُفْسِدونَ في الأَرْض * فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجاً عَلى أَنْ تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدّاً؟ قالَ ما مَكَّنّي فيهِ رَبـيّ خَيْر * فَأَعينوني بِقُوَّة * أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾.

وهذه المنطقة هي الواقعة جنوبي جبال القوقاز، وهي المسماة الآن بأرمينيا وجورجيا وأذربيجان.

والقوم الذين كانوا يسكنونها زمن ذي القرنين هم قبائل «كوشيا» ولمّا شكَوْا إليه هجمات يأجوج ومأجوج عليهم عَبْرَ مضيق «داريال»، سدَّ ذلك المضيق، وبنى عليه السد، وأقام في المنطقة تسع سنوات، حتى أتم ذلك العمل العظيم.

وعندما ننظر في حديث القرآن عن القوم، فسوفَ نستخرج هذه الصفات لهم:

١ ــ هم قوم متخلفون: ﴿لا يكادون يفقهون قولاً﴾.

وهذا إمّا معناه أنهم لا يفقهون لغةَ غيرِهم من الأقوام الأخرى، لأنهم لم يطَّلعوا عليها ولم يتعلموها، فهم منغلقون على لغتهم فقط.

وإمّا معناه أن الكلام لا ينفع معهم، لأنهم لا يفقهون ولا يتفاعلون معه، ولا يتفاهمون مع قائله، لا يفعلون هذا لجفاء وغلظة عندهم، أو لغفلة وسذاجة في طبيعتهم.

٢ ـ هم قوم ضِعاف، ولذلك عجزوا عن صدّ هجمات يأجوج ومأجوج،والوقوف في وجههم، ومنع إفسادهم.

٣ ـ هم قوم عاجزون عن الدفاعِ عن أرضهم، ومقاومةِ المعتدين، ولذلك لجأوا إلى قوة أخرى خارجية، قوةِ ذي القرنين، حيث طلبوا منه حل مشكلاتهم والدفاع عن أراضيهم.

٤ ـ هم قوم إتكاليّون كسالى، لا يريدون أن يبذلوا جهداً ولا أن يقوموا بعمل، ولذلك أحالوا المشكلة على ذي القرنين، وأوكلوا إليه حلَّها، أما هم فمستعدون لدفع المال له ﴿فهل نجعل لك خرجاً﴾.

إن أولئك القوم يملكون سمات وصفات الأقوام العجزة المتخلفين الاتكاليين، الذين يعجزون عن حل مشكلاتهم، ويوكِّلونها للآخرين الأجانب.

وإن مما يتعجب منه المرء في هذا الزمان، أن كثيراً من العرب في هذا العصر قد اتصفوا بصفات أولئك القوم. حيث يعيشون مشكلاتٍ خطيرةً مزمنة، على رأسها مشكلةُ فلسطين، وحيث يواجهون أعداءً شرسين ماكرين، في مقدمتهم اليهود في فلسطين، وحيث يعيشون تحدياً خطيراً، يكونون بعده أو لا يكونون.

وإن هذه الأجواءَ والظروف تتطلب منهم أن يعقلوا، وأن يُدركوا الخطر، وأن يُحسنوا مواجهته، وأن يقفوا رجالاً في التحدي الحضاري، وأن ينهضوا لحل مشكلاتهم بأنفسهم.

ولكنهم تعاملوا مع مشكلاتهم كما تعامل أولئك القوم الذين لا يكادون يفقهون قولاً.

لقد حوَّلوها إلى غيرهم. ورفعوها إلى الأمم المتحدة ومجلس الأمن والسادة الكبار والمؤتمر الدولي، وضعوا الكُرَةَ في ملعبهم، وطلبوا منهم اللعب بها.

طلبوا من الأجانب حلَّ قضيتهم بدلهم، ورجَوْهم أن يقنعوا اليهود بالاستجابة لأصوات السلام. ووقفوا هم متفرجين، ينظرون ماذا سيفعله الأجانب لهم، وما سيقدمونه لقضيتهم.

ولا يقف متفرجاً على النار وهي تحرق بيته إلا متخلف. ولا يقف مراقباً للص وهو يسرق ماله إلا متخلف، ولا يطلب المساعدة من العدو والرحمة من الخصم إلا عاجزٌ كسول. وهذه صفات للعرب كصفات أولئك القوم الظالمين المتخلفين.

وما هكذا تُحل المشكلات! ولا هكذا تُحفظ الأوطان! وتُبْطَل المكائد والمؤامرات.

زهد ذي القرنين في المال:

ردَّ ذو القرنين على عرْضهم المادي بعفَّة وزهد في الأجرة والمال. وقال لهم: ﴿ما مكّني فيه ربي خير﴾ لا حاجة لي في مالكم، فقد آتاني الله خيراً مما عندكم، ومنحني من مظاهر التمكين والقوة، ما جعلني زاهداً في ما لكم مستعلياً عليه.

إن زهد ذي القرنين في المال واستعلاءه عليه، يقدِّم لنا صفةً من صفات الحاكم الصالح العادل الزاهد، وهو يدعو حكامَ المسلمين ليقتدوا به في هذه الصفة.

ولقد ذكر الإمام ابن كثير أثناء حديثه عن ذي القرنين، موقفَ سليمانْ عليه السلام من هدية ـ أو رشوة ـ ملكة سبأ، عندما أرسلت وفْدَها بالمال له ليكف عنها: ﴿فَلَمّا جاءَ سُلَيْمان * قال: أَتُمِدّونَنِ بِمالٍ فَما آتانِيَ اللَّهُ خَيْراً مِمّا آتاكُمْ * بَلْ أَنْتُمْ بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحون * إرْجِعْ إِلَيْهِم فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنودٍ لا قِبَلَ لَهُمْ بِها...﴾[1].

(١) سورة النمل: آيات ٣٦ ـ ٣٧.

فالنبي سليمان عليه السلام اعتبر فضل الله عليه خيراً مما يُقدَّم له من مال، فزَهد فيه ﴿ما آتانِيَ اللَّهُ خَيْراً مِمّا آتاكُمْ﴾.

وذو القرنين اعتبر ما آتاه الله خيراً مما يُقَدَّم له كذلك من مال ﴿ما مكّنّي فيه ربي خير﴾.

ونأخذ من موقف ذي القرنين مع أولئك القوم، وجوبَ زُهْد الإمام في أموال رعيته، وتعفُّفِه عنها، وعدم أخذ شيء منها.

إنه مطالب بحفظ البلدان وحماية الناس، ولا يأخذ على ذلك أجراً ولا مالاً، لأن هذا من لوازم كونه إماماً لهم.

وقد وقف الإمامُ أبو بكر بن العربيّ أمام ردِّ ذي القرنين، واستخرج منه قاعدةً عامة في تعامل الحاكم مع رعيته، وزهده في أموالهم، فقال:

«وعلى المَلِك فَرْضٌ أن يقوم بحماية الخَلْق في حفظ بَيْضَتِهِمْ، وسدِّ فُرْجتهم، وإصلاح ثَغْرهم من أموالِهم التي تفيء عليهم، وحقوقهم التي يجمعها خزنتهم تحت يده ونظره، حتى لو أكلتْها الحقوق، وأنفذتْها المؤن، واستوفتها العوارض، لكان عليهم جَبْر ذلك من أموالهم، وعليه حسن النظر في ذلك لهم. وذلك بثلاثة شروط:

الأول: ألّا يستأثر بشيء عليهم.

الثاني: أن يبدأ بأهل الحاجة منهم فيعينهم.

الثالث: أن يُسوِّي في العطاء بينهم على مقدار منازلهم.

فإذا فَنِيَتْ بعد هذا ذخائر الخزانة، وبقيتْ صفراً، فأطْلَعت الحوادث أمراً، بذلوا أنفسهم قَبْل أموالهم، فإن لم يُغْن ذلك، فأموالُهُم تؤخذ منهم على تقدير، وتُصرف بأحسن تدبير.

فهـذا ذو القرنين لمـا عرضـوا عليه المـال، قال: لا أحتـاج إليه، وإنمـا أحتـاج إليكم فأعينـوني بقوة، أي اخـدموا أنفسكم معي، فـإن الأموال عنـدي والرجال عندكم؟.

وضَبْطُ الأمر فيه أنه لا يحل أخذُ مال أحـد إلا لضرورة تُعْـرَض، فيـؤُخَذ ذلـك المال جهـراً لا سـراً، ويُنْفَق بـالعـدل لا بـالاستئثـار، وبـرأي الجمـاعـة لا بالاستبداد بالرأي»[1].

فأعينوني بقوة:

لمـا عفَّ ذو القـرنين عن أمـوالهم وزهـد فيهـا، أراد أَنْ يتـركـوا العجـز والكسـل والاتكـاليـة، وأن يعلِّمهم النشـاط والعمـل والكسب والسعي، فقـال لهم: ﴿فَأَعينوني بِقُوَّة * اجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْماً﴾.

أعينـوني من المعـاونـة، وهي المـظاهـرة والمسـاعَـدة. فهـو يـطلب أن يساعدوه ويمدوه بالقوة العضلية والمادية، لعمل السد.

وكأنه يقول: عليَّ القوة المالية، وعليَّ القوة الفكرية، وعليكم أنتم القوةُ المادية العملية، فيجتمـع ما عندي مـع ما عندكم، وبذلك يتم إنجاز العمل.

وتُعتبَر هذه العبارة القرآنية الموجزة «أعينـوني بقوة» مَعْلَماً قرآنياً بارزاً في تضافر الجهود وتوحيد الطاقات والقدرات والقوى. كما تُقـدِّم لنا قـاعدة قـرآنية مطردة في إنجاز الأعمال والقيام بالمطلوب.

إن المجتمـع المتكـامـل النـاجـح، هـو الـذي تجتمـع كـافـة القـوى والـطاقـات فيه، لتحقيق الخيـر فيـه. وإن القيـادة النـاجحـة الـواعيـة هي التي تستقطب كافة الإمكانيات والقدرات لتحقيق الغايات المنشودة.

---

(١) أحكام القرآن لابن العربـي ٣:١٢٤٨. وانظر: ذو القرنين ليوسف: ٢٧٤ ــ ٢٧٥.

هناك فئات في المجتمع تملك القوة الفكرية، فتستطيع أن تُفكر وأن تُبرمج وأن تُنظِّر، ولو تُركت هذه الفئات وحدها، فإنها قد لا تحقق ما خططتْه وفكرتْ فيه.

وهناك فئات في المجتمع تملك المال والاقتصاد الكافي للعمل، لكنها قد لا تملك الفكر والتخطيط، كما أنها قد لا تملك الجهد المناسب للعمل.

وهناك فئاتٌ لا تملك مالاً ولا تقدر على تخطيط ولكنها تملك الوقت والجهد، وتقدر على العمل بالسعي والكسب والبدن.

فلا بد من التنسيق والتعاون بين هذه الفئات، وجمْعِ ما تملكه من قوى وطاقات وقدرات، والتوجهِ به نحو خير الأمة ورفعتها. لا بد من اجتماع صاحب الفكر، ومالك المال، والقادر على العمل والكسب، وتوجُّه الجميع نحو الخير.

والقيادة الواعية في الأمة، هي تلك التي تقدر على الربط بين كل الخيوط والخطوط، والتنسيق بين المواهب والطاقات.

فهل أمتُنا في واقعها المعاصر تجمع بين القوى والطاقات أم تفرِّق بينها؟ وهل تلتقي كلُّ المواهب والقدرات على خير الأمة، أم هي ممزقة متفرقة؟.

كم من مواهب ضائعة في الأمة! وكم من طاقات معطَّلة! وكم من أموال مهدورة! وكم من أوقات مبدَّدة! وكم من شباب حيارى!.

لا بد أن تأخذ الأمة قاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون، ولا بد أن يكون شعارها بكافة فئاتها وطاقاتها وقواها: ﴿فأعينوني بقوة﴾.

مِمَّ بُني السّد؟

أشار القرآن إلى المادة التي بُني منها السد، وكيفيةِ بنائه فقال: ﴿آتُوني زُبَرَ الحَديد * حَتّى إذا ساوَى بَيْنَ الصَّدَفَيْن قال انْفُخوا * حَتّى إذا جَعَلَهُ ناراً * قال آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾.

طلبَ ذو القرنين من أولئك القوم أن يُقدِّموا زبر الحديد، وأن يَضعوها في ذلك المضيق بين الجبلين.

وزُبَرُ الحديد. هي قِطَعُ الحديد الضخمة الكبيرة التي كانوا يقطعونها من المنطقة. وسبق أن قلنا إن منطقة أرمينيا وجورجيا كانت منطقة غنية بمعادنها من الحديد والنحاس، كما أنها غنية بأشجارِها وغاباتها، ودوابِها المختلفة التي تنقل ذلك من الأماكن البعيدة.

جاءوه بقطع الحديد الضخمة، ووضعوها في المضيق، وركموها فوق بعضها البعض، وما زالوا يرفعونها ويركمونها حتى ساووها بالصَّدَفين، والصَّدَفان هما قمتا الجبلين.

ثم أمرهم بإيقاد النار تحت هذا الحديد الضخم المركوم ﴿حتى إذا ساوى بين الصدفين قال انفخوا﴾.

وتصوَّرْ ضخامةَ النار، وعظمةَ الأخشاب التي أوقدتْ عليها، لأنها يُراد بها صهر الأطنان التي لا تُحصى من الحديد الصلب في هذا الممر الشاهق المرتفع.

وفي نفس الوقت كان ذو القرنين قد أمر مجموعةً أخرى بصهر النحاس في أوعيته الضخمة.

فلما تمَّ صهر الحديد في الممر، وتم صهر النحاس في القدور، جاءت المرحلة الأخيرة، من مراحل بناء السد: ﴿قالَ آتوني أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْراً﴾ والقِطْر: هو النحاس المُذاب.

أمرهم بصب النحاس المصهور المُذاب على الحديد المصهور المذاب، فتخلل النحاس وسْط الحديد، واختلطا. وصارا معدناً واحداً قوياً متيناً. الحديد أساساً قوي متين، والنحاس كذلك قوي متين، فكيف إذا صُهِرا وجُمِع بينهما، وخُلِطا معاً؟ إنها تَجْمع قوة ومتانة كل واحد مع الآخر، فتكون القمة في المتانة والقوة والجودة.

وتَرَكَ الحديد مع النحاس حتى جمدا، فصارا سدّاً منيعاً عجيباً مدهِشاً.

ذو القرنين مهندس:

حقاً إن ذا القرنين يملك قُوَّةً وفِطْنةً وإدراكاً وتمكيناً، وهذا من تمكينِ الله له، وتعليمه إياه.

لقد هداه الله إلى طريقة فذَّة عجيبة في تمتين البناء وتقويته، وبذلك جمع بين الحديد والنحاس.

لقد كان ذو القرنين مهندساً مدنياً ـ إن جاز التعبير ـ فبنى السد من هذه المادة المتينة. وسَبَق المعاصرين بقرون عديدة في الجمع بين الحديد والنحاس.

وحول هذا يقول سيد قطب: «وقد استُخدمتْ هذه الطريقة حديثاً في تقوية الحديد، فوُجِد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تُضاعِف مقاومَته وصلابته، وكان هذا الذي هدى الله إليه ذا القرنين، وسجَّله في كتابه الخالد، سبقاً للعلم البشري الحديث، بقرون لا يعلم عددها إلا الله»[1].

وهذا ينقضُ ما زعمه بعضهم من أن السد هو سورُ الصين العظيم، لأن

(١) الظلال ٤: ٢٢٩٣.

ذلك السور كان طويلاً بلغ مئات الكيلومترات، ولم يُبْن بين جبلين. ثم إن ذلك السور الصيني بُنِي من الحجارة والطين. والسّد بُني من الحديد والنحاس.

ونُذكِّر بما سبق أن قلناه إن العملَيْن العظيمين: السد والسور، بُنيا لغرض واحد. فذو القرنين بنى السد لصدِّ هجمات يأجوج ومأجوج، وامبراطور الصين بنى سور الصين لصد هجمات يأجوج ومأجوج ضد الصين.

إن القرآن يقدم لنا الطريقةَ المأمونةَ لتقوية البناء وتمتينه، وهي مزْج الحديد بالنحاس.

كذلك تشير لنا الآيةُ إلى لفتة علمية في القرآن، وهي مزج الحديد والنحاس لتقوية البناء.

كما توحي لنا بلفتة هندسية، وهي كيفيةُ بناء السد المنيع، فيمكن أن نجد في القرآن إشاراتٍ هندسيةً موحية.

إن آيات القرآن ذاتُ إشارات شتّى، وإيحاءات منوّعة، إننا نستطيع أن نأخذ منها إشارات وإيحاءات علمية وطبية وفلكية وهندسية وحسابية وإحصائية وقيادية واجتماعية وسكانية وحضاريّة، بالإضافة إلى ما تقدمه لنا من حقائق موضوعية إيمانية عقيدية فقهية تفسيرية جهادية دعوية.

ولا ننسى الهدفَ الأساسيَّ للقرآن، وهو أنه كتاب هداية ودعوة، ودستورُ حكم، ومنهجُ حياة، وأساس جهاد ودعوة ومواجهة.

لكن هذا لا يمنع من الوقوف على إشارات ثانوية في المجالات العلمية والحياتية الأخرى.

عجْز يأجوج ومأجوج أمام السد:

لما أتمَّ ذو القرنين بناء السد، جاء يأجوج ومأجوج على عادتهم ليعبروا المضيق ويمارسوا الإفساد، ولكنهم فوجئوا بالسد المنيع المرتفِع أمامهم. حاولوا أن يظْهروا ويتسلقوا عليه، فلم يستطيعوا، لأنه مبنيٌّ من الحديد، والحديد أملس، وإذا لم يكن به مقابض ليمسِك بها الشخص، فلا يستطيع أحد أن يتسلقه.

وحاولوا أن يهدموه وينقضوه فلم يستطيعوا، لأنه مبنيّ من مادة قوية منيعة، الحديد والنحاس.

وقد سجلتْ الآية فشلَ محاولتيْهم، في تسلُّقه وفي نقضه: ﴿فما اسطاعوا أن يظهروه * وما استطاعوا له نَقباً﴾.

وكان هذا السد هو الوسيلة لمنع غارات يأجوج ومأجوج، وإفسادهم وتدميرهم.

اسطاعوا واستطاعوا:

نقف وقفة أمام لطيفة من لطائف القرآن، وهي تفرقةُ الآية بين فعلين من حيث الصياغة.

فما اسطاعوا أَن يظهروه.
وما استطاعوا له نقْباً.

فما هي الحكمة من حذف التاء من الفعل في الجملة الأولى؟ مع أنها أُثبتت في الفعل نفسه في الجملة الثانية؟.

إن حذف التاء في الجملة الأولى للتخفيف، ولذلك يمكن أن نسميها «تاء الخفَّة».

ووجْهُ الخفّة أن الجملة أخبرت عن عجزهم عن تسلق السد، وهذا

التسلق يحتاج إلى سرعةِ المتسلق ومهارتِه ورشاقتِه أوّلاً، ولذلك غالباً ما يعجز البَدينُ عن التسلق. لأنه يحتاج إلى خفة، ليتسلق بسرعة.

هذه هي الحالة التي تُخبر عنها جملة «فما اسطاعوا أن يظهروه» وهذا هو السياق الذي وردتْ فيه.

ولذلك حُذفت التاء من الفعل تسهيلاً وتخفيفاً.

وكأن الفعل أراد أن يساعد المتسلق على الخفة، فَحَذف التاءَ منه، ليشارك المَهَرة مهارَتَهم، والمتسلقين خفَّتَهم.

أما الفعل الثاني «وما استطاعوا له نقباً» فإن التاء بقيت فيه، لأن هذا هو الأنسب للسياق، والمتفق مع الجو العام.

وذلك أن نقب السد وهدمَه يحتاج إلى جهد ومشقة وثِقَل ووقت، يحتاج إلى أدوات للحفر والنقض، ويحتاج إلى رجال ينقضون، ويبذلون جهداً ومشقة وأناة وصبراً، وتنقضي أوقاتٌ طويلة قبل أن يتمكنوا من إنجاز عملهم.

في هذا الجو الذي يعبِّر عنه «وما استطاعوا له نقباً» بقيت التاء في الفعل.

بقيت التاء للثقل، لتساعد في رسم جوِّ الثقل والجهد في نقض السد، ولتشارِكَ في العملية الثقيلة الشاقة.

إذن حذفت التاء من الفعل أولاً للخفة.

وبقيت التاء في الفعل نفسه ثانياً للتثقيل.

وهنا نُذكِّر بأن الألفاظ في التعبير القرآني منتقاة، ومتناسقةٌ مع السياق العام، وهي مختارةٌ اختياراً، ومتفقةٌ اتفاقاً تاماً مع الجو الذي وردت فيه، ومع الموضوع الذي تخبر عنه.

لقد مرت بنا «تاء الخفة» في قصة موسى عليه السلام مع الخضر، في قول الخضر لموسى ﴿سأنبئك بتأويل ما لم تستطع عليه صبراً﴾ ثم قوله له بعدما فسر الأحداث ﴿ذلك تأويل ما لم تَسْطِع عليه صبراً﴾.

وها هي «تاء الخفة» تعود لنا مرة ثانية في قصة ذي القرنين.

وفي قصة ذي القرنين نفسها، مرَّ معنا فعْلٌ على صورتيْن. وهو قوله عن ذي القرنين: ﴿إنا مكنا له في الأرض﴾ وقول ذي القرنين عند بناء السد ﴿ما مكّنّي فيه ربي خير﴾.

المهم هو أن يقف القارىء المتدبر للقرآن على أمثلة أخرى من هذه الألفاظ. وسيجد منها الكثير.

بناء السد رحمة من الله:

نظر ذو القرنين إلى سدِّه العظيم الذي حفظ الناسَ من غارات يأجوج ومأجوج، وقال: «هذا رحمةٌ من ربي».

وعندما نقف أمام هذه العبارة الجميلة المباركة «هذا رحمة من ربي» فإننا نأخذ عنها هذه الإيحاءات:

١ ـ ما قاله سيد قطب عنها: «ونظر ذو القرنين إلى العمل الضخم الذي قام به. فلم يأخذْه البطر والغرور، ولم تُسكره نشوةُ القوة والعلم، ولكنه ذَكَر الله فشكره، وردَّ إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه...»(١).

٢ ـ ذِكْر ذي القرنين لربه عند إنجاز عمله، يعلِّمنا كيف يكون ذكْر الله سبحانه، إن من أعظم صور الذكر، هي أن يذكُر المؤمن ربه عند نجاحه في عمله، فيعلم أن هذا بأمر ربه، فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر.

---

(١) الظلال ٤:٢٢٩٣.

٣ ــ كان بناءُ السد رحمةً من الله، وقد استخدم ذو القرنين علْمَه الذي علَّمه الله إياه، وتمكينَه الذي مكنه الله له، استخدمه في مساعدة الناس وتقديم الخير لهم، ومنْع العدوان عنهم، فكان علمه رحمةً من ربه، وكان استخدامه له رحمة من ربه.

وتوظيفُ ذي القرنين تعليم الله له لرحمة الآخرين، يتفق مع موضوع سورة الكهف، سورة العلم والرحمة. كما قال الله عن الخضر عليه السلام: ﴿آتيناه رحمة من عندنا * وعلمناه من لدنا علماً﴾. وكما قال الخضر لموسى ــ عليهما السلام ــ ﴿رحمة من ربك﴾.

٤ ــ كان القوم مُهدَّدين بيأجوج ومأجوج، مُعرَّضين لإفسادهم، ولم يحمهم منهم إلا الله ببناء السد، ولم يخلصهم من خطرهم إلا الله ببناء السد. فكان السد رحمة من الله لهم، وكان خلاصاً لهم وإنقاذاً ــ بإذن الله ــ.

فلو لم يتم بناء السد، ولو بقي أولئك القوم يَشْكُون ويندبُون، بدون عمل ولا جهد ولا حركة، لما أنقذوا أنفسهم من الخطر. لا يتم الإنقاذ والخلاص إلا بالعمل.

درس لنا من بناء السد:

وهذا درْس هام وضروري للأمة، وبخاصة في زمانها هذا، لأنها تواجِه خطراً ماحقاً مدمِّراً، أعنف وأخطر من خطر يأجوج ومأجوج على أولئك القوم. إنه الخطر اليهودي المدمِّر، إنه «الغول اليهودي» المفترس البشع، وإن كل مجالات الأمة وطاقاتها مهددةٌ بذلك الخطر، لا يكاد يَسْلم منه شيء.

ولا يجوز للأمة أن تقف عاجزةً مكتوفة الأيدي أمام هذا الخطر.

ولا يجوز للأمة أن تكتفي بالتألم والحسرة والندب، وأن تستخدم سلاح الشجْب والاستنكار والشكوى، وأنْ تبقى حريصةً على مخاطبة الضمير العام

العالمي، ومناشدةِ محبي الخير في العالم، والطلبِ من العالم التدخل لوقف زحف اليهود، وإيقافِ خطرهم.

ولا يجوز للأمة أن تبقى حريصة على سبلٍ ووسائل وطرق لا توصل إلى نتيجة، ولا تقدِّم حلاً، وإنما هي سراب وأوهام. مثل اللجوء إلى مجلس الأمن والأمم المتحدة، والدعوة إلى مؤتمر دولي، وتطبيق قرارات مجلس الأمن، وغير ذلك.

إن هذه المواقف لا خيرَ فيها، وهذه الوسائل لا تقدم حلاً.

وستبقى الأمة مهددةً أمام الخطر اليهودي الماحق.

إنه لا ينقِذ الأمة إلا العملُ الجاد الصائب الصحيح، لا ينقذها إلا مواجهةُ اليهود ومقاومتُهم، لا ينقذها إلا الجهاد والقتال والقوة.

بالقوة والعمل تم إنقاذ القوم من يأجوج ومأجوج، وحلَّت بهم رحمةُ الله لما تمَّ بناء السد.

وبالقوة والعمل يتم إنقاذ الأمة اليوم من خطر اليهود، وجهادُ اليهود وقتالهم أشبهُ شيء بسد ذي القرنين، وعندما تُتقن الأمة الجهاد والقتال، وتحرص على الاستشهاد، تحل بها رحمة الله، كما حلتْ بالقوم السابقين.

إن القوم العاجزين الكسالى لا يستحقون رحمة الله، لا يرحمهم الله، ولا يرحمهم الناس، ولا يسمع أحدٌ صوتَهم، ولا يَرثي أحد لحالهم.

إن الذين يستحقون رحمة الله هم الرجال الأقوياء الأشداء، المجاهدون الصابرون الثابتون.

فعلى الأمة أن تودِّع الأماني والأحلام الخادعة، وعليها أن تدخل باب الجهاد والشهادة. هذا. أو الدمار والطوفان!.

وعْد الله ودكُّ السد:

بعدما قرر ذو القرنين أن بناء السد رحمةٌ من ربه، وشَكَرَهُ على ذلك قدم للسامعين حقيقة إيمانية هامة. وهي في قوله: ﴿فَإِذا جاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكّاءَ * وَكانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً﴾.

إنه يقرر أن هذا السد له عمر محدود، وأنه ليس باقياً، فلا يركنوا إليه، إن الله هو الذي أَذِن بإيجاده وبنائه، وهو الذي أذن أن يكون قوياً متيناً، وهو الذي أذن أن يمنع هجمات يأجوج ومأجوج.

وإن الله سيأذن ليأجوج ومأجوج بالنجاح في نقض السد، وسيكتب لهم تدميرَ السد، وسيخرجون من السد، ليُعيدوا إفسادهم مرة ثانية وثالثة ورابعة.

إذا جاء وعْدُ ربي، وانتهى عمر السد، وأذن الله بنقضه وتدميره، فلن يقف أحدٌ أمام أمر الله، ولن يحول دون تحقيق إذنه سبحانه، لأن البشرَ ضعافٌ مهازيل، ولأن الله هو القوي القادر الفعال لما يريد.

إذا جاء وعد ربي دكَّ السد، وسوّاه بالأرض، وجعل السد دكاء.

دكّاء: يعني مساوياً للأرض.

ونجد عند كلمة «دكّاء» لفتة بيانية قرآنية.

إن «دكاء» مؤنث. وإن السد مذكر، فلماذا وُصِفَ المذكَّر بالمؤنث، والأصل أن يتساوى الموصوف والصفة في التذكير والتأنيث.

في هذه الكلمة قراءتان:

الأولى: دكاءَ. بالمد والهمز. وهي قراءة حمزة وعاصم والكسائي.

وتوجيهُها: أي جَعَلَ السدَّ مِثْلَ أرض دكّاء. فدكاءُ صفة لكلمة محذوفة مؤنثة «أرض دكاء» ثم حَذَفَ المضاف. وهو أرض، وأقام المضاف إليه مقامه: جعله دكاء.

والعرب يقولون: ناقة دكاء. أي لا سَنام لها.

الثانية: دكاً. بالتنوين. أي صفةً للسد. وهذه لا إشكال فيها[1].

وبعدما وجَّهْنا وصفَ المذكر بالمؤنث، وأن المؤنث في الحقيقة صفةٌ لمؤنث محذوف. نبيِّن الحكمة من وصفه بهذه الصفة المؤنثة «دكاء».

إن هذا السد القوي المنيع، سيأتي عليه زمان يكون أرضاً دكاء، سيزول ما فيه من حديد ونحاس، ويتحوَّل إلى أرض مستوية، مجرد أرض. أرض دكاء.

وقد رجَّحنا أنه قد جاء وعد الله بالنسبة للسد فيما مضى، وأن يأجوج ومأجوج نجحوا ـ بإذن الله ـ في نقْض السد وتدميره، وأنه فعلاً قد أصبح دكاء.

وإن الناظر عندما ينظر الآن في مضيق داريال في جبال القفقاس، يرى فعلاً أن السد تحوَّل إلى أرض دكاء، وأنه لا يوجد من الحديد إلا بقايا قليلة على جانبي المضيق.

وقد صدق ذو القرنين فيما توقعه بقوله: ﴿فإذا جاء وعد ربي جعله دكاء * وكان وعد ربي حقاً﴾.

مع الإمام القاسمي في عِبَرِهِ من القصة:

أورد السيد محمد خير رمضان يوسف خلاصة العبر والعظات والأحكام التي استخرجها الإمام القاسمي في كتابه «محاسن التأويل» من قصة ذي القرنين، وسوف نورد تلخيصاً لخلاصة السيد محمد خير:

١ ـ الاعتبارُ برفْعِ الله بعضَ الناس درجاتٍ على بعض. ورِزْقه من يشاء مُلْكاً ومالاً بغير حساب.

---

(١) انظر حجة القراءات لابن زنجلة: ٤٣٥ ـ ٤٣٦.

٢ ــ الأخذ بالأسباب والجرْيُ وراء سنة الله في الكون من الجد والعمل، وعلى قدر بذل الجهد يكون الظفر والفوز.

٣ ــ تنشيط الهمم لرفع العوائق.

٤ ــ وجوب المبادرة لمعالي الأمور.

٥ ــ من انتصر على أعدائه فلا يجوز أن يُذلهم ويستعبدهم، بل يعاملهم بالعدل، فيجزي المحسن بإحسانه ويعاقب المسيء بإساءته.

٦ ــ على المَلِك أن يبذل جهده في حماية الوطن، وتوفير الراحة والأمن للمواطنين.

٧ ــ على المَلِك التعفُّف عن أموال رعيته، والزهدُ في أخذ أجرة في مقابلة عمل يأتيه.

٨ ــ التحدث بنعمة الله إذا اقتضاه المقام.

٩ ــ تدعيم الأسوار والحصون، وتقويتُها.

١٠ ــ مشاطرة الملك العمالَ، تنشيطاً لهم، وترويحاً لقلوبهم.

١١ ــ تعريف الآخرين ثمرةَ العمل المهم، ليعرفوا قدره، ويقوموا بشكره.

١٢ ــ إعلام الآخرين بالآخرة، وانقضاء هذه الحياة، لتبقى القلوب معلَّقة بالآخرة.

١٣ ــ الاعتبار بتخليد جميل الثناء وجليل الآثار، عن طريق حُسْن السجايا، وجميل المزايا، والشجاعة والهمة والعفو والعدل، والإحسان إلى الآخرين.

١٤ ــ الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أمماً متباينة[1].

سيد قطب يختم الكلام على قصة ذي القرنين:

نترك للأستاذ الإمام سيد قطب أن يختم لنا الكلام على قصة ذي القرنين، حيث سنأخذ من الظلال، خاتمة كلامه عن القصة:

«وبذلك تنتهي هذه الحلقة من سيرة ذي القرنين. النموذجِ الطيب للحاكم الصالح، يمكِّنُه الله في الأرض، وييسِّر له الأسباب، فيجتاح الأرض شرقاً وغرباً، ولكنه لا يتجبّر ولا يتكبر، ولا يطغى ولا يتبطر، ولا يتخذ من الفتوح وسيلة للغُنْم المادي، واستغلال الأفراد والجماعات والأوطان، ولا يعامِل البلاد المفتوحة معاملة الرقيق، ولا يسخِّر أهلها في أغراضه وأطماعه، إنما ينشر العدل في كل مكان يحل به، ويساعد المتخلفين، ويدْرَأُ عنهم العدوان دون مقابل، ويستخدم القوة التي يسَّرها الله له في التعمير والإصلاح، ودفْع العدوان، وإحقاق الحق. ثم يُرجِعُ كل خير يحققه الله على يديه إلى رحمة الله وفضل الله، ولا ينسى وهو في إبان سطوته قدرة الله وجبروته، وأنه راجع إلى الله...»[2].

---

(١) ذو القرنين لمحمد خير يوسف: ٢٨١ ــ ٢٨٣ بتصرف واختصار.

(٢) الظلال ٤:٢٢٩٣.

الخَـاتـمَة

وبعد:

فهذه هي قَصَصُ سورة الكهف الأربعة، قصةُ أصحـاب الكهف، وقصةُ صـاحب الجنتين وصـاحبـه المؤمن، وقصـةُ مـوسى مـع الخضـر ـ عليهمـا السلام ـ وقصةُ ذي القرنين.

عشْنـا مـع هذه القصص لحـظاتٍ ممتعة، وفهمنـا عنها دلالات وعبـراً، وإيحاءاتٍ ودروساً، نافعة.

لاحظْنا فيها الشخصية العامة لسورة الكهف، وهي الصراع بين الإيمـان والمادية، وانتصارِ أهل الإيمان على أهل المادية الكافرة.

لاحظْنا فيها المفتاح العـام لسورة الكهف ﴿مـا شاء الله لا قـوة إلا بالله﴾ ورأينـا كيف تحقَّق هذا المعنى، وانـطبقَ هذا المفتاح، على كل واحـدة منها، ورأينا كيف كانت مشيئةُ الله نافذة، وقوته قاهرة، ورأينا فيهـا نصرَ الله لجنـوده، وتأييدَه لهم، واختيارَه الجنودَ والآيـات لذلـك، ورأينا فيهـا قوة كـلٍّ من استمد قوته من قوة الله، وحُسْن عاقبته وخاتمته.

لاحـظْنـا في هــذه القصص العلمَ الـربـاني مِنْ خـلال مَنْ علَّمهم الله سبحانه، ومكّن لهم في الأرض.

لاحظْنا فيها سعادةَ ونفـع وخيـر كل من رحمهم الله، وتقـديمَهم مظاهـرَ هـذه الرحمـة والعلم للآخـرين، وأثرَ العلم الممـزوج مـع الرحمـة، المقرون بها.

عـرفنـا من هـذه القصص الأربـع، كيف نُصحِّـح العقيـدة، وكيف نَـزِن القيم بميزان العقيدة، وكيف نستخدم المنهاج القـرآني الإيماني للفكـر والنظر والبحث والمعرفة والدراسة.

وأخذْنا منها الكثير، وعرْفنا عنها الكثير ـ بفضل الله وتوفيقه سبحانه ـ.

والحمد لله رب العالمين. والصلاة والسلام على سيـدنا محمـد، وعلى آله وصحبه.

سبحـانك اللهم وبحمـدك، نشهد أن لا إلـه إلا أنت، نستغفرك ونتـوب إليك.

المـَراجع

١ ــ أحكام القرآن.
للقاضي أبـي بكر بن العربـي
تحقيق علي محمد البجاوي
مكتبة عيسى الحلبـي ــ مصر ــ بدون تاريـخ

٢ ــ أضواء البيان في تفسير القرآن بالقرآن.
لمحمد الأمين الشنقيطي
عالم الكتب ــ بيروت ــ بدون تاريـخ

٣ ــ البداية والنهاية.
للإمام ابن كثير
مكتبة المعارف ــ بيروت ــ الطبعة الأولى ١٩٦٦

٤ ــ تأملات في سورة الكهف «الصراع بين الإيمان والمادية».
لأبـي الحسن علي الحسني الندوي
دار القلم ــ الكويت ــ ١٩٧١

٥ ــ تفسير القرآن العظيم.
للإمام ابن كثير
المكتبة التجارية ــ مصر ــ بدون تاريـخ

٦ ــ تهذيب الأسماء واللغات.
للإمام النووي
دار الباز للنشر والتوزيـع ــ مكة المكرمة ــ بدون تاريـخ

٧ ــ الجامـع لأحكام القرآن.

للإمام القرطبي
دار الكتاب العربي ـ مصر ـ الطبعة الثالثة ١٩٦٧
٨ ـ جداول التقويم الميلادي المقابل للتقويم الهجري.
لأحمد عادل كمال
دار النفائس ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٨٠
٩ ـ حجة القراءات.
لابن زنجلة ـ تحقيق سعيد الأفغاني
مؤسسة الرسالة ـ الطبعة الثالثة ١٩٨٢
١٠ ـ الدر المنثور في التفسير بالمأثور.
للإمام السيوطي
دار الفكر ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٨٣
١١ ـ ذو القرنين.
لمحمد خير رمضان يوسف
دار القلم ـ بيروت ـ الطبعة الأولى ١٩٨٦.
١٢ ـ روح المعاني.
للإمام الآلوسي
دار إحياء الكتاب العربى ـ بيروت ـ بدون تاريخ
١٣ ـ الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام.
للإمام السهيلي ـ تحقيق عبد الرحمن الوكيل
دار الكتب العربية ـ القاهرة ـ بدون تاريخ
١٤ ـ الزهر النضر في نبأ الخضر.
للإمام ابن حجر العسقلاني
مجموعة الرسائل المنيرية. المجلد الأول. الرسالة السابعة
دار إحياء التراث العربي ـ بدون تاريخ
١٥ ـ سنن ابن ماجة.
بعناية محمد فؤاد عبد الباقي
المكتبة العلمية ـ بيروت ـ بدون تاريخ
١٦ ـ سنن أبي داوود.
مراجعة وتحقيق محمد محي الدين عبد الحميد

دار الكتب العلمية ــ بيروت ــ بدون تاريخ

١٧ ــ سنن الترمذي.
بعناية عبد الرحمن عثمان
دار الفكر ــ بيروت ــ الطبعة الثانية ١٩٨٣

١٨ ــ شرح النووي على صحيح مسلم.
المطبعة المصرية ومكتبتها ــ مصر ــ بدون تاريخ

١٩ ــ صحيح الإمام البخاري.
مكتبة ومطبعة محمد علي صبيح ــ مصر ــ بدون تاريخ

٢٠ ــ صحيح الإمام مسلم.
دار الفكر ــ بيروت ــ ١٩٨٣

٢١ ــ فتح الباري شرح صحيح البخاري.
للإمام ابن حجر العسقلاني
دار المعرفة ــ بيروت ــ بدون تاريخ

٢٢ ــ في ظلال القرآن.
لسيد قطب
دار الشروق ــ الطبعة الخامسة ١٩٧٧

٢٣ ــ الكامل في التاريخ.
لابن الأثير
دار صادر ــ بيروت ١٩٧٩

٢٤ ــ المستدرك على الصحيحين، وبهامشه تلخيص المستدرك للذهبي.
للحاكم النيسابوري
دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ بدون تاريخ

٢٥ ــ المفردات في غريب القرآن.
للراغب الأصفهاني ــ تحقيق محمد سيد كيلاني
مكتبة مصطفى الحلبي ــ مصر ١٩٦١

٢٦ ــ نيل الأوطار.
للإمام الشوكاني
دار الجيل ــ بيروت ١٩٧٣